عندما حلّ

الرَبيع فؤادي

نعمت البياتي

الجنس   :رواية
اسم المنجز : عندما حلّ الرَبيع فؤادي
المؤلف : نعمت البياتي
القياس : ١٤ × ٢١ سم
عدد الصفحات : (٢١٦)
عدد النسخ : (٥٠٠) نسخة
الطبعة الأولى : لسنة ٢٠٢٠
التصميم : رياض جواد كشكول
الناشِر : دار المثقف للطباعة والنشر / بغداد/
الكرادة داخل / شارع العطار / هاتف ٠٠٩٦٤٧٧٣٩١٧٤٧٣٦

دار المثقف للطباعة والنشر

رقم التسجيل الدولي (ردمك) (٩٧٨-٩٩٢٢-٩٤١٤-٣-١)
(ISBN 978-9922-9414-3-1)
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقل بأيّ وسيلة من الوسائل التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية ، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطّي من المؤلف ودار النشر .

All rights reserved. No part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any means: electronic, mechanical, photo copying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the Author.

(يرجون تجارة لن تبور)

أهدي جهدي هذا لله قبل كل شيء وآخر كل شيء ولنفسي ولابنتي زينب وزهراء وولدي علي

الفصل الأول

كانت ساعات ثقيلة الخطى، سوداوية الوقعِ، قاتمةَ الظلال... لم تصدّق فيهـا تلك (الطفلة) ما حلّ بها، إذ جاءها الخبر كالصاعقة... أين ستذهب؟ ومن سيعيلُها... ظلّت طيلـة أيام وليالي (الفاتحة) التي أقيمت من قبل عمها الأكبر الذي تكفّل بمصاريف الفاتحةِ كلها، حيثُ أنها- أي تلك الفتاة الصغيرة- لم تَكنْ لها أية قرابةٍ أخرى غير عمها- اللـهم إلا أبناء عم وأبناء خالات لأجدادها لا تعرف لهم ذكراً أو خبراً- قد انتشروا في أنحاء بغداد ومحافظات بلادها... ولم تكنْ تعرفهم مطلقاً أو تراهم من قبل أن تقع تلك الحادثة الأليمة التي أخذتْ منها أعز وأحبّ الناس إلى قلبها- بلْ وكلّ مالها في هذه الدنيا- أمها وأباها وأخاها الأصغر... ظلت تلك الفتاة الصغيرة تفكر في مصيرها المجهول كلما حاولتْ أنْ تنام، ومن أين يأتيها النوم، في تلك الليالي التي كانت وسادتها الصغيرة قد أغرقت بدموع عينيها الجميلتين، سوداويتي اللون... كانت تنظر إلى النسوة حولها في مجلس فاتحة والديها وأخيها الأصغر، وهنّ يلطمن وجوههنّ ويصرخْنَ بصوتٍ عالٍ مرتدياتٍ ثياباً سوداء و متلفعات بالعباءات وهنّ يصرخْنَ خلف صياح وصراخ قارئةٍ تجلس في صدر المجلس تدعى بـ (الملّة)...وهي تقرأ في كتابٍ تمسكه بيدها بينما تمسك سماعة (الميكرفون) باليد الأخرى... كانت تلك الطفلة الصغيرةُ((فاتن)). تنظر بعينيها البريئتين إلى تلك النسوة المتجمهرات على شكل حلقات حولها وهنّ يلطمن صدورهنّ ورؤوسهنّ ويصرخَنّ ويبكين (أو يتباكين) بصوتٍ عال، وهي- أي فاتن- لا تكادُ تفقهُ شيئا ولا تستطيع أن تجاريَهُنَّ في ما يفْعلْنَ ... إلاّ بما تعرفه فطرتها الطفولية. ألا وهو البكاء بصمت بكاء حقيقياً – بدموع حرّى ... كانَ لغزاً غامضاً بالنسبةِ إليها، ذهاب النسْوةِ إلى زوجة عمها الأوحد وتقبيلهنّ لها ومواساتها وكأنّ (زوجة العم) هي صاحبةُ العزاء أو المصيبة... وكلّ ماكُنَّ يَفْعَلْنَهُ معها، هو النظر بعينِ الشفقةِ إليها ومن ثم مغادرة المكان بعد مصافحة وتقبيل زوجة عمها التي لم تكنْ علاقةُ والدها من قبل (تلك الحادثة) وطيدةً بها أو (بعمها) نفسه... فذلك العم الأكبر، قد أحتلّ منزل جدّها حسبما تتذكر من كلام والدها حينما كانتْ تجلس مع والديها وتستمع إلى احاديثهما وهما يجلسان سوية في الأمسيات أو بعد الظهيرة...

سحبتْها من يدها- تلك الزوجة المصون- وأخذتها من بين ذكريات منزل والديها عنوةً لماّ انتهى اليوم السابع من (وفاةِ الوالدين)- إلى منزلها- أو بالأحرى منزل (جدها) الذي احتلّه الأخ الأكبر وغَصَبَ حقّ أخيه الأصغر ظلماً وعدواناً بِحجَّة أنّ والده العليل، الذي توفّي بين يديه- قد أوصى أن لا يغادر المنزل، وأن يبقى منزله (كما هو)- فلمْ يكن من ذلك الأخ الأصغر إلاّ الإذعان، وخصوصاً أنه كان مجرد طالب كلية لما توفى والده وتركه تحت رحمة أخيه الأكبر ومصروفه حتى أتم دراسته الجامعية... ولماّ تعرف على والدةِ (فاتن) في السنة الدراسية الأخيرة

وقرر الزواج منها، لم ترضى زوجة الأخ الأكبر أن يتشارك المنزل معها أحد... فأخذت تعدّ بمكرها وسائل شتى كي لا يتزوج (حماها) معها في منزل العائلة... كانت حجتّها وطريقتها الماكرة. أن خطبتْ له ابنة أخيها. في خطةٍ محكمةٍ لا يمكنُ أَن تخطر ببال بشر، بل كانت خطةً من صنع (الشيطان) نفسه...

ذلك (الطالب) الجامعي المسكين الذي أتخذ من زوج أخيه شبه (أخت) له، وهو الذي لم يرزق بأخت من قبل... فكان يحكي لأخيه وزوجه ما كان يمرّ به مع الفتاةِ التي أحبّها... ويشاورها في أموره... وما كان يحظى به هو المشورة والمحبّة (الظاهرية) والنصيحةُ الأخوية، بحيث استحكم مكرُ تلك المرأة وانطلتْ خدعها عليه. وأي شخصٍ يمكنُ أن يصدق- أنّ بعد تلك الطيبةِ (مكراً) وأنّ بعد ذلك اللسان المعسول، (سُماً)، وأنّ بعدَ تلك النصائح الخالصةِ، (مصالح مخبئة)...؟! من كان ليصدق!!

لقد ذهبتْ بنفسها لخطبةِ فتاته الجامعية!! فهي أخته التي لم تلدها أُمه... ولكنْ ماذا حدثَ فجأة!! بدأت تسمّم أفكاره كلها وتبثّ بلسانها المعسول سماً خفياً عنْ أنّ تلك الفتاة (لا تناسبه)، وأن عائلتها لا تناسب عائلَتَه، وأنها مجرد (عانس) ألقتْ بنفسها عليه، فصدّق رويداً رويداً كلامها وخصوصاً أنها كانت تفتعل المشاكل مع خطيبته التي أحبها واختارها من الجامعة لتكون شريكته...بحجة أنها لم تسلم عليها(مرةً) أو أنها أهملت وجودها مرةً أخرى أو إنّ أهلها يطالبون بمهرٍ عالٍ، أو أنّ طلباتهم بحجز القاعة الفلانية، طلبات لم تحدثْ من قبل، منِ قَبَلِ أهل العروس(الذين يجب أن لا يتكلموا)- حسب كلامها- وأن لا يطالبوا أهل العريس بشيء... ويوماً بعد يوم، وبعد كلّ وجبةِ طعام تعدّها ويجلس (حموها) معها ليشاركهم إياها، وبطرقها الخفيةّ (الملتوية)... بمكر الليل والنهار... استطاعت أخذَهُ معها إلى منزل أخيها، وبحضور أخيه الأكبر ومباركته... (أقنعتْهً) أنهُ سيرى أبنة أخيها فقط، فما أن أبدى إعجابه... حتى اسرّ الأخ الأكبر إلى زوجه كلاماً وكأنهما كانا على اتفاقٍ مسبق... فجاء (رجل الدين) ليعقد له قرآنه على ابنة أخ (تلك الزوجة)... وهو- أي ذلك الحمو- كان قد عقد قرآنه على تلك الفتاة الجامعية وحددوا زواجهما بعد أسبوع من تلك الحادثة... هرب الأخ من منزل أبيه... من كان ليصدّق أنه بين ليلةٍ وضحاها قد اصبح لديه (زوجتان) وهو لم يتزوج أياً منهما... لم يعدْ يعرف ما يًفْعله... قررّ مغادرة منزل أبيه بعد أن اتصل هاتفياً بأخيه الأكبر ليوضح له، أنه قرر الزواج بفتاته الجامعية وترك ابنة أخ زوجته...وهكذا، أصبحت (زوجة الأخ) ملكة ذلك المنزل (المُطلَّقة) لانّ حماها لم ولنْ يجلب زوجته لتسكن معها بعد تلك الحادثة، علاوةً على أنّ الأخ الأكبر هدده بأن (يتبرأ) منه إن فعل فعلته...

كل تلك الأحداث وأكثر منها كان الزمان قد طوى صفحتها ومرّت مرور الرياح على الشجر ولكنّ (قلب) زوجة العم تلك كان قد أقفل على تلك الذكريات ولم يرضى أن يطوي صفحةٌ واحدةً منها... وها قد جاءت فرصتها (لتنتقم) من تلك المرأة التي أخذت (حماها) من بين يديها ومن بين يدي ابنة أخيها التي خططت لها أن تعيش معها في منزل العائلة (الكبير)...

- أنتِ ... مكانك هنا!!

صاحت بصوتٍ قاسٍ وهي تشير بسبابتها إلى غرفةٍ صغيرةٍ مظلمه تحت السلم- وهي غرفةٌ كانت معدةً لوضع أغراض البيت الفائضة عن الحاجة فيها- مثلما شعرت (فاتن)... أنها فائضةٌ عن الحاجة...

ضمت ساقيها إلى صدرها وهي تنكفئ على سرير صغير في قعر تلك (الغرفة) التي هي أشبه بقبر صغير...

ولم يكن ذلك السرير آلا سريراً قديماً لوضع (فرش) المنزل الفائضة فوقه وقد قالتها لها زوجة عمها...

- ماذا نفعل! هذا بلاء وقد جاء الله به إلينا، موت والديك، أولا، ثم مجيئك هنا لتأخذي الغرفة الوحيدة

التي كنت ارصف فوق سريرها فرش منزلي الزائدةِ عن الحاجة... لقد وضعتُهُ لك وهذا من طيبي وحُسْنِ ترتيبي رغم ما فَعَله والدكِ معي... ولو انك لا تعلمين شيئاً... ولكنّ والدك، آذاني كثيرا... ولذلك لم نكن نزوره أو يزورنا، ألا ترين... فوثبت (فاتن) من مكانها والدموع تقفز من عينيها، وصاحت بصوت متهدج:-

- كلا! أنتِ تكذبين... والدي لم يؤذي أحداً أبداً...

- الله، الله! تعال يا أبا (حسام)، و انظر ابنة أخيك ماذا تقول لي... ونعم التربية أنتِ... أنا كاذبة... إنها بدايةُ رائعة للعيش معي هنا... أسمعتَ يا حسام...

- نعم يا أماه...

- انقل هذا الكلام لوالدك وكنْ أنتَ الشاهد على خبثِ سريرة هذه الطفلة... الله اكبر... إنها لم تتجاوز الثامنة ولديها هذا اللسان السليط... إنها تشبه أمها في كل شيء وأول شيء وقاحتها...

- أمي ليست وقحة...

ووثبت (فاتن) على زوجة عمها ولم تتركها إلا وقد غرزت أظافرها في وجنتي تلك المرأة وهي تبكي...

- أمي ليست وقحة! أبي ليس سيئاً...

ولم يخلصّ تلك المرآة من عنفوان (فاتن) وغضبها إلا العم الذي أخذها وسحبها من تحت إبطيها ورفعها إلى الأعلى، فقامت زوجة العم مرعوبةً وهي تصرخ:

- إنها مجنونة! أرأيت جزاء إحساني إليها! جلبتها إلى منزلي... هذه اللقيطة... التي ليس لها احد... إنها كأمها... هذا جزاء اختيار أخيك، فهي مثل أمها سليطةٌ وقحة... لا أريدها في منزلي...

لا أريدها...

- كيف تجرئين على فعل هذا بزوجتي!

مدّ العمّ سبابته نحو الطفلة فاتن وكأنّه يمدّ جسوراً من الكراهية بينه وبين ابنه أخيه التي لم تكنْ تعرف عنه شيئاً قبل تلك الحادثة ولم تكنْ قد رأتهُ يوماً، إلا كعابر سبيل يمرّ مرور الكرام فيسلمّ والدها عليه ويتحدثان قليلاً ثم يذهب كل شخصٍ إلى حال سبيله، هذا إن تصادفا في مكانٍ عام يوماً ما... قفزتِ الدموع إلى عينيها وهي تحاول الدفاع عن نفسها:-

- يا عم! هي تتكلم بالسوء عن والديّ! هي تتكلم بالسوء عن أبي...

قالت ذلك وطرفت بعينيها نحو (عمها) لترى ردّة فعله... فلم ترَ سوى الشر يتطاير من عينيه...

- اذهبي إلى (المخزن)... أعني غرفتكِ... هيا...

صرخ بعنف ... ثم أضاف...

- كانَ عليَّ أنْ لا أجلبك هنا، ولكنْ ما باليد حيلة! لا مُعيل لكِ ويجبُ أن أكون وصياً عليكِ...

وضربَ كفاً بكف بينما ظلت الطفلة متسمرة في مكانها لا تلوي على شيء والدموع تنهمر من مقلتيها... جلست على السرير وذلك بعد أن أغلقت باب (المخزن)... دفنت رأسها بين فخذيها الذين أحاطتهما بذراعيها وظلت تبكي نفسها... ((أماه، أبتاه، أخاه!!))...

وفجأةً ذهبت بها الذكريات إلى غرفة نوم والديها حيث كانت والدتها تحتضنها وتشبعها قُبلاً...

((أنتِ أميرتي الحبيبة... أنتِ اجمل فتيات الدنيا))...

((أنتِ اجمل نساء الأرض حبيبتي))...

قالها والدها وهو يدلف الغرفة فجأةً وقد قدم من عمله...

((أبي الحبيب!!))... قفزتِ الطفلة فوق السرير لتمدّ ذراعيها نحو والدها فتحيط رقبته بهما...

((حبيبة بابا! هوبا! هوبا!)) وأخذ يدورُ بها في الهواء...((ماما! ماما! انظري ماذا جلب لي أبي))... قالتِ الطفلة ذلك بعد أن وضعها أبوها على الأرض... فإذا بها تُبصر هديةً مغلفة فتلقفتها يداها لتفتح الشريط بسرعة والغلاف فتجد أمامها لعبةً كبيرة بطولها تقريباً...

((الله! الله!... انظري يا ماما! عاشت يداك يا أبتي!))

((شكراً لك يا حبيبي))... قالت الأم شاكرة وهي تضمّ زوجها بذراعيها وتطبعُ قبلةً على خده...

((لقد حضرّت الطعام! هيا بنا لنأكل))...

((كيف حال صغيري هنا)) قال الأب ذلك وهو يشيرُ إلى بطن الأم المنتفخ، فابتسمت بسعادة...

((إنّه يسلمّ على والده... حبيبي الغالي، هيّا دعني أساعدك على نزع ثيابك لتغسل يديك وتتناول طعامك... فاتن، هيا... احملي لعبتك إلى غرفتك))

((ماما! دعيني أخذها لغرفة المعيشة لألعب بها أمامكما قليلاً! هلاّ سمحتي؟))...

بكت (فاتن) بمرارة وهي تتذكر والديها... فأغمضت عينيها مرةً أخرى لتتذكر تلك الذكريات، ساعة وُلد اخوها الأصغر (فارس)... كم كانت سعيدةً به...

- آه! يا الهي! أية عذاباتٍ أمرّ بها الأن! صاحت فاتن بألم... وانكفأت على نفسها وظلت تبكي حتى نامت وهي على ذلك الحال... وهل تركتها زوجة عمها لتبكي حظها فقط؟! بل سرعان ما أرسلت ابنها الذي يكبر (فاتن) بعامين كي يناديها، ليس لأجلها، بل لأشياء كثيرةٍ أخرى...

- اسمعي يا بنت (......)...

وذكرت اسم أمها باحتقار...

- عليكِ أن تعرفي أنّ وجودك غيرُ مرغوب به، وأنا أعلم أنك لا تحبيننا مثلما فعل والدكِ...

- لا تذكري والديّ بسوء!

همهمت (فاتن) بغضب وكأنها أسدٌ كتوم، فتلمسّت زوج العم آثار أظافرها على وجنتيها بأناملها بخوف ثم قالت متداركة...

- على أية حال... إنْ أردت أن تأكلي فعليكِ أنْ تعملي هنا...لستِ هنا في فندق (5 نجوم)!

ولقد تناولنا طعامنا أنا وعمك وابننا... فهلميّ الآن واغسلي الصحون كي أعطيك طعاماً...

قالت ذلك بصوتٍ آمر...

- أم أنّ (ماما) لم تعلمّكِ كيف تغسلين الصحون؟

قالت ذلك وهي تضحك بسخرية، ثم تركتِ المطبخ قائلةً بصوت متوعد...

- وإياك، ثمّ إياك أن تكسري صحناً، فأنْ فعلتِ... فأنتِ لن تحصلي على أية لقمة... هه...

ونظر إليها الابن بمكرٍ وسار بعد أُمه وهو يتوعد (فاتن) بنظراتٍ ماكرة، أنّه سيعدُّ لها المقالب... وأنّ عليها أن تحذر منه ومن مقالبه (إن أرادت السلامة) شمرّت الطفلة الصغيرة عن ذراعيها ووضعت مقعداً صغيراً لتصعد فوقه كي تصل إلى مغسلة الصحون وتستطيع السيطرةَ على غسل الصحون والقدور... كان قلبها يعتصر ألماً، أما معدتها، فقد كان صوت جوعها قوياً حاداً... وأمسكت (فاتن) بإسفنجة التنظيف وهي تحذر أن تكسر صحناً وصرخت في سرها وهي تنادي خالقها أن يفرجّ عنها ذلك البلاء من حيث لا تحتسب لأنّ قلبها الصغير لا يتحمل...

الفصل الثاني

مرتْ عدة أشهر و (فاتن) على ذلك الحال، وأبن عمها يكيدُ لها المكائد ويتعمد إيذائها فكلما قامتْ بالتنظيف في منزل عمها، يقوم بإيساخ المنزل بقدميه بينما هو قادمٌ من خارج المنزل بحذائه المليء بالطين... متعمداً إظهار ذلك أمامها، وهي التي لم تكن تستطيع الكلام أو الاعتراض على ذلك...

أما مَدْرَسَتُها، فلم يتحدث احدٌ بشأنها وعندما تجرأت (فاتن) يوماً ما، أن تسأل عمها عن دراستها، صاحت زوجة العم بشكل هستيري...

- فلتصرف عليك خالتكِ التي لم تسأل عنك ولم تحضر فاتحة أختها الوحيدة... أية عائلةٍ انتم! أو لمْ اقل لك يا أبا (حسام)... إنهم عائلة متفككة!!...

هيا انهضي واغسلي الصحون وبعد ذلك اعملي لنا الشاي أنا وعمك واجلبيه إلى غرفتنا... هيا... بسرعة...

اعتادت (فاتن) تلك الكلمات ولم تعد تبكي كل حين، لكنّ وسادتها اعتادت دموعها كل ليلة وهي تذكر والديها وأخاها وكم كانت سعيدةً معهم وصوت ضحكات أخيها وهي تلعب معه في حديقة منزلها تملأ الأركان... وبينما كانت تحمل صينية (الشاي) وهي تسير نحو غرفة عمها وزوجه... إذا بابن عمها يأتي مسرعاً ويضرب بكفّه تلك الصينية فترتطم بالأرض وتتكسر الأقداح فجثت على ركبتيها تلملم شظايا الزجاج بأناملها، عندما خرجتْ زوج عمها من غرفتها غاضبة...

- ماذا فعلتِ يا حمقاء! يا الهي! أهذا ما قدّرك الله على فعله؟! كم أنتِ غبيه... اليوم لن تحْصلي على عشاء يا حمقاء، حمقاء... ماذا تفعلين... تعساً لك!!

أمسكتها من شعرها وشدتها إلى الأعلى ثم تركتها وشدتها مرةً أخرى بعصبية...

- أنت بلاءٌ سُلّط عليّ! متى أخلص منك... متى؟

انهمرت الدموع من عيني (فاتن) رغماً عنها وأناملها الصغيرة قد امتلأت دماً بفعل شظايا الزجاج...

- ارحميني، لست أنا! إنه حسام... يفعلها عمداً...

- هل ذكرت اسم ابني مرةً أخرى! أوَ تجرئين! أيتها الحقيرة الصغيرة... تعساً لك...

وانهالت عليها بالصفعات حتى تورم خدّاها...

- رحماكِ! لست أنا! لست أنا!... عمي! عمي! أمي، أبي!! أمي، أمي أمي...

- كفى! لا تذكري اسمها! كفى... اذهبي من وجهي! اذهبي...

- كفى يا أُم حسام!

امسك العم بيدي زوجه التي فقدت سيطرتها على نفسها وهي تضرب الطفلة الصغيرة بهستيريا...

- إنها تتعدّى علينا... أولا تسمعها يا أبا حسام!!

- كفى! أنتِ (تحرقين) دمك سُدىً! اتركيها...

((يا ربي... أليس عندي حظوة عندك! أوَ لستُ مخلوقةً من صنعك! متى تفرّج عني يا ربي!...))

قالت ذلك (فاتن) وهي تدفن رأسها فوق وسادتها بينما أناملها لاتزال تسيل دماً... ولمّا كانت تناجي ربها وتتوسل به، اذا بصوت يناديها... صوتٍ تخيلتْ أنّه صوت والدتها لبرهه... صوتٌ لم تصدق أنها ستسمع مثله بعد وفاة والدتها...

دفنت رأسها أكثر بوسادتها وقد تلطخت بدماء أناملها فلم تعد تبالي بشيء...إذ شعرت أنها تكره حياتها وتمنّت الموت من كلّ قلبها وهي تتذكر كم مرةً ضربتها زوج عمها عندما كان (حسام) بكل خبث يتعمد كسر الصحون بعد أن تغسلها... أو أنّه يتعمد إيساخ الثياب بعد أن تنشرها على الحبل...

((لماذا أعيش يا ربي... خذني بجوار والديّ وأخي... لماذا أخذتهم وتركتني... أمتني يا رب))...

- حبيبتي (فاتن)! يا الهي!

- فُتحت الباب فجأةً فرفعت(فاتن) رأسها...

- ما هذا يا ربي! كيف يجرؤون!

- من أنت؟

- دلفتْ زوج عمها خلف تلك المرأةِ التي ظهرت فجأة من العدم وهي تصرخ...

- من أين جئتِ؟ ومن أدخلك وكيف دخلتي؟...

- لقد فتح ابنكِ الباب وقد سألتُه عن وجود فتاة اسمها (فاتن) فأجاب بالإيجاب وسألته أن يُعْلِمني أين هي فأشار إلى هذا المكان الرديء... كيف تسنّى لك أن تعاملي ابنة أختي هكذا؟... سأقاضيك في المحكمة! أوَ تعلمين ماذا فعلتِ!!...

- من أنتِ؟ ها! وسأقاضيك بتهمة الاعتداء ودخول منزلي عنوةً!

- انه ليس منزلكِ أيتها الثعبان ولابنة أختي فيه حصةٌ اكثر مما لك! فاحذري أنه بيت جدها! فلا تلعبي هذه اللعبة معي...

وهناك دخل العم وهو لا يصدق ما سمعته أذناه...

- ماذا هناك؟

- أوَ هكذا تعامَل الأمانة؟ تعالي يا حبيبتي... هيا بنا... وأمسكت بيد (فاتن) فإذا بها ترى الدماء، فصرخت...

- رحماك يا رباه! من انتم! هل انتم بشر!! الله اكبر! أنتم لستم بشراً...

- وأين كنتي طيلة هذه الأشهر أيتها الخالة الحنونة؟

قالت زوج العم بخبثٍ وتهكّم...

- حسنٌ! هل هذه أخت زوج أخي المرحوم؟ همهم العم بغضب... وتابع وهو ينظر شزراً إلى ولده الأصغر...

- أنتَ من ادخلها؟

- لستُ أنا يا أبي... لم أعلم ... لا أدري...

قال ذلك وهرب (حسام) من الغرفة... وكانت تلك الحسنه الوحيدة التي قام بها تجاه (فاتن) ولو انّه فعلها دون قصدٍ منه...

- حسنٌ يا عزيزتي، ما دمتِ قد سألتِ لماذا لم آتي... فأول شيء هو أنّ لا احد من طرفكم قد أعلمني... وثانياً: وهذا هو الأهم، لأنني كنت منشغلة مع ابني الأكبر إذ انه كان مريضاً...

قالت ذلك وعضتْ على شفتيها وكأنها تخفي سراً...

- والمهم الآن، لا أحد سيمنعني من ابنة أختي، لأنه من الأسلم لكم أن تكونوا لطفاء معي وإلاّ فأنّ المحاكم بيننا... صحيح أنني أسكن في الخارج، لكنني من هنا!

- إنّ من دواعي سروري أن أتخلص من هذه الفتاة القميئة، ابنة تلك التي....

- إياك وذكر أختي بسوء أمامي! أتفهمين؟

- كفاكما!

صاح العم فجأة وأردف...

- خذيها... أنها لك الآن...

الفصل الثالث

وأخذتني خالتي...

كانت خالتي قد سكنتْ خارج البلاد وتركت وطنها منذ زمنٍ بعيد، ولأنها كانت امرأة عاملة، في بلدٍ مستواه المعيشي عال جداً مثل (أميركا)، فلذلك لم تكن نستطيع المجيء إلى (العراق) موطنها الأصلي إلا كل ثلاثة أعوام أو أكثر... ولم أكنْ أذكر في طفولتي رؤيتها إلاّ مرةً واحدة كأنها الحلم... لكنّ خالتي تذكرني جيداً وكانت تحبني جداً، ولقد ضمتني إليها بشدةٍ وهي تبكي، فابتسمتُ شاكرةً الله أنِ استجاب دعواتي وخلصني من سجني...

- حبيبة قلبي... لن أتركك أبداً! أنتِ لا تذكرين ولكني حضرتُ ولادة امك إياك... أنا من غَسَلَكِ بيديّ هاتين... أنا احبكِ جداً، وليس لي بنات بل لي ثلاثة صبية انعم الله بهم عليّ، ولسوء حظي فقد أُصيب ابني البكر بمرضٍ أرقده في الفراش و اضطرني للاعتناء به... ولذلك كنت منشغلةً طيلة الأشهرِ السابقة، وأناجدّ آسفة لأني لم آتي قبل هذا لأخلصك من هؤلاء الوحوش...

- شكراً لله ولكِ يا خالتي... لقد استجاب الله دعواتي. وتابعتُ في سرّي كلامي... ((فعلاً أنا أستغفرك يا ربي لماّ وصلتُ مرحلةً جزعت فيها من ذاك العذاب... أستغفرك لأني اعترضتُ على موت والديّ وأخي، ولكني يا ربي لم أعترض على ذلك، بل دعوتك أن تميتني كما فعلتَ بهم لأخلص من عذابات الدنيا الحقيرة))...

جلستُ بجوار خالتي على مقعد ضيق في خطوط العراق الجوية وكذلك جلست خالتي بجواري، بينما كانت المضيفة النحيفة ذات الساقين الطويلتين والمكشوفتين اسفل تنورة ضيقة تصل اسفل الركبتين بقليل، أقول، كانت المضيفة تعطي الركاب تعليمات السلامة والأمان، فربطتْ حزام الأمان وهي تبتسم لي... شعرتُ بسعادةٍ خفيه ولكني خشيت على تلك السعادة أنْ تهرب مني فعضضتُ على شفتي كي لا أبتسم...

- ما بكِ ياخالتي الحبيبة، كيف تشعرين الآن...؟!

قالت خالتي وهي تلتفت نحوي بوجه باسمٍ ضاحك ذكّرني بوجه أمي الحبيبة فابتسمت رغماً عني وقلت بسعادة...

- شكراً لكِ ياخاله... أنا اشعر بالأمان ما دمتِ بجواري... وأغمضتُ عينيّ وأنا أحاول تخيل حياتي القادمة، لكنّ علامات الاستفهام وخوفي من عذابات جديدة، وسروري بخلاصي من عمي وزوجه وابنهما جعلني لا أحاول التفكير كثيراً فيما سيحدث لي أو ما سيكون من مصيري في منزل خالتي، وكيف ستكون حياتي الجديدة... وبدأت عدة أسئلةٍ تظهر فجأة كعلامات رعب لا استفهام أمام

ناظري، إلاّ أنّ عقلي أسرع بإسكاتها... ((كفى! كفى! كفى!))... ((كل شيء سيكون على ما يرام)).

الفصل الرابع

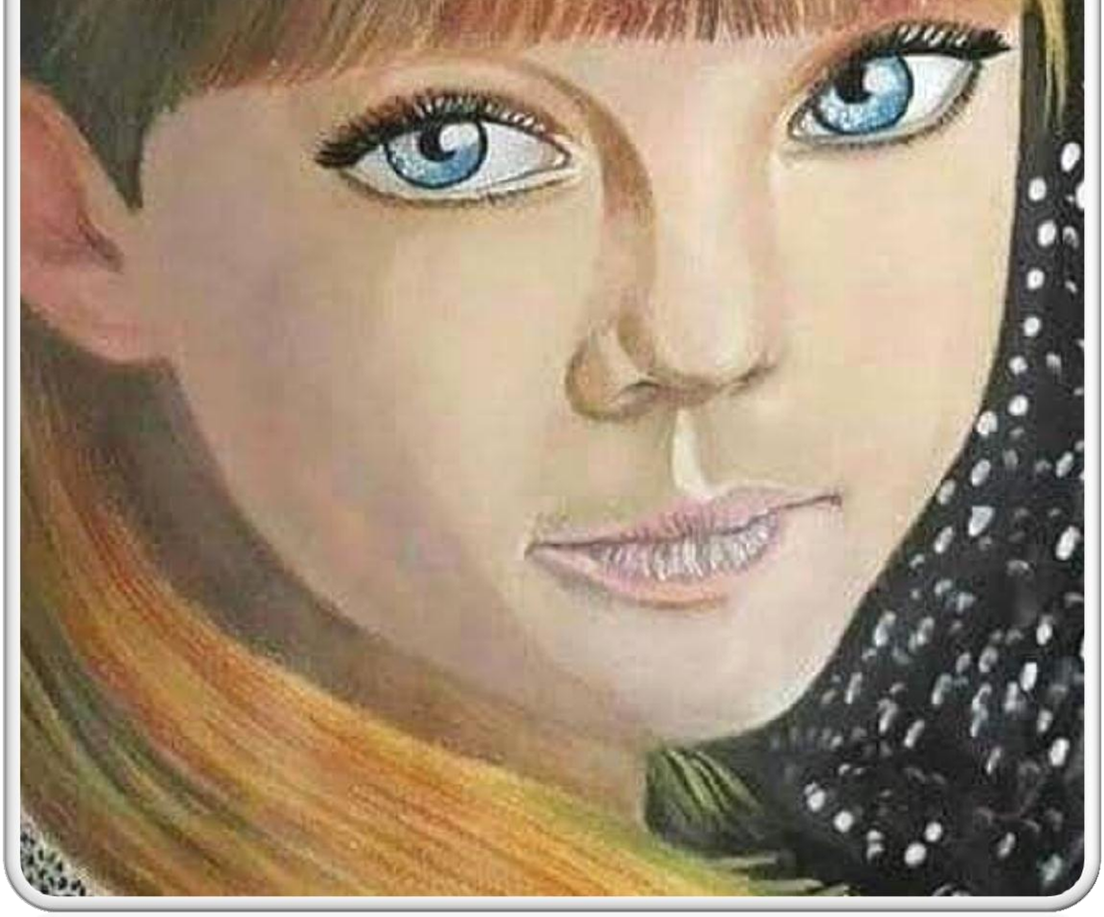

ولكنْ... من يكون أبناء خالتي!!! هل هم ملائكةٌ ام بشر!؟ لم أُصدق ذلك الترحاب الذي حظوتُ به، أنا الطفلة ذات السنوات التسع، بعد عام كامل من العذاب والحزن والضياع والصراعات... ياالهي... لقد حملني الأخ الأكبر كلعبةٍ صغيرة في الهواءـــ فذكرني بوالدي...

- مرحبا أيتها الصغيرة!

كان ذلك الابن الأكبر لخالتي، ولقد رأيتُ صوراً عديدة له، كانت خالتي ترسلها لوالدتي عبر الأنترنت... كما وأنّني أذكر صُورَهُ الفوتوغرافية التي كانت والدتي تحتفظ بها في درجها، قبل وفاتها، وهو يقف بجوار خالتي وأمي أثناء زيارته لوالدتي مع والدته... لقد قمتُ أنا وخالتي بضمّ تلك الصور وكّل صور العائلة الباقية التي لها ذكرى عزيزةٍ على قلبي في صندوق أخذتُهُ في حقيبة سفري، لمّا ذهبتُ وإياها بعد أن خلصتني من براثن زوج عمي، إلى منزل والديّ لألملم أغراضي واودع ذكريات أمي وأبي واخي، وثم لنقفل المنزل ونغادرهُ إلى حينٍ غير معلوم... لقد بكيتُ في سرّي كل ركنٍ فيه... بكيت في سرّي كلّ ما أحببتُ وتربيتُ معه وعليه، حيث كان في زوايا وأركان منزلي الحبيب... لقد غادرتُ جزءاً مني، وكأنّ قطعةً كاملةً مني قد انفصلتْ عني... تركتُ ذكريات أمي وأبي بيت تلك الجدران الحبيبة... أخذتُ قطعاً من ثيابها كتذكار... ((أمي الغالية، أبي الحبيب، أخي الغالي... لن أنساكم ما حييت))...

تذكرتُ وأنا أنظر إلى عيني ابن خالتي((الزرقاويتين)) حنان أمي وجمالها، نعم ، لقد ورث هذا من أمي، أنا على يقين... عيناه الحنونتين، نفس عيني أمي الحبيبة، لكنني لم أرث عينيها بل ورثت ملامحها الجميلة فقط وسمات من والدي كلون عينيه وشعره الداكنين...

- مرحباً بك! هتفتُ بخجل بعد أنْ وضعني على الأرض وهو ينظرُ أليّ بسعادة بينما انضم اخوه الأوسط والأصغر اليه ليسلّما عليّ... كان الأخ الأوسط يكبرني بخمسة أعوام بينما الأصغر بسنةٍ واحدة... أما الأخ الأكبر ((فؤاد)) فقد كبرني بخمسة عشر عاماً كاملة... وصاح ((أمير)) و ((هاني)) بسعادة وهما يمدآنِ رأسيهما من خلف ((فؤاد)) مبتسميَن وقد مدّا ذراعيهما نحوي ليسلما عليّ...

- مرحباً بك يا(فاتن)... حللتِ أهلا ونزلتِ سهلاً... هتف (أمير) الأخ الأوسط وهو يمسك بيدي اليسرى ويهزّها بحرارة مرحباً بي... بينما قفز (هاني) نحوي ولم يكنْ أطول مني بكثير مثل أخويه الأكبرين وأخذ يتفرّس في وجهي قبل أن يطلق صرخةً صغيرة من جوفه ضحك عليها الإخوان مع والدته...((فاتن ! أهلاً))...

- هيا، هيا... دعوها ترتاح... إنها منهكةٌ من الرحلةِ الطويلة... حبيبتي (فاتن)... لقد أفرغتُ لك غرفة أخت زوجي (المرحومة) إذ كانت تسكن معنا لسنوات أولّ هجرتنا واستقرارنا هنا وحصولنا على الجنسية الأميركية... إنها في الطابق العلوي بجوار غرفة ((فؤاد))... هيا يا ((فؤاد)) احمل حقيبة ((فاتن)) إلى غرفتها الجديدة... أتمنى أن تعجبك! قالت خالتي بعنفوان والدماء تتضرج في وجهها... ثم اقتربت مني وأحاطتني بذراعيها وهمست في أذني...
- أتمنى أن أعوضك عن كلّ الآلام السابقة التي مررتِ بها يا حبيبتي وأنْ أكون ولو جزءاً بسيطاً بالنسبةِ لكِ كـ ((أم)) صالحة، ولو أنني لن أعوضك عن فقدان أختي الحبيبة... ابداً يا فاتن، لن أستطيع... لكنني سأحاول... قالت ذلك وطبعتْ قبلةً على وجنتي... ونظرتْ اليها فرأيت الدموع تترقرق في عينيها الخضراوتين كعيني ابنها الأصغر ((هاني)) الذي كان يقفز في تلك اللحظات في أركانِ المنزل وهو يلعب مع نفسه فوق كرةٍ مطاطية كبيرة وظلت نظراتي متعلقّةً بشعره الأشقر بينما لاحت مني التفاتةٌ إلى ((أمير)) الذي امسك بيدي غفلةً وحثنّي على الصعود خلفه على السلمّ الخشبي نحو الطابق العلوي... كان أمير اشقر الشعر أيضا، إلاّ أن عينيه لم تكونا كعيني ((فؤاد)) أبداً... كانتا سوداوين، تماماً بسواد شعر فؤاد الفاحم... ذلك الـ ((فؤاد)) أخذ حقيبتي ووضعها في داخل غرفتي ولمّا وصلتُ اليها مع ((أمير)) ودلفنا سويةً، كان فؤاد جالساً على سريري الوفير- الذي كان سابقاً لعمته- وهو ينظر اليّ بعينيه الحنونتين... وهتف مشجعاً...

- هل تحتاجين منا مساعدتك في ترتيب خزانتك؟

- نحن تحت خدمتكِ أيتها الأميرة...

صاح ((أمير)) وهو يلوح بيده بحركةٍ مسرحيه وكأنني ملكةٌ ما... فأحمّرت وجنتاي خجلاً، فأنا لم اعتد هذه (المعاملة الراقية) وخصوصاً بعد عام كامل من العذاب والتقريع والتعذيب النفسي و(الجسدي) أيضاً...

- أشكركما من كلّ قلبي... أنتما ملكان من السماء!

هتفتُ وانا مطرقةٌ إلى الأرض، فارتاد المكان صمتٌ مطبق، لم يفتُقهُ الاّ صوت ضحكةٍ خفية مكتومة صدرتْ عن ((أمير)) الذي انفجر بعدها بالضحك حتى وقع على سريري فوق ظهره وهو يحرك ساقيه في الهواء كأنهما عجلتا دراجةٍ هوائية...

- كفى ياأمير! ما المضحك؟!
- انظر اليها! هههههه... إنها تقول أننا ملائكة! كم هي ساذجةٌ وطيبة... هههههه...

وتضرّح وجهي بالدماء ولم أعد أستطع رفع رأسي نحوهما بل تسمرتُ في مكاني، ولم ينقذني من ذلك الموقف إلاّ يدٌ توضع على كتفي ونظرات حنون زرقاء استقيتُ منهما الإنقاذ من كل مأزق...

- أيتها الصغيرة الطيبة... غرفتي بجوارك... إنِ احتجتِ أي شيء... أنا أخوك الأكبر... ويمكن أنْ تعتبريني أباً لك...
- أبي! أبي... آه! أنا حقاً مشتاقة له...

صحت بذهول ونظرت اليه لدقيقة، وتبادلنا النظرات في تلك الدقيقة الكاملة كأنها الدهر كلّه... حدثتُهُ فيها عن حزني الخفي وآلامي التي مررتُ بها وكان ينظر اليّ بحنان الأب وعطفه وكأنه قد فهم كل شيء عني...

- لابأس، لابأس...

قال وهو يربّت على كتفي... وتركني بعد ذلك وهو يشير لأخيه الأوسط بحركةٍ من إصبعه كي يخرج من غرفتي، فأمتثل الأخ الأوسط لطلب أخيه مسرعاً...

اضطجعتُ فوق السرير وأنا أفكر في حياتي التي مضت، وحياتي القادمة... ما الذي يخبؤوه الدهر لي... لقد قالت لي خالتي أنها قد أخذت مستمسكاتي ووثائقي كي تعادل دراستي في العراق مع مدارس أميركا، لأنها- حسب قولها- لن تتركني بدون دراسة مطلقاً... بل ستظل تدفع مصاريفي كاملةً كأبنةٍ لها... أصبحت خالتي (ربَّة منزل) فلم تعد تخرج للعمل بسبب ازدهار عمل زوجها فأخذ يقوم بأمور المنزل ومصاريفه (حيث أنه كان يعمل في مجالِ تجارةِ السلع والثياب) ولديه محلٌ لبيع الملابس في اقصى مدينةِ كاليفورنيا الأميركية...

((فؤاد)) كان طالباً للدراسات العليا آنذاك، ولقد اختار دراسة اللغة الفرنسية في كلية الآداب... كان اختيارُهُ لتلك اللغة ذا أثر بالغٍ عليّ وفيّ، حيث كنتُ أتسللّ في الأمُسيات أو بعد الظهيرةِ وهو منشغل وغير موجود في غرفته، فأقرأ في كتبه ومحاضراته، حتّى قبض عليّ ذات يوم وانا متلبسةٌ بالجرم المشهود ممسكةٌ بكتابه الفرنسي...

- حسنٌ!! عرفتُ الآن من كان يقلبّ صفحات كتبي!

قالها بحماسةٍ كبيرة وتقدّم نحوي ليمنعني من الخروج...

- لا تخافي... (فاتن)! أنا لستُ غاضباً منكِ... بالعكس! تعالي كل يومٍ إلى غرفتي لأعلمك كلمةً فرنسية جديدة... سيكون ذلك من دواعي سروري...

ورفعتُ نظراتي اليه بكل امتنان... كان (فؤاد) يزداد في نظري رفعةً وبهاءاً يوماً بعد يوم، حتى أصبحت أعتبره (شخصاً مقدساً) كنتُ في تلك الأثناء قد ذهبتُ إلى المدرسةِ برفقة (هاني) الذي يكبرني بعامٍ واحد كما قلتُ مسبقاً والذي تقدم عليّ بعامين دراسيين بسبب تركي للدراسة في عامي الماضي رغماً عني...

وأصبحت عادة يومية، أن أمرّ على غرفة (فؤاد) قبل أن ادخل غرفتي... فيذكر لي كلمةً فرنسية مع معناها وأظل أرددها بينما اكتبها أمامه عشرة مرات فوق دفتر صغير وضعه خصيصاً لي، وبجواره علبةٌ حلوى لذيذة كان فؤاد يتعمد تقديم قطعةٍ منها لي كلماّ جلستُ أمام سريره على الكرسي بجوار الطاولة الصغيرة حيث كنت أجده يجلس وهو يشرب الشاي أو يكتب أ ويدرس...

ولكنْ... هل هي مخيلتي، أم كان واقعاً انه كان يختلس النظرات اليّ بين الفينه وأخرى وأنا اكتب الكلمات أمامه وأتمرّن عليها فوق الدفتر الصغير...فكلما لاحت مني التفاتةٌ من فوق الدفتر دونما قصد، كنتُ أصطدم بنظراته الزرقاء الحنون نحوي وهو يُحيط ذقنه بأنامله كأنه يفكرّ في شيء ما... ولقد سألني يوماً سؤلاً مباغتاً...

- لماذا ترتدين هذا الحجاب الصغير هنا داخل منزلنا؟!

أولستُ بمقام والدك... وأخويّ كأخوين لك؟!

رفعتُ رأسي من فوق الدفتر الذي كنتُ اكتب فيه كلماتي الجديدة، ونظرتُ إلى (فؤاد) بنظراتٍ كلها دهشة ممزوجة ببراءة الأطفال...

- هكذا تعلمتُ من أمي قبل ان تموت رحمها الله! أن الفتاة ما ان تكمل تسع سنوات قمرية هلالية، فأنّ عليها ارتداء الحجاب، ولقد عملتُ بما علمتني أمي إياه!... ولقد قالت لي يجب أن ترتديه أمام كل شخص وبالتحديد (رجل) غير أبيكِ وأخيكِ... لان الله امرنا بذلك... وتلك كلمات (أمي)...

وعندما قلتُ تلك الكلمات... ضاقت عينا (فؤاد) وتركزت نظراته عليّ بشكل أكبر جعلني أفقد تركيزي وأُطرق حياءً...

- لقد كان هذا الكلام (هناك)! (وأشار بسبابته إلى نافذة غرفته)- هناك في العراق... لاهنا!! أنتِ طفلةٌ صغيرةٌ بيننا! ثمّ ماذا سَتُؤثر قطعةُ القماش الصغيرة على رأسك هذه بالنسبة لنا! ونحن نرى الفتيات في الجامعات والمدارس وهنَّ يرتدينَ ثياباً قصيرة، متبرجاتٍ، كاشفاتٍ شعرهن وأجسادهن على الأغلب... نحنُ اهلك!

- لن اخلع حجابي! فهو وصية أمي... وما تعلمته منها!!

قلت وأنا لا أزال مطرقة إلى الأرض برأسي وقد صعدت الدماء في رأسي غضباً... وأضفت قائلة...

- وإن كنتُ أضايقك بحجابي هذا فلن آتي هنا... أبداً...

وهرعت خارجةً من الغرفة بسرعةٍ مباغته تاركة (فؤاد) في حيرةٍ من أمره... وتخاصمتُ مع (فؤاد)، فلم أعد أُكلمهُ رغم أنه كان ينظر إليّ عند مائدة الطعام حيث نجتمع كلنا مع خالتي وزوج خالتي الرجل السمح الطباع والخلق...

أقول- كان ينظر إليّ عمداً كي انظر اليه فيصالحني، لكنني كنتُ أشيح بنظراتي عنه عمداً، ولا انظر اليه... إنّ أيّ شيء يمسّ (والديّ) كان (مقدساً) بالنسبةِ لي، فكل ما تعلمتُهُ هناك وما ربياني عليه، ماكنتُ قادرة على (تخيل)-أقول- تخيل عدم صحته ولو لواحد في المليون...

لقد اعتذر (فؤاد) مني (رسمياً) بعد أن مَرّت بضعة أيام لم أزُر فيها (غرفته)... استوقفني في حديقة منزل خالتي الأمامية قبل أن ندخل المنزل، وقال لي بينما كنت قادمةً من المدرسة، وانا ارتدي حجاباً ازرق اللون وحقيبتي على كتفي...

- حسنٌ، أيتها العنيدة! أنا آسف جداً لاقتحام خصوصيتك لكنني ارتأيتُ كأخٍ اكبر لك أو كـ ((أب)) أن تعيشي بحريةٍ داخل منزل خالتك، ولم أتدخل في خارج المنزل و ما عليك فعله فيه! فأنت حرةٌ تماماً...
- كلاّ لا تعتذر...(قلتُ وأنا مطرقة إلى الأرض)...

كنتُ في العاشرةِ من عمري حينها... أمسك (فؤاد) فجأةً بذقني بيده اليسرى ورفع رأسي نحوه... إنني لا أزال أذكر كم كان طويلاً بالنسبة لي، وكم كنتُ صغيرة...

- اذاً يا طفلتي الصغيرة! ستزورينني في غرفتي! هه؟

قال ذلك وهو يحدق النظر إلى عينيّ بعينيه الزرقاويتين اللتين لطالما أحسست انهما تخترقان روحي عندما تنظران اليّ بذلك الشكل... نعم، نعم... ((تمتمتُ بدهشة))...

لكنّ ما يؤلمني فعلاً... كانت تلك الكوابيس التي أخذت تُلقي بظلالها عليّ يوم تلقيت رسالة من عمي إلى خالتي يخبرها فيها أنه يودّ رؤيتي... أذكر أني أسقطت ملعقة طعامي من يدي دونما شعور، ونهضت من المائدة دون كلام، تاركةً خالتي وزوجها وأولادها الثلاثة في حيرةٍ من أمرهم... ومنذ ذلك اليوم بدأت تتنابني الكوابيس... فأصرخ في منتصف الليل وأنا نائمة، لأجلس فوق

سريري مرتعبة... كل كوابيسي كانت عن زوجة عمي وكيف كانت تضربني، معززةً بخيال خصب يحولها إلى فلم رعب في عقلي الباطن...

لم أكنْ اعلم كم ليلةً كنتُ اصرخ فيها، لكنني، وفي أحدى الليالي المقمرة، حيث ضوء القمر في تمامه يبعث نوره عبر نافذة غرفتي العلوية فينعكس عبر المرآة... أقول- أنني وفي احدى الليالي التي فزعتُ فيها من حلمي وأنا أصرخ...

اذا بي أسمع صوت باب غرفتي يُفتح بسرعة ويدلف خلفها ((فؤاد)) مسرعاً نحوي ليجلس قربي ويمسك بكتفيّ بيديه بحنان وهو يتكلم معي بصوت مرتجف...

- فاتن صغيرتي... ما بكِ يا طفلتي... كفاكِ صراخاً في الليل... قولي لي ماذا جرى لكِ... هل آذاك أحد... احكي لوالدك... الستُ أخاكِ الأكبر...

سالت الدموع من عينيّ ونسيتُ أني بلا حجاب، فقد رميت برأسي فوق ذراعيه وخصلات شعري قد انتثرت فوق أنامله التي امتلأت بدموعي الساخنة...

- أنا خائفة... أنا خائفة... أرجوك أن تحميني... إحمني!!

لا تدعهم يأخذونني هناك مجدداً... أرجوك! أرجوك...

- من هم!! لن أدع أحداً يأخذكِ مني مطلقاً... أبداً... أنتِ طفلة هذه الدار المدللة... أنتِ الأخت التي ملأت علينا حياتنا...ابداً، سأحميك بدمي...

رفعت رأسي اليه، فقد دبّ دفءٌ وشعورٌ جميل في قلبي وأوصالي... ((حقاً ستفعل!؟)) تمتمت بدهشة، فقرّب فؤاد وجهه مني وكانت بيننا مسافة ذراعيه الكبيرين قبل ذلك...

- أو لا تصدقينني... هيا الآن... احكي لي...

أومأت برأسي موافقةً بأنني اصدقه...

- لقد أرسل عمي بطلبٍ يريد أن يراني به...

قلتُ ذلك و إذا بجسدي يرتجف بين ذراعي (فؤاد) الذي شعر بي فضمني إلى صدره كأبٍ حنون...

- لا تخافي... أنا أبوك... أنا حاميكِ... سأحميكِ... لن ادعهم يأخذونك... أتفهمين...

شعرت بسعادةٍ غامرة وسرى الدفء والأمان في أوصالي

- والان...

رفع راسي عن صدره بسرعة ووضعني فوق سريري...

- نامي يا أميرة منزلنا بسلام... أنتِ بأمان...

رفع الغطاء ودثرني به فقفزت الدموع من عينيّ سعادةً

- شكراً لله ولك يا بابا (فؤاد)!

هتفتُ بسعادة، فأبتسم (فؤاد) ابتسامةً يشوبها الحزن... وكأنَّ اسم (بابا فؤاد) وقعَ وقع الصاعقةِ عليه...

- طفلتي الصغيرة... تصبحين على خير...

ولقد صدَقَ ظني وصَدَقت كوابيسي...فبينما كنا أناّ و (هاني) نرجع من المدرسة سويةً، إذا بنا نقابل (أمير) واقفاً أمام صندوق البريد الخاص بمنزل خالتي وهو يمسك بيده ظرفاً ويلّوح به في الهواء باتجاهي وقامته الطويلة الفارعة- إذ كان بطول ((فؤاد)) تقريباً- تشعرني بمقدار ضآلتي وصغري أمامه... صاح بي وهو ينحني...

- فاتن! إنه طردٌ خاصٌ لكِ... إنهّ من (العراق)...

وامتعضتُ بينما خفق قلبي بشدةٌ، وكأنّ سهماً من السماء وقع عليّ، وشعرتُ أن خطباً ما في الأمر، فانقبض قلبي... وبينما جلسنا سويةً إلى مائدة الطعام وخالتي (الحنونة) تقدم الطبق أمامي، كان زوجها (أبو فؤاد) يفتح الطرد بعد أن قال لي بصوت رصين:- هل تسمحين لي بفتحه...

- " بالطبع يا عمّاه"... قلت هاتفةً بعد أن سلمته الطرد (اذ كنت أرتعد خوفاً بعد أن قرأت اسم عمي عليه)...

كان (فؤاد) صامتاً وهو ينظر اليّ بنظراته الزرقاء من طرفٍ خفي مطرقاً نحو صحن طعامه دون أن يتناول منه شيئاً بينما صاح (هاني) بسرعة منادياً خالتي...

- أماه! أنا جائع... هلاّ أعطيتني صحناً اخر...
- - رباّه! ما هذه السرعة التي أنهيت بها طعامك يا (هاني)! كُل على مَهَل ولا تستعجل...
- خذ صحني! أنا لستُ جائعة...
- فاتن! لكن...

صاحت خالتي بدهشة، عندما قطع صوتها والد فؤاد...

- صه! اِسمعي! إنها دعوةٌ للحضور إلى القضاء العراقي، لقد رفع عمُّ فاتن قضية وصايةٍ على أبنةِ أخيه، وأتهمك باختطافها منه!!
- ماذا!

وسقط الصحن الذي كانت خالتي تودّ ان تضع لي طعاماً فيه بدل الصحن الذي أعطيته لـ (هاني)...

- يا الهي!! ما هذا الكلام! كيف؟... ماذا...

رفعت أهداب عينيّ السوداء لأنظر إلى شخص واحد كان لا يزال مسمراً نظراته عليّ... استنجدتُ به بنظراتي... لم نتكلم كلانا أيةّ كلمة بينما ردّ هو نظراتي الحائرة بأخرى مطمْئِنَة وكأنّه يقول لي فيها ((لا تخافي... أنا هنا معك!)) لم نتناول طعامنا... ولا حتى خالتي المسكينة، فقد كانت مذهولةً منْدَهشة... إذ أنّ(عمي) – الحنون- قد أرسل حوالةً مالية بتكاليف عودتي إلى العراق... من أينَ جاءته هذه العواطف وهذه المحبَّة؟!! وكيف لـ (عمي) الذي لم يكنْ ليسمح لي بتناول الطعام، إلا ما زاد من مائدة غدائهم أو عشاءهم.

- أقول، كيف ومن أين جاءته هذه الحفاوة ومن أين جاءَهُ هذا الكرم- كل ذلك الكلام، وأكثر منه، كان موضوعاً للنقاش بين خالتي وزوجها و (فؤاد) بينما كنت جالسةً قربهم في غرفة المعيشة أرقب نهاية الحوار، أو بالأحرى، أرقبُ (مصيري) أنا... كانت خالتي تتكلم بانفعال وهي تحرك يديها يميناً وشمالاً... بينما زوج (خالتي) جالس بوقار يحادثها برزانةٍ ودونما تعصب... كان زوج خالتي ذاك رجلاً طويل القامة، مربوع الكتفين، اسود الشعر والعينين، تعرفت خالتي به بعد التخرج كزميل عمل في العراق، وتقدم لخطبتها وتزوجها هناك وأنجبا (فؤاد) في عامهما الأول من الزواج... وحدثت ظروف بعد ذلك اضطرّت زوج خالتي إلى السفر... تلك الظروف والأحداث، كانت بدايةَ الطائفية في العراق، ولأنّ زوج خالتي من سكنه (بغداد)، ومن (السنّه)، وزوجُهُ من (كربلاء) أي إنها (شيعية) فقد خشي زوج خالتي على عائلته من الذبح والإبادة التي بدأت بوادرها بقتل عائلة صديقٍ له عن بكرةِ أبيها... ولقد بدأتِ التهديدات برمي قصاصات في منزل زوج خالتي في بغداد... وحيثُ أنه لم يملك سوى خالتي وأبنه وأخته الوحيدة، (إذ أنّ والديه قد توفيا منذ زمن)، فقد أسرع بإجراءات اللجوء إلى أميركا وهرب مع عائلته هناك ليؤسس حياةً جديدة في بلاد غريبةٍ عنه... وبدأ حياته مع خالتي من الصفر...

- حسنٌ! ماذا ستفعل؟ (هتف فؤاد بعد صمت طويل لم ينبْس فيه ببنتِ شفه)، نظر الأب إلى ولده الأكبر، لقد شعر باعتزازه بوجودي وهل هناك شخصٌ في العالم يشعر بولده اكثر من الأب؟!!...

- يجبُ أن تذهب (فاتن) إلى (العراق)، لأنّ عدم امتثالنا لقرار المحكمة سيجعل القاضي يُدلي بحُكمٍ غيابي، وبذلك سيضع (العم) يَدَه على منزل خالتك! أنا متأكدٌ أنّ هذه هي خطتّه!!...

- رباه! صرخت خالتي بذعر وضمتّ وجهها بيديها بطريقةٍ هستيرية، فقد أخذ منها التعصّب مأخذاً أفقدها قدرتها على السيطرة على أعصابها...

- ولكنْ! بأيّ حق يرفع قضية وصايةٍ على (فاتن) أنا الأولى بها وكيف ومتى فعل ذلك؟

- إنّ عمي يقوم بألقاء تُهَمٍ افترائية وله معارف في القضاء!

هتفتُ فجأةً، وكأنني كنتُ في غيبوبةٍ فقْتُ منها للتو...

والتفت ثلاثتهم اليّ، وكأنهم لم يكونوا قد شعروا بوجودي قبل هذا، ونظرت خالتي اليّ تطلب المزيد من الشرح...

- إنّ عمي هذا (وزوجته)... لا يخافانِ الله!... فهما مستعدان لأيّ شيء في سبيل النقود والأملاك... أنا متأكدة أنّ هناك مكيدةً في الأمر... خالتي... أنا اخشى عليكِ من الذهاب هناك... انهما... اعني عمي وزوجه... قد أعدّا لنا كميناً كي يوقعانا في المصيدة... صدقيني!

ذُعرت خالتي وتغيرت ملامح وجهها استغراباً من كلامٍ كذاك الذي صرحّت به، يصدر من فتاةٍ في العاشرةِ فقط من عمرها!! زمّت خالتي شفتيها ووضعت رأسها بين يديها وهي تنظر اليّ...

- حسنا! وماذا تقترحين أن نفعل الآن يا... فاتن؟!

- رفعتُ رأسي نحو خالتي بخوف والتفتُّ إلى (فؤاد) ووالده فشعرتُ بالارتباك، إذ كانت أنظارهم جميعاً، هما وخالتي موجّهةً نحوي، فشعرتُ وكأنني ماثلةٌ للقضاء فعلاً...

- أعتقد أنّي لا أعرفُ ما العمل يا خالتي...

قلتُ ذلك وأطرقتُ برأسي إلى الأرض بينما سالت الدموع من عينيّ وسقطت في حُجري... وساد صَمتٌ ثقيل...

في تلك الليلة، لم أستطع أن أنام مطلقاً... تمنيتُ أنْ أضع رأسي فوق صدر أمي وأنْ أحكي لها ما جرى لي...

شعرتُ بذعرٍ شديد ولم أستطع أنْ أغمض جفنيّ للحظة...

أحسستُ بفراغٍ يملأ قلبي ويعتصرُهُ بقوة وأنا أفكّر بما قالته خالتي وهي تقرّر مع زوجها أنّ عليّ الانصياع لدعوى (عمّي) وعدم الهروب من الأمر الواقع، لأنّ نوايا عمي غير معلومة ومن المحتمل أن يُحكم غيابياً عليّ وعلى خالتي ويستولي على منزل والديّ...

شهقتُ بذعر وقفزت الدموع من عينيّ...

- رباه! أنا لا أريد أن أعود لمنزل عمي!؟ رباه!

وفجأةً وبينما أنا في حزني تتصارع الأفكار في رأسي وتتلاطم كموج البحر على الصخر... إذا بي أسمع طرقاً خفيفاً على باب غرفتي، فقمت مفزوعةً أبحث عن ربطة شعري... " يا الهي!؟ كنتُ سأحتفل مع خالتي وأبنائها بعيد ميلادي الحادي عشر بعد أسبوعٍ من الآن!؟... هل سأستطيع البقاء حتى ذلك الحين".

قفزتْ تلك الفكرةُ إلى رأسي وأنا أرتدي الربطة بسرعة أمام المرآة الموضوعة على منضدة الزينة مقابل سريري، ناظرةً إلى وجهي الصغير المنعكس على سطح تلك المرآة وضَوءٌ باهتٌ ينبعث من مصباح صغير بجوار سريري قد تدلى فوق منضدةٍ صغيرة ملاصقةٍ له...

- من هناك! ((فتحتُ الباب على مهل))...

- أعتذر يا فاتن! ولكنْ... أنا... أنا...

وتلعثم "فؤاد" كان هو، نعم هو، خلف الباب، وكأنّه شعر بأحزاني وآلآمي وأحسّ أنّ النوم قد هجرني...

- هل تريدين النزول إلى المطبخ لاصبّ لكِ كأساً من الحليب!؟ أنا كنتُ عطشاناً، واردتُ النزول فارتأيتُ أن أنقر الباب نقراً خفيفاً لأرى إنْ هجرك النوم مثلي... انتِ مستيقظة، ألستِ كذلك...؟!...

- رباه! نعم..."زفرتُ بألم" وهرعت خارج الغرفة بدون مقدّمات وكأنني أقول له في سرّي... ((شكراً لقدومك، كي أترك غرفتي... لأنّ النوم قد هجرني والذعر قد ألمّ بكياني كله، ولأنّ الأفكار ستدفع بي إلى الجنون))...

جلستُ إلى طاولة الطعام في المطبخ... كانت الإضاءة خافتةً فيه، إذ ضغط فؤاد زر مصباح صغير متدلٍ من السقف بينما كانت إضاءة الصالةِ المنبعثة من مصباحٍ أوحد أصفر اللون قد تسللت إلى جزءٍ من المطبخ أيضاً لتشهد على أحداث تلك الليلة وهمومي وآلامي...

- تفضلي يا... فاتن...

وضع (فؤاد) كأس الحليب البارد أمامي بعد أن صبّه لي من علبةٍ كارتونية أخرجها من الثلاجة، وكذلك فعل لنفسه وجلس قبالتي ساحباً كرسياً خشبياً، وضم ذراعيه فوق المائدة وهو مطأطئ الرأس... كنتُ أراقب حركاته، لمّا رفع رأسه فجأةً وهتف...

- إذاً... سوف تعودين إلى العراق يا فاتن!؟ وبمفردكِ أيضاً!... (تمتم بحزن)...

- ماذا؟ بمفردي؟! كيف؟!

وأشاح فؤاد بنظراته عنيّ وكأنّه يشعر بالخزي أو الذنب...

- إنّ والدتي لا تريدُ أن تزيدَ الأمر تعقيداً يا فاتن، فعّمك رجل شرير وانتِ بنفسكِ قُلتِ أنه مستعدٌ للافتراء على والدتي...

- رباه! يا الهي...

دفنت وجهي بين يديّ وبكيت بحراره...

- أرجوك! أرجوك... لا تبكي... أنا لا احتمل دموعك...

يا الهي! ماذا أفعل... لقد وعدتُ بحمايتك!؟

نهض (فؤاد) بغضب عن المائدة واخذ يذرع المطبخ أمامي، ولكني كنت أبكي فلم أستطع بين دموعي رؤية قسمات وجهه أو حركاته...

- ما هو مصيري يا ترى؟! سوف لن أرجع هنا!
- بلى! ستعودين!

قفز فؤاد نحوي ممسكاً بيديّ ليبعدهما عن وجهي... وقرّب وجهه نحوي ليرمقني بنظراته الحادة تلك...

- لقد وعدتك وسأسعى بكل ما أوتيتُ من طاقة لأعمل بما وعدتك به... سنرى ما سيحصل وسأتابع أخبارك...

أريدك أن تتصلي بي... اِسمعي يا فاتن... هل تقبلين بما أقوله لك... عندي مبلغ من المال ادخرته في العام الماضي اذ عملتُ في مطعم عراقي للمغتربين قبل أن أُكمل دراسة الجامعة...

عملتُ لأجمع نقوداً تمكنني من دفع قسط العام الأول لدراستي العليا... أنا أريدك ان تأخذيها الآن ...

ونظر اليّ بشكل حازم وهو يخرج من جيب بيجامته نقوداً أمريكية ويضعها بين يدي وثم أمسكَ بأناملي... ليضمها فوق تلك النقود وظلت يداهُ محيطتان بهما...

- أتوسل لكِ أنّ تأخذيها، كي تتصلي بي... وتعلميني بكل شيء... أريد ان أعرف أخباركِ... أكيدٌ أنهم سيمنعونك، ولكنني متأكد، من أنك ستجدين طريقة ما... للاتصال بي... نظرتُ اليه وأنا لا أعرف ما الذي عليّ فعله...
- والآن... أكملي شرب الحليب وهيا إلى فراشكِ فغداً سيكون وراءك يوم طويل شاق... تصبحين على خير... يا طفلتي...

قال ذلك وهو يهمهم ملتفتاً اليّ قبل أن يغادر المطبخ ويتركني بمفردي والنقود بين أناملي...

- يا الهي! ماذا افعل...

وضعت رأسي فوق الطاولة وبكيتُ بصمت... ودعوتُ الله في سرّي أن ينقذني ويرحمني ويبعد شرّ عمي وزوجه عني بقدرته هو، لأنّ شرهما لا يندفع الا بقدرة الله وحدة!

- عيد ميلاد سعيد!!!

صاح الجميع لما هبطت من السلّم صباح اليوم التالي...كان الجميع بانتظاري... خالتي وزوجها وأبناؤهما...

- لكنْ... عيد ميلادي ليس الآن!

- تعالي يا حبيبة خالة... لقد قدّمنا عيد ميلادك قليلاً لتحتفلي معنا...

- يا الهي! لماذا تفعلين هذا... أنا... أنا...

وقفتُ أمام كيكة عيد ميلادي الجميلة، لقد صنعتها خالتي بنفسها لأجلي بينما اشعل هاني الشموع الأحد عشر، وصبّ (أمير) العصير في الكؤوس، أما (فؤاد) فقد كان واقفاً بجوار خالتي لا يلوي على شيء، وكأنّه يخفي شيئاً خلف ظهره... وأخذ الجميع ينشدون لي...

- عيد ميلاد سعيد يا (فاتن)... عيد ميلاد سعيد...

أخذت الدموع تنسال من عينيّ دونما أراده...

- لا تبكي يا حبيبتي... انفخي شموعك واطلبي طلباً... في سرّك...

- يا الهي! أين سأجد مثلكم؟! أنا... أنا حقاً لا اعرف ماذا أقول...(لم انفخ الشموع) وأكملت كلامي...

- لقد عوضتموني عن فقدان والديّ وأخي الأصغر... بينكم شعرتُ بدفء الأسرة وحنانها، وأخذتُ اعتاد السعادة من جديد... ونسيتُ أن الأحزان لن تفارقني... أنا... أنا لا اعرف كيف يمكن أن أجازيك يا خالة، أنتِ وعمي وأولادكِ... انتم أسرتي الوحيدة، وأنا لن أنساكم ابداً، ابداً...

- أوه يا حبيبتي... ضمتني خالتي إلى صدرها بينما صاح فؤاد بسرعة وهو يبعد والدته عني...

- انفخي الشموع يا فاتن، هيا، هيا...

ففعلتُ ما أراده مني وصفق الجميع لي وفجأةً اطلق (هاني) المفرقعات الخاصة بالأعياد، بينما وضع فؤاد بين يديّ صندوقاً مغلفاً بقطعة قماش مذهبة وشريط أحمر...

- كل عام وأنتِ بخير يا أختنا الصغيرة...

قال ذلك وهو ينظر اليّ بكل حنان الدنيا، وكأنّه والدي الذي فقدته منذ زمن بعيد... تمنيت لو أنه حملني في الهواء ودار بي حول الأركان مثلما كان والدي يفعل...

- شكراً! شكراً لكم من كل قلبي...

لمْ افهم الأمر جيداً في ذلك العمر الذي كنت فيه... لكنني فهمتُ فيما بعد... كانت خطةً محكمة من عمّي... إذ أنهّ أدرك عدم تمكن خالتي من القدوم معي للمثول أمام المحكمة، ولذلك... كان ذهابي بمثابة ورقةٍ رابحة أسقطت كلّ التهم والادعاءات، لأنّ ذهابي كان معناه، تخلّي (خالتي) عن الوصاية، وبقائي في منزل (عمي) إلى حينٍ غير معلوم... لم تخبرني (خالتي) بهذا الكلام كلّه وكنتُ أظنّ إنني سأذهب كي يتمّ النقاش بين خالتي وعمي حول قضيّة الوصاية، ولكنّ آمالي كلها تبدّدت وتبخرتْ في الهواء ما أن وطأت قدمي أرض (بغداد) في المطار الدولي وأبصرتُ عمي واقفاً بجوار ابنه (حسام) ينتظران وصولي، فآنقبض قلبي وأدركت أنّ أيام العذاب ستعود إليّ وأنّ السعادة لا تدوم بالنسبة لي الا أياماً معدودات...

الفصل الخامس

ولقد نجحتْ خطةُ العم وزوجه... كان والدا (فاتن) موظفين حكوميين ويستحقّان راتباً تقاعدياً، يكونُ من حق (فاتن) ويقومُ (القيّم) عليها أو الوصي، بالصرف عليها منه... عندما عادت (فاتن) إلى منزل عمها، لم تجدْ غرفةً قميئةً تحت السلم، بل غرفةً واسعةً جميلة ذات نوافذ مطلّة على الحديقة الواسعة لمنزل جدها في الطابق العلوي، ووجدتْ زوج عمها تستبشر بقدومها وتعاملها معاملةً طيبة... لم تصدّق (فاتن) أُذنيها ولا عينيها وهي تستمع وترى الترحيب الحار بقدومها، ولكنّها لم تعلم، أنّ نقود والديها، ذهبت إلى عمها وزوجه (من حيث لا تعلم) وقد أستغلّ العم سفرها مع خالتها لدفع قضية وصاية عليها ورفع قضية (اختطاف) ضدّ خالتها كسبهما (غيابياً) دون أن تعلم الخالة أو (فاتن) بذلك... كانت (فاتن) مندهشةً من معاملة زوج عمها التي لمْ تعد تأمرها بغسل صحون المنزل وتنظيفه رغماً عنها!! لقد أخذ العم ابنة أخيه في الأيام الأولى إلى المحكمة ليقوم بعمل إجراءات قانونية حول الوصاية والتصرف بأموال والديها باعتباره القيّم عليها، وبحضور (فاتن) إلى العراق، أسقطتْ تهمة الاختطاف عن خالتها، فشعرت (فاتن) أنها قد قامت بالخيار الصحيح، رغم حزنها الشديد بفقدانها حنان ودفء أُسرةِ خالتها الطيبة الحنون...

لم تكنْ زوجة العم تحبّ (فاتن) مطلقاً ورغم أنها حَاولت بشتى الطرق إخفاء حقدها على (فاتن) إلاّ أن تعابير وجهها كانت تفضحها بين الفينة والأخرى... ولقد علمتْ فاتن وأدركتْ خفايا نفس تلك المرأة، فلم تجالسها ولم يُعجبها أن تبادلها اطراف الحديث ابداً، بل كانت غرفتها ملاذها الآمن وهي تهربُ من نظرات زوج عمها المراقبةِ لها دوماً...

كان الجميع يعاملها ببرودةٍ شديدة... وكأنها زائر ثقيل الظل يسكن في الغرفة العلوية، ورغم محاولاتهم المضنية كي يظهروا أمامها بمظهر المحبة والقربى، إلا ان سرائرهم كانت تبدي ما لا يظهر على ملامح وجوههم...

لقد سَمَح (العمّ) لها بإكمال دراستها، وذلك ما جعلها سعيدةً في قرارة نفسها، رغم حزنها وانقباض قلبها حالما تطأ قدماها أرضيّة بيت جدّها حيث ترى وجوهاً تحاول إخفاء مكرها دونما جدوى... أماّ (حسام) فقد ترك أذى (فاتن) الاّ أنها- أي فاتن- بحدسها العفوي، شعرتْ به دوماً يراقبها وكأنه ينقل أعمالها بالتفصيل إلى والدته... بل لقد شعرتْ (فاتن) أنها في سجن لأنها لا تستطيع فعل شيء ولا الخروج من المنزل الاّ لحضور المدرسة... ولا التصرف بحريتها في ذلك البيت...

كانت (فاتن) تختنق في تلك (الغرفة)، رغم أنّ زوج عمها ما كانت تعاملها بقسوة كما كانت سابقاً لسبب غير معلوم بالنسبة لها... ولقد أخذت (فاتن) تتفوق في

دراستها التي كانت ملاذها الآمن وخلاصها من براثن زوج عمها وابنهما (حسام)... وكانت (فاتن) كل ليلة وقبلَ ان تنام، تخرجُ من بين طيات ثوبها اعلى صدرها صرةً من القماش قد خيطتها لنفسها...

تخرجها من تحت طيات ثيابها لتقبلها أولاً وثم تشمها للحظات وتعيد وضعها فوق صدرها مرةً أُخرى وهي تتمتم...

- "سامحني يا فؤاد... أنا لم اكن لأتركك... ولكنني لا أستطيع الخروج من المنزل بمفردي، أنا هنا تحت المراقبة المستمرة وليس لي مصروفٌ يومي ولا حريةٌ في قول ما أريد ولا الرغبةِ أو القدرة على شراء شيء... أنا هنا في منظمةٍ عسكرية، ولكنْ... من المستحيل أن اصرف ورقةً واحدة من هذه الأوراق العزيزة عليّ... فهي الوحيدة التي اشعر تجاهها بالحنين، وهي الوحيدة التي تجعلني أُصدّق إنني كنتُ يوماً ما، بقربكم... أتمتعّ بحبّ العائلة ودفئها"...

" ولكنْ... هل انتَ تتذكرني أصلاً! لعلكم نسيتموني جميعكم!!"

كان ذلك الهتاف يعتمل في قرارة نفسها والخوف من المستقبل دائما نصب عينيها..."خالتي! هل لا تزالين تتذكرينني!؟"

كانت (فاتن) فتاة قنوعة جداً، تكتفي بثوبين تشتريهما لها زوجة عمها من السوق في كل موسم جديد، بل إنها كانت جدّ شاكرةٍ أنها قد حصلت على ثوب في كنف تلك الأسرة التي لم تعطها العطف يوماً ولم تشعر به بين حناياها ... فعّمها دوماً ما كان متجهمّ الوجه كلّما رآها، ولم يكنْ يكلمها مطلقاً، وكذلك زوج عمها التي كانت تتحاشى الدخول معها في نقاش ما أو بالأحرى أي حديث، مهما كان قصيراً...

أما عن (حسام) الذي كان دوماً ما يتابعها كظلٍّ لها دون أنْ يقوم بمساعدتها مثلاً على حمل حقيبتها وهي متعبة جداً من حملها – بسبب ثقلها- كما قالت لها جارةُ بيت جدّها، وهي امرأة كبيرةٌ في السنّ، كانت مقعدةً على كرسي مدولب تدفعها به امرأة ابنها بينما حفيدتها بجوارها وكانت تلك الجارة غالباً ما تسأل عن أحوال (فاتن) وتتعمّد زيارة منزل جدّها، لأنها حسب قولها- حفيدة جيران العمر- وكانت زوجة عم (فاتن) تجامل جيران المنطقة لأنها مجبرة على لعب دور زوجة الابن البارة بأهل زوجها... وذلك ما جادتْ لِعَبِهِ أمامَهُم وهي تروي لهم قصة رعايتها لابنة (حَميها) التي توفي والداها وظلت يتيمة الأبوين...

سألت تلك العجوز فاتن ذات يوم وهي عائدة من المدرسة يتبعها ابن عمها (حسام) الذي دوماً ما يتابعها في كل خطواتها – وكأنه قد اوصيَ بذلك كي لا تهرب من كنف أسرته وتذهب إلى حضن خالتها من جديد- ولذلك لم تستطع فاتن

و لا مرةً واحدة أن ترسل رسالةً ما أو ان تتصل هاتفياً من أي مكتب، بخالتها لتطمئنها على أحوالها...

قالت العجوز بعصبية فجأة...

- حسام! لماذا لا تساعد ابنة عمك على حمل الحقيبة!؟

الا ترى انّ العباءة تعيقُ سيرها... اليستْ عندك غيرة الرجال!! يا ولد!؟ إحمل حقيبتها...

- جدتي! مالنا والناس! هتفت الحفيدة بينما صاحت الجدّة...

انهم جيران العمر وليس حسام الاّ بمثابة حفيدي... قولي لي يا حبيبتي (فاتن)... هل انت مرتاحة في منزل جدك مع عمك وزوجته ام لا...

نظرت (فاتن) بدهشة وطرقت برأسها بعد ان أشاحت بنظراتها بعيداً ثم رفعت عينيها لتلتقيا بعيني الجدة المتقدتين ذكاءاً...

- همم... حسنٌ... بالتوفيق يا بنيتي... هيا يا أم عبد الله اذهبي بي إلى الزيارة...

شعرت (فاتن) انّ الجدّة قد قرأت أفكارها بنظراتها الحادة تلك...

كانت (فاتن) لا تستطيع البوح بأية كلمة... حتى في المدرسة، خوفاً من عمها وزوجته... اذ كانت المدرسة ملاذها الوحيد بعد سجادة صلاتها التي تختلي فوقها وهي تصليّ لربّها وتناجيه وتدعوه...

إن (فاتن) من النوع الاجتماعي، ولقد أحببتها الكثير من الفتيات في المدرسة، ولكنّ أي فتاة منهنّ لم تكن موضعاً لأسرارها، التي كتمتها في قلبها لتبكيها فوق مُصلاّها...

- متى ينتهي هذا العذاب يا ربّ !!

كانت فاتن نشعر بالوحدة في ذلك المنزل رغم أحاطتها بعيونٍ تراقب حركاتها... إذ انّ الأرواح متباعدة ولم تكن تتحدث مع أيًّ من أفراد تلك الأسرة وكم كان ذلك صعباً... تأتي من المدرسة فتذهب إلى غرفتها وتنزع ثياب المدرسة، ثم تهبط لتناول طعامها الذي تتركه زوج عمها بارداً فوق الطاولة لها...

ثم تصعد إلى غرفتها وتظل وحيدةً وهكذا مرت السنوات... كانت سنوات طويلة، تعلمتْ فيها (فاتن) العزلة واعتادت الجلوس بمفردها في غرفتها لساعات طويلة ثقيلة... ورغم تلك العذابات، الاّ أنها استفادت شيئاً جميلاً، كان هديةً من الله لها

لما دعته ان يفرج عنها وحدتها في احدى الصلوات... إذ سقط كتابٌ من اعلى رفٍّ كان موضوعاً فوق منضدة كتابة مستطيلة حيث (فاتن) تقرأ دوماً دروسها عندها، وتكتب واجباتها... لم تفكر يوماً ما أن تقلّب تلك الكتب أو تعرف فحواها، لأنها اعتبرتها جزءاً من منزل جدها، يمس عمها وزوجه، ولا يجب عليها الاقتراب منه كأيّ شيء اخر في المنزل تخشى لمسه والاقتراب منه... فتحت الكتاب بفضول وخوف في آنٍ واحد...

كان الغلاف غلاف قصةٍ لمؤلف اجنبي، لفت انتباهها اسم والدها مكتوباً فوق الطرف العلوي للصفحة الأولى، فقفز قلبها طرباً وفرحاً في وقتٍ احد...صعدت فوق الكرسي ومدت ذراعيها لتتفقد كل الكتب الموضوعة فوق الرف، فوجدت رفاً إضافياً مليئاً بالكتب فشعرتْ بسعادة مفرطة... ((إذاً لا أحد يعبث بهذه الكتب، لأنهم لا يقرؤون!))... وخفق قلبها طرباً...

أخذت تتفقد الكتب واحداً تلو الآخر، فعلمت بوجود توقيع والدها فوق كل كتاب تفتح غلافه، إذاً... أنّ هذه الغرفة كانت لوالدها، وأنّ هذه الكتب قد لمستها يدا والدها وقرأها وقضى وقتاً معها... ((ياالهي! إنّ هذه الثروة، قد تركها والدي لي.. إنّ هذه الكتب، كانت رفيقة لوالدي و كذلك ستكون رفيقة لي، ولسوف تنسيني وحدتي!))...

وهكذا، أصبحت (فاتن) قارئةً للكتب بدرجة (امتياز)، وأصبحت تلك الكتب رفيقة لها في وحدتها وعزلتها التي لم يكنْ يقطعها سوى ملاحظات زوج عمها لها بنشر ثيابها في مكانٍ آخر بعيد عن ثيابهم، أو توجيه أوامر تسلطية لها أن تصعد إلى غرفتها إن جاء زائرٌ ما، أو العكس، أن ترسل بطلبها لمّا تأتي احدى الجارات، كي تثبت لهنّ أنها تعامل ابنه حميها معاملة طيبة...

لقد بنت (فاتن) تجارب حياتها عبر الكتب والقصص، أما الحياةُ الاجتماعية الحقيقية فلم يكنْ لها دورٌ فيها، إذ أنّ زوجة عمها لم تأخذها معها في أية مناسبة عائلية تمسّ أسرة (زوج عمها) أو أية مناسبة اجتماعية عند الجيران...

كتبها ودفتر مذكراتها وحديقة جدها كانت صديقاتها الوحيدات أو أصدقاءها... وهكذا توالت السنوات على تلك الفتاة الصغيرة... إذ لم تعد صغيرة... وبدأت علامات النضج تعلو محيّاها... وبدأ جمالها يظهر للوجود، حتى خشتْ زوج عمها على ابنها (حسام) من تلك الملامح الجميلة والجسد الأنثوي المتناسق، لأنها أخذتْ تلاحظ نظرات ابنها المستمرة لابنة عمه، وتغيّر لهجته في التعامل معها... أما جيران منزل جدها، فقد أصبحت تلك الفتاة الصغيرة الجميلة وقد كبُرتْ حديث الجميع، وأخذتْ النسوة تتعمد زيارة منزل الجد بين الفينة

والأخرى لطلب يدها من زوجة عمها التي سرعان ما تتعذر بحجة دراستها وذلك ما كان يُسعد قلب (فاتن) فَجَلّ اهتمامها هو دراستها وبالأخص وهي تتذكر دوماً وصية والدتها، أنّ المدرسة سلاح البنت في زمانها... وأيضاً، نظراتِ والدها الذي لم يفارق مخيلتها كلما فتحت كتاباً أو أعادت قراءته...

الفصل السادس

((بابا فؤاد... مَرت سبع سنوات يا "فؤادي" العزيز... وها أنذي أحتفل معك بمفردي، وبين جدران هذه الغرفة وكتب والدي الحبيب، و أشجار جدي المرحوم، بعيد ميلادي الثامن عشر، الذي يصادف يومه مع عيد الشجرة، في الواحد والعشرين من شهر آذار، وهذا اليوم يصادف عيد الأم، فليرحمك الله يا أمي، فلقد تمنيتُ أن تكوني هنا معي... إنني الآن في السادس العلمي وأنا ادرس بجد كي أجلب معدلاً يؤهلني للدخول إلى كلية الطب... ورغم اني لا احب الطبيّة، ولكنّ مجتمعي هنا، يفضلّ مهنة الطبيب على كل المهن، والجميع يقول لي أنّ تعبي يجب ان لا يذهب سدىً))... أغلقت (فاتن) دفتر مذكراتها وهي تنظر عبر النافذة إلى الأشجار الممتدة فوق ارض حديقة جدها... ((يا إلهي... ماذا يخبئ لي الزمن! أرجوك... أريد سعادة وفرحاً في حياتي القادمة، فلقد مللتُ الألم))...

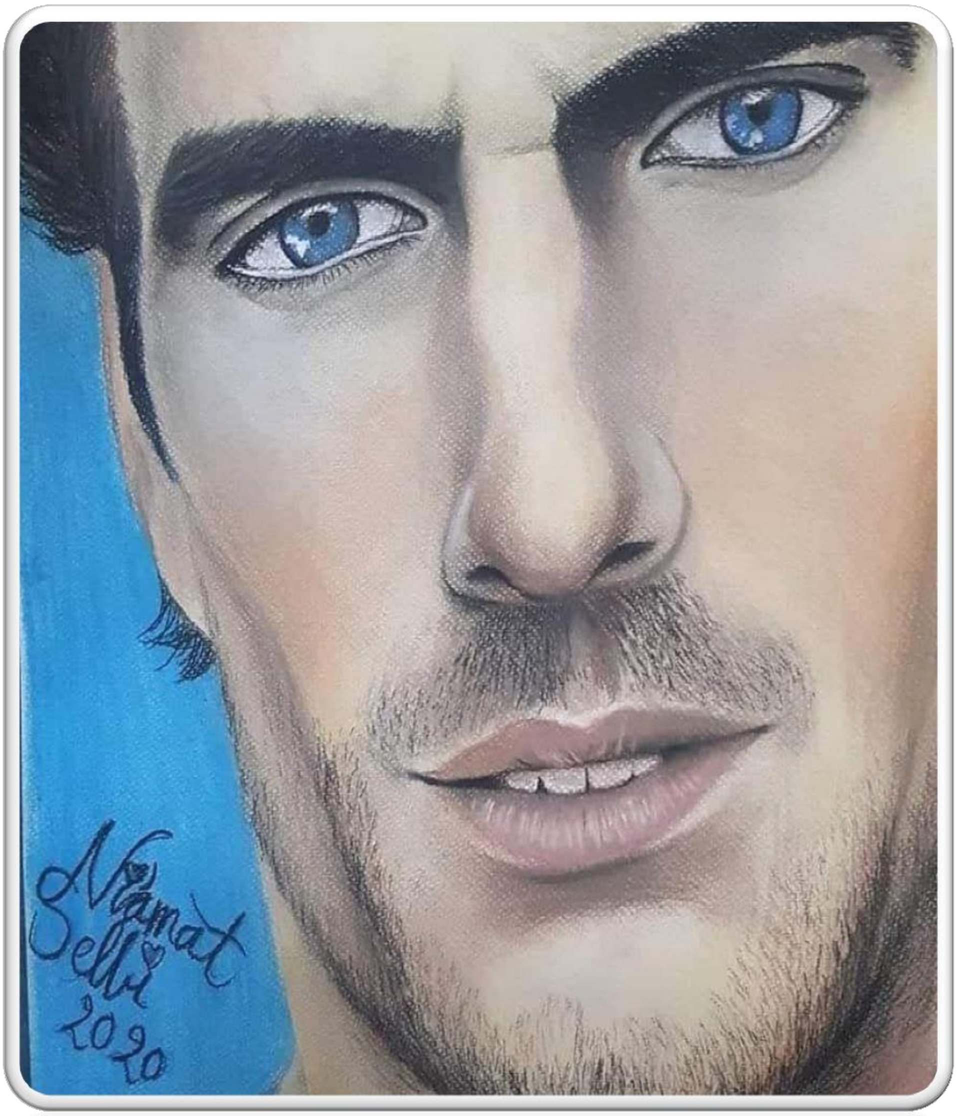
2020

الفصل السابع

كانت الامتحانات الوزارية على الأبواب، وفاتن تقرأ بجهدٍ مضنٍ كي لا يذهب تعبها سدىً وكي تجلب معدلاً عالياً يؤهلها لدخول كلية الطب... لم تكنْ (فاتن) تعلم ماذا يخبئ لها الدهر وكيفَ أنّ فرحة حصولها على معدل عالٍ قد كُبتت بخبر صاعق، إذ أنّ عمهّا لمّا جلب لها نتيجتها الوزارية وتحدث مبتسماً بوجهها (لأول مرّة)، جعلها تعتقد، أو تصدّق أن عمها- يكنّ لها مشاعر قرابةٍ مهما كانَ الأمر- أخذ العمّ يمهدّ الطريق لكلام وقع عليها وقْعَ الصاعقة:- أنتِ تعلمين أننا عشيرةٌ كبيرة، أعني أنا وأبوكِ ننتمي لعشيرة كبيرةٍ معروفة... حسنٌ، سأكمل كلامي...

كان يتحدث وهو ينظر إلى ابنة أخية بين الحين والأخر بارتباك يشوبُهُ خوف من المجهول كما فضحته عيناه... وتابع...

- حسنٌ... في عشيرتنا... لا تُكمل الفتاةُ دراستها وليس لها الحقّ في دخول الكلية فكما تعلمين... (ونظر إلى ابنة أخيه المطرقة برأسها)
- وإنّ زماننا فاسد، يكثر فيه الشبانُ المنحرفون، ولأنك أمانةٌ في عنقي... ولأكمل رعايتي لك، فلسوف أقوم بشيءٍ عظيم... ولسوف أقدّم ابني لك على طبقٍ من ذهب، نعم، أنا أخطبك لأبني، أو بالأحرى... اجعل ابني(ينهى) عليكِ... انتِ تعرفين ماهي (النهوة)! هه! ليس لك حقّ الزواج بسواه مطلقاُ، فهو ابن عمك الأوحد...

وزفرت (فاتن) بذعر وسالت الدموع على وجنتيها دون أن تتجرأ على الكلام أمام عمها... فكيف لها أن تتكلم وما الذي عليها أنْ تقوله أمام سّجانها... ((ياالهي!؟)) هتفت في قلبها بذعر... وما إن قال لها العم...

- حسنٌ يمكنك الذهاب، غداً سنبدأ الاستعداد لحفلة خطوبتك من ولدي... ونبدأ بالتحضير لها... حتى ركضت (فاتن) نحو السلم وهرولت نحو غرفتها ودفنت رأسها فوق الوسادة باكية متضرعة... ((رحماك ياربي...))...

هلاهل وزغاريد صدحت من حناجر نسوة المنطقة اللواتي أتينَ للاحتفال لخطبة (فاتن) لأبن عمها... أمسك (حسام) بيد (فاتن) وألبسها خاتم الخطوبة وتعالت الزغاريد مرةً أخرى وشُغّل مكبر الصوت مخرجاً أغاني أخَذَتْ النسوةُ يصفقنَ ويرقصن على انغامها لمّا خرج (الخاطب) من الصالة بعد أن قص بالسكين

كيكة الخطوبة وقدم لقمةً منها بيده مباشرةً إلى فم (فاتن) التي تناولتها على مضض... لقد شعرت فاتن أنها تموت الفَ مرة... لم تصدّق ما يحدثُ وكانت أيامُ الاستعداد للخطوبة بمثابةِ استعداد للموت بالنسبة لها، قيام زوج عمها باصطحابها للسوق وشراء مستلزمات العرس لها، كان تحضيراً لجنازتها...

- أو يُعجبك هذا (فاتن)...

قالها (حسام) لها للمرة الأولى والأخيرة قبل أن تنظر أمه له شزراً وتقول للصائغ...

- أعطنا هذا الخاتم وهذه القلادة...

كانت تشتري كل شيء دون أن تأخذ رأي فاتن به، بل كانت فاتن ككبش فداءٍ يُساقُ إلى مذبحه!

- بكم هذا الثوب! اعطني هذا... هل هو مقاسها، حسنٌ! بكم سعر هذا الحذاء...

هذه هي الكلمات التي تنطق بها زوج العم، دون أن تلتفت إلى (فاتن)- الصامتة ابداً- الحزينة دوماً... شاحبةً كالأموات وبياض وجهها الناصع قد أكتسى بصفرةِ المرض...

أسبوعٌ كامل من التجهيزات، لأجل تلك الحفلة ولأجل حفلة الزفاف التي ستليها بيومٍ واحد، فلقد كانت تلك حفلة خطوبةٍ وعقد قران في آنٍ معاً... لقد فضلّت (فاتن) الموت الف مرةٍ قبل أن تقول كلمة (نعم) بعد الشيخ العاقد للقران... قالتها مرغمةً مُجبره... قالتها لانّ لا حول لها ولا قوة... لم تكنْ موافقة ابداً وقالت الف لا في سرها... وزغردت النساء وصفقنَ مع بناتهنّ وبنات أقربائهنّ اللاتي جئنَ إلى الحفلة في منزل جد (فاتن)... فاتن التي شعرتْ أنّها لن تحيا بعد ذلك اليوم ابداً ولم تستطع النوم مطلقاً... حاول (حسام) ان يتحدث معها على اعتبار أنه اصبح زوجها (شرعاً) وناداها من تحت السلم فالتفتت كشبح نحوه وقالت بصوت خافت...

- أرجوك! أنا متعبة... سأتكلم معك عند الصباح...

لم يعارضها حسام بشيء ورغم أنها لم تكلّمه ابداً طيلة فترة الاستعداد للحفلة وذهابهما معاً إلى السوق برفقةِ والدته...

فهو لم يشعر أنها تمقته، ولا تطيق النظر إلى وجهه، فكيف تكون زوجاً له... دفنت رأسها فوق سريرها و امتلأ وجهها بالدموع وشعرت أنّ رأسها سينفجر، إذ أنّها فقدتِ القدرة على التفكير المنطقي وكانت مستعدةً للموت برمي نفسها من الشباك مثلاً، أم قطع وريدها بالسكيّن... أفكارٌ شيطانيةٌ شتىّ قد تضاربت في رأسها و صاح صوتٌ في سريرتها كان يلحّ عليها أنّ هناك فرجاً وباباً سيُفتحُ وأنّها سوف تتخلص من كلّ هذا العذاب، لأنّ (الله) لن يتركها ابداً، لن يتركها...

((كيف يا ربي ستتركني!! وأنا أعبدك وأصلي لك؟! أنا أعمل بطاعتك، فكيف لي، يا ربيّ، أن أتزوج بهذا الرجل! سأموت))

((رحماك يا ربي!... إنْ لم تنقذني من هذا العذاب سأموت...))

ورفعتْ رأسها إلى أعلى وتمتمت بصوت خفيض بينما أنامل يدها اليسرى قد لامست اعلى صدرها، فامتدت نحو تلك الصرّة الصغيرة التي علقتها داخل ثيابها لتقبض عليها بقوة...

((يا ربي! هل من المعقول أن تتخلّى عني... كم دعوتك! يا ربي! مستحيلٌ ان تتركني! أنا لستُ موافقةً على هذا الزواج))

((غداً سوف يذهبون بي إلى المذبح... غداً سيجعلونني مجرد خادمةٍ لهم من جديد... علاوةً على حصتي في منزل جدي ومنزل ابي الذي هو ملكٌ لي شرعاً وقانوناً... فكم هم محظوظون وكم أنا تعيسة!؟))... ((... وصاح صوتٌ في سريرها...)) ((إن لم تساعدي نفسك، فلن يساعدك احدٌ ابداً... إسعى يا عبدي وأنا أسعى معك ...))...

وتناثرت الدموع من مقلتيها...

((لكنني أخاف الموت! رحماك ياربي! سيذبحونني!))...

وانتفضت (فاتن) ناهضةً من سريرها...

((الموت هو الرضى بزواج كهذا!؟ لن أكون لحسام! ابداًً!))

أخذت (فاتن) ورقة النتائج الوزارية ومستمسكاتها ودفتر مذكراتها وثوباً واحداً وضعتهم بسرعةٍ في حقيبة سفرها الصغيرة التي جاءت بها قبل سنوات، نظرت

هنا هناك والتفتت يميناً ويساراً، فتحت دولاب ملابسها وأخذت ما تراه ضرورياً لها، وبحركات غريزيةٍ صماء تسللت على رؤوس أصابعها دون أن تدع لعقلها مجالاً كي يوقف عملية هروبها... ففي أية لحظة ممكن ان تخرج زوج عمها، أو يشعر بها (حسام) وهي تفتح باب المنزل الذي خرجت منه ترتعد خوفاً... وكان من الممكن أنْ يصرخ عمها:- إلى أين في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ ولكنّ لطف الله ورعايته لها، جعلتهم جميعاً يغطونّ في نومٍ عميق، ووضع على آذانهم وقراً فلا يسمعون...

ركضت (فاتن) على طول الشارع الممتد أمام منزلها غير مصدقةٍ ما تفعله لأول مرةٍ في حياتها... فهي لم تخرج يوماً دون علم عمها أو زوجه في النهار، فكيف بها في الليل...

أخذتْ تغذُّ الخطى... لا أثر لسيارة أجرة... ولا غرو في ذلك، لأنّ الساعة كانت قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل... فجأةً ظهر ضوء اصفر انبثق من نهاية الشارع، فمدّت يدها وهي تقول:- تكسي، تكسي...

- هل انتِ بخيرٍ يا ابنتي؟ ما الخطب!
- عماه! الحمد لله انك رجل كبير... أرجوك أن تنقذني، سأعطيك كل ما تريد من نقود...

قالت (فاتن) وهي ترتجف لسائق الأجرة ذي الشعر الأشيب، الذي نظر اليها بذعر وأخذ يطمئنها كي لا تخاف منه...

- اركبي يا ابنتي... لا تخافي...
- شكراً لك يا عم! شكراً لك...

ركبت (فاتن) بسرعة في سيارة الأجرة تلك والأفكار تتقاذفها يميناً ويساراً...((حسنٌ! اهدئي يا فاتن! انه رجلٌ طيب كما يبدو... وانتِ إن لم تفعلي ما فعلتِهِ فستلومين نفسك طوال عمركِ وانتِ تقولين: ماذا لو؟...))

- ما بكِ يا ابنتي! احكي لي فأنتِ بأمان إنشاء الله...
- أرجوك... خذني لأقرب شركة طيران... أريد... الذهاب إلى أميركا... أريد الذهاب إلى خالتي التي أخذوني منها...

وقفزت الدموع من عينيها...

- لا تبكِ أرجوكِ يا ابنتي!؟ حسنٌ حسنٌ، سنذهبُ مباشرةً إلى بغداد فلديّ معارف في شركات الطيران هناك، أما هنا في كربلاء، فلا اعتقد أنكِ ستعثرين على شركةٍ تفتح أبوابها حتى الآن في هذه الساعة المتأخرة... ولكنْ، ألنْ تخبريني ممّ أنتِ هاربة يا ابنتي!
- أرجوك! إذهب بي فقط وعندما نصل، سأخبرك بكل شيء! ((أرجوك، أنا خائفةٌ يا ربيّ))
- لا تخافي يا ابنتي! فوَ الله، أنا سأفعل ما بوسعي...
- شكراً لك يا عم... شكراً لله ثمّ لك...

قالت (فاتن) ذلك وساد صمت رهيب لم يسمع فيه سوى صوت السيارات على الطريق السريع المؤديّ إلى بغداد...

كانت (فاتن) ترتعد خوفاً، بينما تلقي أضواء الشارع الصفراء إنارتها على وجهها وتتلوها ظلال داكنة كل حين على طول الطريق الذي كان السائق يقود سيارته فوقه بسرعة وهو ينظر إلى تلك الفتاة المسكينة المرتعدة خوفاً وقد جلست كهّرةٍ صغيرة متكورّةً على نفسها فوق الكرسي الخلفي لسيارته...

لم يشأ أن يزعجها بأسئلته وترك لها حرية البوح بسرها من عدمه، و لكونه رجلاً نزيها شريفاً، فقد آلى على نفسه الا مساعدة تلك الفتاة التي كانت تقارب في عمرها عمر إحدى بناته... كانت (فاتن) تقرأ الآيات القرآنية وتتمتم بها طوال الطريق خوفاً وذعراً... ولقد لاحظ السائق هذا، فتركها في صمتها الثقيل خوفاً عليها من الذعر منه، أو إساءة الظن فيه... ((رحماك يا ربي بي... رحماك يا ربي...))...

الفصل الثامن

على مسافري الرحلة (....) التوجه إلى البوابة العاشرة... أعْلَنَ صوتٌ أنثوي عبر سماعة المكبر كي يتم التوجه إلى الطائرة المغادرة بعد دقائق معدودة... فحثتْ (فاتن) الخطى وهي تستعيد شريط الأحداث سريعاً قبل أن يختم موظف أخير جوازها وهو ينظر إلى صورتها في الجواز وصورتها في الواقع، وشكرتِ الله في سرها إذ قام عمها بتجديد جوازها في الأسبوع الأخير قبل حفلة (عقد قرانها)، كي يتمكن أبنه من السفر برفقتها في (شهر العسل) حسب قول العمّ وزوجته... وتذكرتْ كيف أخذ السائق الغريب عنها بحجز رحلةٍ لها دون ان يطلب منها مقابلاً، وكيف أتصل بأصدقائه ليسرّع هذا الأمر وذلك بعد أن قصّت عليه قصتها عندما وصلا بتلك السيارة حدود بغداد فتنفستْ (فاتن) الصعداء، وزفرت وهي تنظر إلى الرجل الأشيب عبر زجاج المرآة الأمامية حيث تنعكس صورته...

- لقد هربتُ من عمي وزوجته، اللذين عقدا قراني لابنهما ويريدان تزويجي غداً رغماً عني... قد تظنّ إنني كاذبة، لكنني أقول الحقيقة...

نظر السائق إلى عينيها الدامعتين قطبّ جبينه وهو يرفع حاجب عينه اليسرى الأشيب وتأوّه ثم قال بحزم...

- حسنٌ! أنا قد عرفتك يا ابنتي، فأنا سائق المنطقة، وأنا جارٌ لمنزل جدك وكنتُ عائداً من أجرةٍ متأخرة، فإذا بي اجد فتاةً شابة تقف لوحدها في الشارع في هذا الليل... إختضّ جسدي غضباً وخفت على نفسي و على تلك الفتاة، إذ ظننتها ضالةً عن رشدها... لكنْ، ما إن اقتربتُ منها عندما أشرّت لي بيدها، عرفتهُا من ملامحها المألوفة، اذ طالما كنتُ أراها تسير لوحدها مع شابٍ يتبعها ولا يفارقها كل يوم إلى المدرسة ذهاباً وإياباً وأنا الذي أقوم بإيصال فتيات الحي إلى المدرسة... أقول يا ابنتي أني دوماً ما تساءلت؟... لماذا تسير هذه الفتاة طيلة هذه المسافة، ولماذا يوصلها هذا الشاب دوماً... سألتُ الطالبات وعرفت... فلذلك... أنا أصدقك...
- شكراً لك يا عماه! إنّ الله لن ينسى صنيعتك معي...
- سأساعدك قدر ما استطيع!... لا تخافي... لكنْ لا تذكري أسمي مطلقاً... مهما كانتِ الظروف... عديني بذلك... وأقسمي لي...

وتذكرت وهي تصعد سلالم قليلة نحو الأنبوب الموصّل إلى فتحة الطائرة حيث يدخل الركاب، كيف حركت رأسها إيجاباً وأقسمت أمام السائق أنْ لا تذكر أسمه أبداً...

فلاحت منه ابتسامه رضا وقال لها بصوتٍ هامس...

- أنا أعرف أنّ عمك قد أخذ منزل جدك وأعرف كل قصتك قبل أن تولدي يا أبنتي... أو تعرفين من أكون... أنا لستُ مجرد سائق يا ابنتي، بل كنتُ صديقاً لوالدك رحمة الله عليه...

قال ذلك وأدمعت عيناه...

- اذهبي برعاية الله... إنّ والدك صديق المنطقة والطفولة وزميل المدرسة... ولقد كان يقصّ عليّ ما حصل له مع عمك، وكيف أخذته زوج عمك لخطبة ابنة قريبها...أنها قصةٌ طويلة سأحكيها لك ونحن في طريقنا إلى مطار بغداد الدولي بعد أن حجزنا لك مقعداً على الطائرة المغادرة بعد قرابة ساعتين...

جلست (فاتن) فوق مقعد أشارتِ المضيفة لها أن تجلس فوقه بعد أن قرأت رقماً في ورقةٍ وضُعت في جوارها...

ابتسمت لها مجاملةً وجلست لتربط حزام الأمان...

((لا اصدق ما حصل لي...!!)) هتفت فاتن في سرها...

- يا الهي!؟ ماذا سيحصل لي الآن... أخشى أن يلحقوا بي...

أخذ قلبها يخفق بشده، بينما تحدث صوتٌ من مكبر الأصوات في الطائرة ليخبر المسافرين أن يستعدوا للرحلة ويربطوا أحزمة الأمان... وبينما هي تستمع إلى ذلك الصوت، إذا بالطائرة تقلع عن أرض الوطن... انقبض قلبها وانبسط بعد ذلك تتالياً... فشعورها بترك وطنها بمفردها جعلها تشعر بالغربة منذ اللحظة الأولى لمغادرة الطائرة ارض المطار... بينما إحساسها بمغادرة منزل عمها ونجاحها في ترك (حسام) جعلها تشعر بسعادةٍ عارمة... خصوصاً وأنها تشعر بحريتها للمرة الأولى بعد سنوات طوال...

الفصل التاسع

خفق قلبي بشدّة وأنا أتذكر تلك الشوارع التي أخذتني خالتي فوقها وخلالها حتى وصلنا منزلها... أعطيت السائق آخر قطعة نقدية من نقود ((فؤاد)) التي أعطانيها والتي احتفظت بها دوماً دون أن أنسى وضعها في ثيابي كلما بدلتُ ثوباً في صرةٍ من القماش اعلى صدري وكأنها تميمة للحظ الجيد... كانت تلك النقود (منقذتي) إن صحّ التعبير من براثن عمي وزوجه وابنهما... أعطيت سائق الأجرة نقوده، ونزلتُ من السيارة وأنا اشعر بالضياع فلقد تغيرت الشوارع والطرق كثيراً منذ المرّة الأخيرة...

(ولكنْ كيف لها تذكّر منزل خالتها؟! لقد أخرجت ظرفاً طويلاً من ضمن مستمسكاتها التي أخذتها معها- ولقد احتفظت به طيلة تلك المدّة- كُتب عليه عنوان منزل خالتها وذلك الظرف هو إعلام الخالة بالمثول أمام المحكمة لأجل قضية الوصاية...) سألتُ السائق قبل أن يغادر:-

- هل أنت على يقين من أنّ هذا هو العنوان المكتوب هنا على هذا الظرف القديم؟!
- نعم سيدتي! إنه هو... نفس الشارع... اِسألي عن المنزل!

نظرتُ إلى الأضواء الساطعة المنبثقةِ من أعمدة النيون والإعلانات المنتشرة هنا وهناك وعلى أسطح البنايات...

((لكنْ كيف لي أن أعثر على منزل خالتي!؟))... غذّيت الخطأ وأنا أجرّ حقيبتي الصغيرة فوق الشارع بينما عبرت إلى الجهة الأخرى، وهناك تبيّن لي تحت العمارات الشاهقة، آثارٌ لمنازل متراصفة ذكرتني بذكرياتي القديمة الحبيبة إلى قلبي، ولقد عرفتُ المنزل مباشرةً، ودلني قلبي عليه دونما سؤال..." إنه هو!!" هتفتُ في سري وقفزتُ إن صح التعبير، وليس مجرد (هرولْت) نحو المنزل، إذ لم أشعر بساقيّ إلاّ وهما فوق أرضيّة منزل الخالة حيث فتح الباب لي شاب وسيم اشقر الشعر عرفته مباشرةٍ من خلال شقرة شعره وعينيه الخضراوين (هاني)!!

- مرحباً! قلتُ بصوت مخنوق، فتفرّس الشاب النظر اليّ بذهول وهو يركزّ على ربطة شعري (حجابي)، وكأنهّ يستذكر شخصاً ما بها، وفجأة تغيرت ملامح وجهه لمّا رأى حقيبة سفري الصغيرة، نفسها، التي سافرت بها وخرجتُ من منزل خالتي الذي كنت اقف على عتبته في تلك اللحظة بالذات وسالتِ الدموع من عينيّ دونما إرادة بينما أدمعت عيناه...
- فاتن! أهذه أنتِ؟ حقاً!

أراد مصافحتي، أو ضميّ كطفلةٍ صغيرة لكنّ الحياء منعه فصاح مرعوباً... ((أماه! أمي!))... ثم نظر اليّ:

- أدخلي... أدخلي يا فاتن!

ودلفتُ باستحياء وأنا أجرّ حقيبتي (ومأساتي)...

نهض الجميع في غرفة الجلوس مذهولين..." إنهم كما تركتهم"

قلتُ في سرّي ووقفتُ خلف (هاني) الذي صاح بوالدته:

- أماه! ألا ترينَ من أتى إلينا!
- - رباه!

سقط كوب الشاي على الطاولةِ التي أمامها بينما أطلقت خالتي صرخة رعب وفرحةٍ في آن... وهي لا تدري أنها قد سكبت شايها...

- أهذه أنتِ!! أنتِ (فاتن)!! أم أنك شبحٌ ما جاء لزيارتنا في هذه الساعة... ليزيد عذاباتي وتأنيبي لضميري؟!!

واقتربت مني بخطوات متلكّئة، ووقفت أمامي تتفرس وجهي ومدتّ أناملها من فوق ربطتي حتى أسفل ذقني تتلمس وجهي...

- إنها كأختي تماماً! أنها نسخةٌ منها... رحماك ياربي... سامحيني يا فاتن! سامحيني...

ورفعتْ يديّ نحو شفتيها تقبلهما لكنني أبعدتُ يديّ و بكيتُ بشدّة معها... كان زوجها لا يزال واقفاً وكذلك (أمير)، ولم أعلم أين كان (فؤاد) إذ ذاك...

- ماذا حل بك... ماذا حدث طيلة تلك السنوات ولكن... لكن كيف جئتِ... كم كنتُ جبانةً لمّا تركتكِ تذهبين...

كانت تقول هذا وهي تضمني وتبكي كل حين وكذلك كنتُ أبكي بألم... ولم أتحمل أكثر من ذلك لأبوح لها بكل الحقيقة...

- أنا قد هربت من منزل عمي، وكان من الممكن أن يقتلني ما أن يعثر عليّ، لكنّ الله سهّل لي هروبي بمعجزة... خالتي... كان زواجي مقدراً له أن يكون (اليوم)...اليوم... من ابن عمي الذي عقدوا قراني عليه رغماً عني، رغماً عني...رغماً عني...

وبكيتُ حتى سقطت على الأرض فصرخت خالتي ذعراً و ضمتني اليها وهي تمسح دموعي بيديها بينما كانت تمرّغ وجهها بدموعي وهي تتمتم... ((لن أتركك تذهبين من بين يدّي بعد الآن... كل ذلك بسببي... كل ذلك بسببي! تعساً

للمنزل ولكل الأملاك! أرسلتُ بك إلى الموت لأجل حصتك في منزل جدك ولأجل أن لا يضيع منزل أختي بين أيديهم القذرة... فأرسلتُ بك ككبش فداءٍ إلى الموتِ... أنا المذنبة! إنه ذنبي أنا! سامحيني))

لم أستطع الكلام، فدموعي وانفعالاتي كانت اقوى من أي أمر أخر أستطيع فعله، وحاولتُ النهوض مبعدةً خالتي عني فَلاَح لي شخص، طالما دعوتُ الله أن يحفظه، وعشتُ على أمل رؤياه ولو للحظةٍ لأردّ له جميله...

كان يهبط من السلم بطوله الفارع نفسه وبنظراته الزرقاء ذاتها، التي ما أن التقت بعينيّ حتى سقطتُ مغشياً عليّ من أثر الانفعالات التي مررتُ بها...

الفصل العاشر

فتحتُ عينيّ... شعرتُ براحةٍ فجائية وأنا انظر إلى السقف، وثم إلى النافذة... "إنها نفس الغرفة!" هتفتُ في سري غير مصدقةٍ، ففُتحت الباب ودلفت خالتي الغرفة وخلفها شخصٌ ما كانت تكلمّه

- لا أدري متى تستيقظ! رحماك يا رباه! دكتور، أرجوك، إنها هكذا منذ ليلة أمس ولقد سقطت مغشياً عليها وحملها ابني البكر إلى هنا... أرجوك قل لي ماذا أفعل؟!"
- هل أعطيتها الدواء الذي وصفته لكِ بالأمس؟
- كلاّ! وكيف لي أن أعطيه لها؟
- سيدتي! ما ان تستفيق، عليكِ بإعطائها دواءها، لقد فحصتها بالأمس كما شاهدتِ وليس فيها علةٌ عضوية... إنها حالةٌ عصبية ويجب ان ترتاح وعليكم أن تتجنبوا إثارة أعصابها، وسأكون دوماً بالجوار وبخدمتكم... السيد (فؤاد) صديقي العزيز وأنا لا أتردد بإسداء أية خدمةٍ له...
- شكراً لك يا دكتور! أنا جدُّ شاكرة! امتناني لك...

خرج الطبيب وخرجتْ خالتي خلفه لتشيعّه، ففتحتُ عينيّ مجدداً وأنا غير مصدقة... ((أنا!! أصابُ بانهيار عصبي، وأفقد وعيي منذ الأمس!!))... وحاولتُ رفع رأسي من فوق الوسادة، إلا إنني شعرتُ بضعفٍ شديد... وحاولتُ مرةً أخرى عندما فُتحت الباب لتظهر خالتي من جديد فتجدني مستيقظة وتطلق صرخة مكبوتة...

- حبيبتي! لقد أفقتِ!!! يا إلهي!

أخذت تتلفتُ بحيرةٍ من أمرها وقالت بسرعة:

- لحظات! سأذهب لأخبرهم! انهم جميعاً قلقون عليكِ يا حبيبتي! فاتن! فاتن! حبيبتي...

وبكت وهي تخرج من الغرفة، وكانت اقلّ من دقيقة عندما خرج من خلف الباب ثلاث شبانٍ رائعين، كانوا اعزّ أخوةٍ لي في العالم كله وتصدرتهم خالتي مبعدةً إياهم عن دربها...

- فاتن! انتِ بخير! صرخ هاني وصاح أمير...
- شكراً لله! لقد فتحتِ عينيكِ...

أما (فؤاد) فلم يتكلم أبداً، بل اكتفى بالنظر اليّ بحزن شديد وحاول أن لا تلتقي نظراته بنظراتي قدر الإمكان وكأنه يهرب من شيءٍ ما... جلست خالتي قرب سريري وأحاطني أولاد خالتي بنظراتهم الحنونة وأسئلتهم عن صحتي...

- هل أنتِ بخيرٍ الآن يا فاتن...

هتف (هاني) مشجعاً بالعراقية (ولطالما كانت لكنته العراقية مضحكة- لأنها ركيكة جداً)... نظرتُ اليه بامتنان و حاولتُ رفع رأسي وإسناد جسدي إلى مرفقيّ ولكنني سقطتُ بسرعةٍ على السرير...

- لا لا! لا تتعبي نفسك! لا تزالين ضعيفةً يا صغيرتي...

قالت خالتي بخوف وهي تمسكني من ذراعي...

- لا تحاولي النهوض أبداً! سوف أطعمك وأرعاك حتى تستعيدي صحتك...
- - شكراً... شكراً لكم...

قلتُ بوهنٍ شديد... وذعرتُ لأنني لم أكن أقوى حتى على الكلام بصوتٍ عال!!
((ما الذي حدث لي؟))

- حبيبتي فاتن...

قالت خالتي وهي تمسك يدي بأناملها فشددتُ عليها قدر استطاعتي بامتنان...

- أنتم أسرتي الحقيقية!

بكت خالتي وأشاحت بوجهها عني ثم ضمت رأسها بين ذراعي (فؤاد) الذي أبعدها عني وهو ينظر بارتباكٍ إليّ ثم يبتعد بنظراته بعيداً عني... جلس أمير مكان والدته وقال لي بصوتٍ مشجع...

- المفروض أنك الآن قد تخرجتِ من الإعدادية! هل أكملتِ دراستك؟ هل جلبتِ معدلاً... تقول والدتي أن نظام التعليم هناك يختلف عنا وأنه عليكِ جلب معدلٍ عال يؤهلكِ للدخول إلى كليةٍ راقية وذلك بنظام تسمونه (الوزاري)...

نظرتُ إلى أمير بامتنان... كان مرحاً كما عهدته ولكنه أصبح رجلاً حقيقياً، فقد كبر كثيراً وتغيرت ملامحه كثيراً جداً...

- أخي أمير! لقد جلبتُ معدلاً عالياً... أوراقي في حقيبة سفري، جلبتها معي...
- هل ستكملين دراستك اذاً في كليتي، لأُوصلك مثل أيام زمان! هه!

قال (هاني) وهو يغمز بعينيه ضاحكاً...

فضحكتُ بسعادة... ضحك (أمير) و (هاني) معي...

- أنها هي! فاتن! لم تتغيري ابداً يا أختاه!

هتف (هاني) فرحاً بينما وقفت خالتي مندهشةً أمامهما وهي تحمل صينية طعام أعدتّه لي...

- ياالهي! شكراً لك... إنها تضحك! حبيبتي (فاتن) ... هل تأكلين هل أنتِ جائعة...

وضعت يديّ على معدتي... كانت تتضور جوعاً... أومأتُ برأسي موافقةً، فصاحت خالتي بولديها بينما فؤاد كان واقفاً قرب الباب وكأنه حارس ينتظر إشارةً ما ليهبّ إلى المساعدة...

- هيا! هيا! قم ياأمير... ما هذا... أريد ان أطعم الطفلة! هيا انهض من هنا بسرعة...
- طفلة! هيا اطعمي الطفلة!

قال أمير بتهكم فضربته ضربةً خفيفةً على كتفه بينما التفت (هاني) إليّ مازحاً...

- سوف تطعمك أمي حتى تجعل منكِ هكذا...

وأشار بيديه إلى خديه دلالة اتساعهما كما نفخهما بفمه... فضحكنا جميعاً عليه وخرج الأخوةُ من الغرفة بينما جلست خالتي بقربي لترعاني...

رويداً، رويداً، استعدتُ عافيتي واستطعت القيام من السرير... كما بدأ الأمل يدبّ في قلبي من جديد مع كلّ إشراقةِ شمس يوم جديد، أشعر به أنني بعيدةٌ عن منزل عمي وزوجته وابنهما... ولكنّ الكوابيس عادت إليّ ما ان تحسنت صحتي الجسدية، وكأنّ عقلي يرفض لي العيش بسلام بعيداً عن الأحزان...كنتُ استيقظ مرتعبةً في نفس الساعةِ في الليل وكان الحلم نفسه يطاردني فيه عمي وابنه ويهدداني بالقتل وأرى نفسي مذبوحةً بالسكين وأنا أصرخ وأصرخ... الدماء في كل مكان وزوج عمي تضحك شامتةً بي...

لم أكنْ قادرةً على القيام اكثر من خطوات بعيداً عن سريري لأنظر من النافذة وأعود إلى الفراش، عندما هاجمتني تلك الكوابيس المظلمة... كانت خالتي تجلب الطعام يومياً لي صبحاً وظهراً ومساءاً وتجالسني بينما آكل ثم تنادي أولادها ليأخذوا الصحون فيجلسون حولي وكأنهم ينتظرون إشارةً مني كي يضحكوا ويتمازحوا، وكنتُ جدّ سعيدةٍ برفقتهم مع خالتي... حتى أنني تمنيتُ في سرّي ان يطول مرضي و ضعفي كي انعم بتلك اللحظات السعيدة الهانئة قبل أن يهبّ إعصارٌ ما يأخذ مني سعادتي كلها... (فلقد اعتدتُ على ذلك)... (هاني) يصبّ الشاي لي ويجلبه بيديه ليناولني إياه وأنا جالسةٌ كـ (أميرة) وأمامي منضدة طعام صغيرة... خالتي تظل تلاطفني وتحكي لي عن بعض مغامرات أبنائها لمّا كانوا صغاراً وكانت قد جلبت البوم صورهم في احدى المرات وجلست فوق السرير

قربي لتريني صورهم ومراحل نموهم وكأنها تعوضني عن تلك الفترة التي غادرتُ فيها... يومياً، كان (هاني) يقصّ لنا ما حدث له أثناء دوامه في الجامعة... بينما أمير يحكي لنا ما مّر به في العمل، أما (فؤاد) فلقد اعتاد الصمت والابتسام فقط تفاعلاً مع مزاح اخويه ووالدته أو هزّ رأسه بالإيجاب أو السلب عندما يُسأل شيئاً... لم يكن يتحدث الاّ نادراً حتى أنني ظننتُ لوهلة ما أنه ربما يكون قد أصيب بالخرس!! أخذ (هاني) و (أمير) يسابقان والدتهما بجلب الطعام لي يومياً، بينما تصرخ خالتي بهما وهي تلهث...

- لا أستطيع اللحاق بكما هكذا...
- لقد أصبحت خالتكِ عجوزاً! (قال أمير)
- أنها لم تعد تستطيع صعود الدرج، ولقد قلتُ لأبي أنّ عليه البحث عن زوجةٍ أخرى!! (يهتف هاني ضاحكاً) فتسرع خالتي وتضربه على رأسه...
- أيها الوقح الجبان!
- ويهرب (هاني) ملتجئاً إليّ بسرعة...
- هل تقبلين ان تضربني... إنها قاسية جداً! لا اعرف لماذا تزوجك ابي!

ونضحك سويةً بينما تصرخ خالتي بهما وما ان ترى (فؤاداً) حتى تسرع بطلب نجدته...

- أرجوك! اقفل لي فمهما ...

وكان (أمير) و (هاني) يصمتان فعلاً ما أن يريا فؤاد... كانت أيام مرضي اجمل أيام، ماعدا تلك الليالي التي بدأت بها الكوابيس تنتابني... لم اكن اعلم أنني اصرخ في حلمي، حتى كانت تلك الليلة التي وقفتُ فيها مذعورة وخرجت من سريري مختنقة اطلب هواءاً أتنفس به، ففتحتُ الباب وأنا الهث مرتعبة، فاذا بذراعين قويين يمسكان ذراعيّ من الخلف قبل ان اسقط من فوق السلمّ الذي لم أره من فرط الرعب اسفل قدميّ...

- فاتن! احذري! ستقعين...

نظرتُ إلى قدميّ... كان السلم اسفل مني طويلاً ملتوياً... وضوء اصفر باهت ينعكس من اسفل الممر تحته بينما غطت الظلال معظم الطابق العلوي حيث وقفت وخلفي (فؤاد) يمسكني من ذراعيّ بقوة... تسمرتّ في مكاني... لم استطع ان التفت نحوه... كان خلفي تماماً... ولكنْ... من أين ظهر فجأة! هل كان يسمعني! هل علم بكوابيسي كما في السابق لما كنتُ طفلة!؟... شعرتُ بأنفاسه المتسارعة فوق رقبتي... ((ياالهي!)) غطيت رأسي بيديّ...

- أنا! أنا لست محجبة! أنا...

وهربتُ مسرعةً لأحاول ارتداء حجابي لكنهّ جرّني إليه بقوة ولم يترك ذراعي فنظرت إلى عينيه الزرقاويتين في انعكاس ضوء القمر عبر النافذة العلوية، تلتمعان بغضب...

- فاتن!! أنا لم أحمكِ! أنا خُنتك... أنا استحقُّ كل عقاب...

قال ذلك بألم شديد، وكأن آلام الدنيا كلها وضُعت في صوته ذاك... أخذ جسدي يرتجف بقوة... كانت أعصابي متوترةً للغاية... لم أعرف بم أردّ عليه، لكنه تابع...

- أقسمت لك أن أحميك... أقسمت لك أن لا أدع أحداً يؤذيك... قولي لي... هل لمسَ ذاك (الملعون) شعرةً منكِ! قولي! إنطقي! قالها بغضب شديد، فارتعشت أوصالي كلها... ((إنهّ يظنّ أنّ (حسام) كان زوجاً فعلياً لي وأننا كنا على (علاقة) ما)) شهقتُ بذعر وفكرتّ بسرعة... لكنّ شفتي تمتمتا قبل أن استطيع إكمال تحليل عقلي المنطقي وكان (فؤاد) لايزال يهز ذراعي...
- كنت لأقصّ له يده!! هل يتجرأ! أنا لستُ ضعيفة! لستُ ضعيفةً لهذه الدرجة وليس بيني وبينه أيّ شيء!!

زفر (فؤاد) بارتياح وارتبك فجأة، فأبعد يده عني وترك ذراعي مبعداً عينيه عني استحياءاً، وقد تغيرت نظراته...

- أنا آسف يا فاتن! أعتذر اليكِ... لقد كنتُ أسمع صراخك كل ليلة وأقف هنا قرب بابك لأحاول مساعدتك، ولكنْ كيف لي... أنا لا أقوى على فعل شيء ولا أستطيع أن ابعد هذه الكوابيس عنكِ... لأنني كنتُ السبب الذي شجعك على السفر في تلك الليلة... أتذكرين... كل ذلك بسببي أنا !! كان يشيح بنظراته بعيداً عني وكأنه يحترم بذلك قدسيّة حجابي الذي لم أرتده... ونسيتُ كل شيء بشأن الحجاب لمّا قال لي تلك الكلمات، وأيضاً، (كنتُ مطمئنةً أنه لم ولنْ ينظر إليّ)... قلت له بغضب و امتنان في آن... وعتاب...
- أنتَ لم تكن لتراني الآن لو لا تلك النقود التي أعطيتها تلك الليلة لي... وأنا التي اعتذر اليك من كل قلبي لعدم أتصالي مطلقاً بك... كنتُ أعتذر اليك كل ليلة، لأنني لا أستطيع أبداً ابداً إخبارك بظروفي... لكنّ دفتر مذكراتي الذي كنتُ اكتب لك فيه كل ليلة (رسالة لك)، يشهد من بعد الله على ذلك... أنا لم امتلك طيلة تلك السنوات نقوداً الا تلك التي (أنتَ) أعطيتني إياها وبها استطعتُ الهروب... وأتيتُ هنا))

شهق فؤاد فجأةً بألم وأشاح بوجهه بعيداً... وضع يده و ذراعه الأخرى على الجدار قبالته قرب باب غرفتي... ((هل هو يبكي!)) هتفتُ في سرّي...

- كم من الألم تحملتِ إذاً... (تمتم بصوت منخفض) وذهب نحو غرفته دون ان يلتفت إليّ وفتح الباب ودلف بسرعة ليغلقها وهو مطرق الرأس لا ينظر إليّ مطلقاً...

أسرعتُ بإخراج دفتر مذكراتي... كان عبارةً عن رسائل احكي بها لفؤاد عن كل يومٍ أمرّ به في منزل عمي... ودون تردد، أو بالأحرى، كي لا أتردد ويحكم عقلي بعكس القرار وضعت حجابي على رأسي وأسرعت بالخروج من غرفتي ووقفتُ أمام باب غرفة (فؤاد)... كان الضوء ينعكس من أسفل الباب في الدقيقة الأولى ولكنه سرعان ما أطفئ... رفعتُ يدي لأطرق الباب، لكنّ عدم وجود الضوء (وإطفاءه)، جعلني أتردد كثيراً فجثوت على ركبتيّ ودفعتُ بالدفتر السميك عبر فتحة الباب السفلى... انتظرت لبرهة، ثم نهضت وعُدتُ إلى غرفتي... وقمتُ هذه المرة بأقفال الباب!!

قررتُ في اليوم التالي أن انزل من السلمّ وأتناول الفطور مع عائلة خالتي كما كنتُ طفلة... وشعرتُ بالسعادة تبثّ في أوصالي الطاقة لتلك الفكرة الجميلة... ارتديتُ حجابي و ذلك بعد أن أخرجتُ ثوبي الأوحد من حقيبة سفري، ذلك أني لم أخذ اكثر من ثوب من منزل عمي، لكراهيتي أخذ شيء اشترته زوج عمي لي على ذوقها ومن نقود عمي... (إذ إنني لم اعلم آنذاك، أنهما سرقا نقودي عمراً كاملاً)...

أمسكت بمسند السلم الخشبي من الأعلى وببطء شديد حاولت وضع قدمي على السلم، لكنني شعرتُ بدوارٍ شديد، وحاولتُ التوازن بأسناد نفسي إلى الجدار ولكنّ جسدي أخذ يترنح في الهواء قبل أن أجدَ متكأً قوياً أستند اليه، مسنداً قوياً، أمسك بذراعي وأحاط بذراعه كتفي الأخرى... وأعاد إليّ توازني قبل أن أسقط...

رفعتُ رأسي وشهقت... كانت نظراته الزرقاء الحنونة نفسها... زفرت بارتياح...

- لقد أنقذتني مرتين...
- هيا الآن! أنا سأنزلك السلم... إستندي إليّ...

نظرتُ إليه بامتنان... بادلني نظرات العطف ذاتها التي كان ينظرني بها (أيام زمان)، فشعرتُ أني عدت تلك الطفلة الصغيرة وأن معاناتي انتهت إلى الأبد بين ذراعيه وهو يحيط كتفيّ بعنايته وينزل بي رويداً درجات السلم...

((أنت حقاً... بابا فؤاد)) هتفتُ في سرّي بسعادة الأطفال عندما وطأت قدمي أرضية منزل خالتي أسفل السلم، وتعالت أصوات الترحيب، إذ اجتمع هاني وأمير وخالتي مرحبين بي واقترب زوج خالتي سعيداً وهو يرحبّ بعودة صحتي وشفائي وانتهاء دورة نقاهتي من ذلك الانهيار العصبيّ الرهيب... أمسكت خالتي بيدي وعلى مهلٍ سرتُ معها حتى طاولة الطعام، حيث جلسنا و حيث شعرت بالسعادة تدبّ في جميع أوصالي...

- أنا اشكر الله اني معكم...

قلتُ بصوت خفيض فسكت الجميع ملتفتين إليّ وكانوا منشغلين بتحضير الصحون وصبِّ الطعام والشاي وفجأة... تركت خالتي الأبريق على المائدة مسمرةً في مكانها ...

لم انظر إلى احدٍ منهم بل رفعتُ نظري إلى الثريا المعلقة في صالة المنزل، لأكمل كلامي...

- لقد مررتُ بكل عذاب نفسي لا يمكن لاحدٍ أن يتخيله!! عشت ُ العزلة المطلقة لسبع سنوات، وكنتُ أحلم كل ليلةٍ قبل نومي بكم، لأحيا على أمل ما... أمل اللقاء بكم... أنتم، نعم كنتم أملي كي أحيا... لذلك أنا أشكر الله من كل قلبي أن جمعني بكم مرةً أخرى... أشعر أنني في الجنة الآن... شكراً لكل شيء فعلتموه لأجلي...شكراً لكم... قلت هذا ثم نظرتُ اليهم فوجدتُ الجميع يبكي!! حتى فؤاد الذي أشاح بوجهه بعيداً عني بينما لم يهتم هاني أن يظهر دموعه أمامي وكذلك أمير... أما خالتي فقد كانت تجهش بالبكاء!!

- كلا أرجوكم أنا آسفة! أنا سعيدةٌ جداً الآن ومعكم لن تكون هناك أحزان...
- حبيبتي! حبيبتي!

مسحت خالتي دموعها بسرعة وقامت لتحتضنني... مسح الأب دموعه بأنامله بينما أسرع هاني بصبّ الشاي لي...

- هيا الآن... وراءك يوم طويل! سآخذك في نزهةٍ لتري جمال المدينة...
- ماذا! سآخذها أنا!

هتف (أمير)، فصاحت الخالة...

- كفى! هل ستتشاجران مجدداً! حسناً... اذهبا كلاكما معها!! ما المشكلة؟ تناولوا الطعام الآن...
- ولكنْ يا فاتن!

قال هاني وهو يعضّ على قطعة خبز (توست) صغيرة...

- أية كليةٍ سوف تذهبين اليها!! ماهي رغبتك الحقيقية!؟ أم انك لا تريدين إكمال دراستك...
- لم لا تسكت يا هاني! لقد أصبحت للتو بصحةٍ جيدة، اتركها ترتاح قليلاً!
- لكنْ يا أمي! أنا لا أقول شيئاً خاطئاً...
- أنك على حق يا (هاني)... أنا لم أقرر بعد لحدّ الآن...

كنتُ في العراق، أسعى لمعدل عال كي ادخل كلية الطب...

- الطب! (شهقت خالتي) وتركت قدح الشاي ليستقر فوق صحنه على المائدة، فانتبهت إلى الأمر... لأنني كنتُ اعرف مسبقاً أنّ الدراسة الجامعية في أميركا تتطلب نقوداً كثيرة، وأنّ الجامعات ليست مجانية... وكلّما كان الاختصاص صعباً ودقيقاً، كلما تطلب نقوداً ومصاريف أكثر... فتابعت...
- لكنّ الطب لم يكن رغبتي يوماً ما!

فزفرت خالتي بارتياح ولجأت إلى قدح الشاي لتعوض ارتباكها...

- حسنٌ! اذاً ما الذي تحبينه حقاً!
- حقاً حقا! نظرتُ بدهشة إلى خالتي... تفاجأتُ أني لم اسأل نفسي هذا السؤال من قبل ... ولكنّ جواباً فجائياً ظهر على شفتيّ لأعلن عنه:-
- أنا احبّ اللغة الفرنسية!

شهق الجميع بحماسة... وصاحت خالتي...

- يا الله! إنها نفس كلية (فؤاد)... سيكون أستاذاً لكِ اذاً في الجامعة! ما أروع هذا يا أبا فؤاد! ألا ترى... ستكون فاتن طالبة عند فؤاد...

ونظرنا إلى بعضنا (أنا وفؤاد) بسرعة وأغضننا البصر... رفعت قدح الشاي إلى فمي لأظهر انشغالي بتناول الطعام بينما هتفتُ محتجّة على نفسي... ((لماذا قلتِ هذا يا فاتن!)) كان أمير قد ترك الدراسة الجامعية ليعمل في مجال التجارة مع والده... أمّا (هاني) فقد كان مجتهداً في الدراسة ودخل كلية الهندسة المعمارية... ولأجل هذا قال محتجاً بعد برهه...

- يا فاتن! قولي لي!

- ماذا! (نظرتُ بدهشةٍ إليه)...
- أولا تحبيّنَ الهندسة؟!... كنتُ أظنك ستأتين إلى نفس جامعتي...
- حسنٌ، أنا!! لا اعرف ماذا أقول... لكنّ الهندسة لا تستهويني!

الفصل الحادي عشر

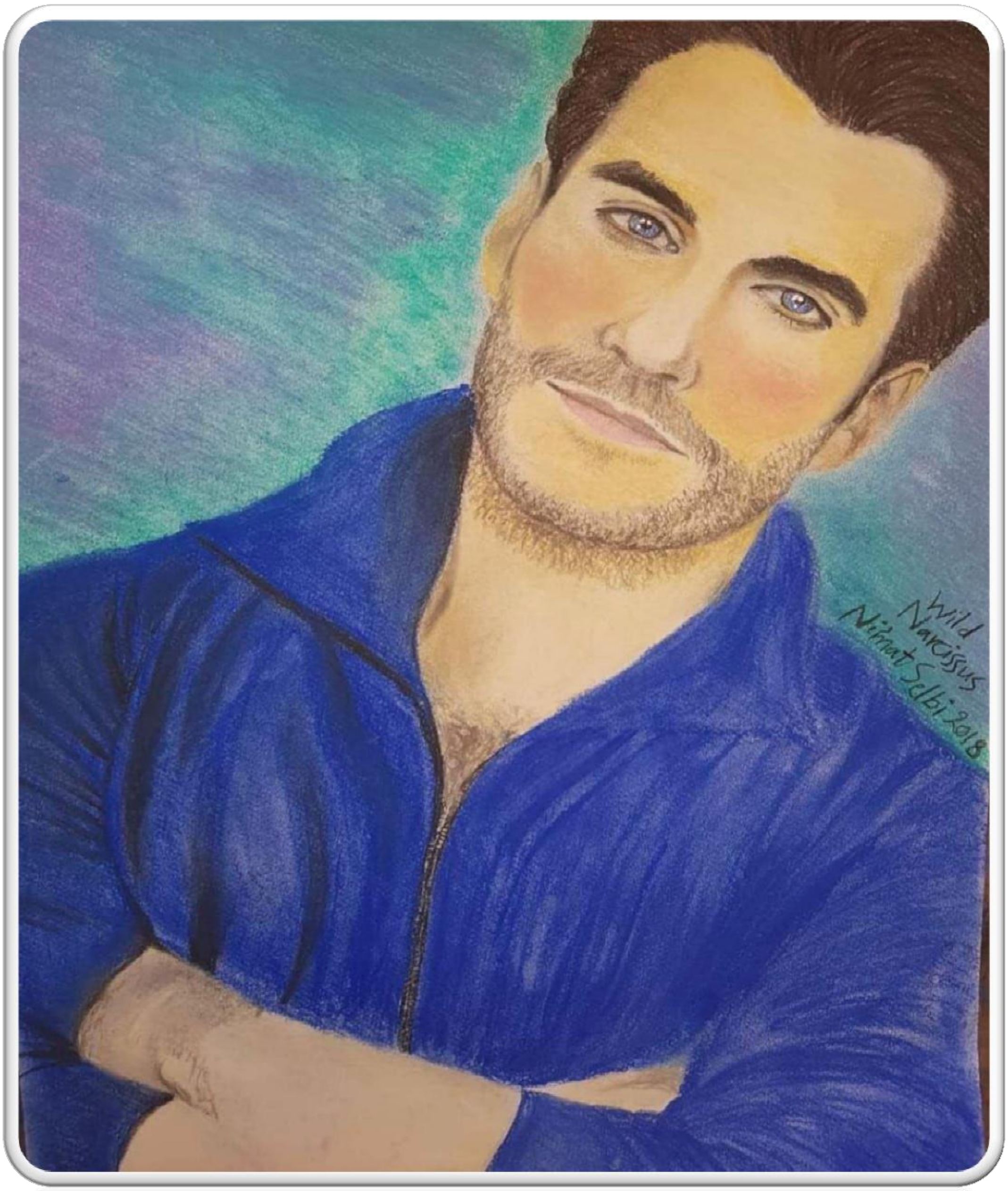
Wild
Narcissus
Nimat Salbi 2018

كان عليّ شراء ثياب لي قبل كل شيء، وقبل أن أستعّد لدخول الكلية لدراسة الأدب الفرنسي حتى يكون أستاذي هو نفسه (بابا فؤاد)، الذي كنتُ أراه في قاعة المحاضرات يرتدي نظارات للقراءة، كم كان عمره آنذاك.. كان قد أتم الثالثة والثلاثين عاماً، ولطالما تساءلتُ في سرّي عن سرِّ عدم زواجه حتى ذلك العمر... لقد أخذني (أمير) إلى محلّ ثياب نسائية برفقة والدته، ثمّ أخذنا في نزهةٍ لرؤية معالم المدينة... كان الجميع كريماً في تعامله معي في ذلك المنزل الصغير الهادئ... ولقد أخذ (فؤاد) يوصلني بسيارته كل صباح إلى الجامعة ويعيدني منها... أما في حال انشغاله فقد كان (أمير) يوصلني أو (هاني) بسيارة (أمير)، لأن هاني كان لا يزال طالباً ولم يكن يمتلك سيارةً خاصةً به... أخذتُ أشعر بالسعادة مع دخولي عالم الجامعة وأجواء الدراسة التي أحبها، حتى أنني بدأتُ أنسى كل ألمٍ شعرتُ به أو أنني كنتُ في يومٍ ما حبيسة الجدران، أو أنني كنتُ على وشك الزواج رغماً عني من شخص لا تربطني به أية صلةٍ روحية، اللهم إلا صلة قرابة بالدم مقيتة تمنيتُ معها أن أنزف دمي كله وأعيد وضع دمٍ جديد مكانه كي لا ارتبط مع هؤلاء البشر- واعني عمي وابنه - بأيةّ صلة... ولكنّ تلك الفكرة... أي- إزالة دمي كله واستبداله بدم آخر، كانت تخيفني من ناحيةٍ واحدة، ألا وهي فقداني لصلة قرابتي المحببة الوحيدة إلى قلبي، ألا وهي خالتي وأبناءها...

لقد استذكرتُ كل المفردات الفرنسية التي علمني (بابا فؤاد) إياها عندما كنتُ طفلة وأنا أجلس قبالته في غرفة الجلوس كي أتعلّم المزيد عن اللغة الفرنسية وأتقنها... فقد قررتُ إتقانها، وتعلمها كي أستطيع مجاراة (بابا فؤاد) في اللغة ونطقها... كانت قواعد الفرنسية صعبةً عليّ نوعاً ما وذلك ما جعلني الجأ لمساعدة (فؤاد) كأستاذ أخذ يشرح لي تفاصيلها، فأنا كنت من المتفوقات في اللغة الإنكليزية، أما الفرنسية فلم تكن تلك المادة تعطى لنا في موادنا الدراسية في العراق، ولذلك وجدتُ شقاً هائلاً بينها وبين اللغة الإنكليزية... فلطالما أحببتُ اللغة الإنكليزية وكنتُ أتخيّل نفسي وأنا أقوم بالمحادثات أمام المرآة... لم يكن الأنترنت منتشراً في وقتي ذاك الاّ عن طريق الحاسوب وفي المكاتب أو عن طريق اشتراك خاص مع شركات محددة... ولذلك لم أكن أستطيع معرفة اللفظ الصوتي لبعض الكلمات، اللهم الا صدفةً وأنا استمع لنفس الكلمة في فلم أجنبي

أتسللّ في نهاية كل أسبوع دراسي إلى الصالة لرؤيته عندما ينام الجميع... وكأنني أقوم بعملٍ إجرامي!!!

كانت خالتي سعيدةً جداً وهي تراقبني أدرس وأتعلم على يدي ولدها الأكبر، فتتعمد جلب الكعك والعصير لي وله وتشجعني على الاستمرار وعدم الاستسلام فأشعر أنّ (فؤاد) يُحرج من تصرفات والدته فوراً وذلك بتململه في جلسته أو تعمده نزع النظارات وارتداءها كل حين... لم تشعر خالتي بحَرَج ولدها ابداً ولا مرةً من المرات، بل كانت تجالسني لعّدة دقائق وهي تستمع إليّ كيف أرددّ الجمل خلف أبنها وكيف أكونّ جملاً بالفرنسية عندما يختبرني... كانت تنظر إليّ بسعادة تشابه سعادة الأطفال وهي تبتسم فرحةً... وتصفق لي عندما أجيب إجابةً صائبة...

مرّ عامان وأنا على ذلك الحال... حتى اعتدتُ وضعي الجديد ونسيتُ آلامي السابقة تقريباً... كانت تطفو ذكريات منزل عمي وذكرى عقد قراني بأبنه في أعماق روحي بعيداً عن وعيي بذاتي، فتشكل زبداً طافياً في اللاوعي، كنتُ على استعداد مع مرور الزمن لحمله بيديّ العاريتين لأرميه بعيداً عن حياتي... لكنّ (عقد قراني) ذاك، جعلني اشعر بالذنب دوماً كلما تحدثتُ مع (فؤاد) أو نظرتُ إليه... لأنني كنتُ أشعر أني (شرعاً) زوجةٌ لذلك (الحسام)!!...

من حسن حظي، أنهم لم يعقدوا قراني في المحكمة، وإلاّ، لكان ذلك كافياً عند عمي حتى يعمل ما يشاء من طرق ملتوية يسلبني بها حريتي، وأيضاً منزل والديّ... صحيحٌ أنّ العقد الشرعي تمّ رغماً عني وكان ذلك كافياً للحكم ببطلانه، إلاّ أنني كنتُ أشعر بذنبٍ خفي كلما نظرتُ إلى (بابا فؤاد)...فيا ترى... هل ظل (بابا فؤاد)، نفسه (والداً) في نظري...؟!

فكلّما مرّت الأيام وكلما كنتُ أجلس معه لأتعلم اللغة، أو أذهب معه إلى الجامعة ونعود سويةً، وبينما كنتُ أنتظره وأنا واقفةٌ أنظر الطلاب والطالبات الجامعيين حولي... كنتُ أشعر بقلبي يخفق حينما أراه ينزل السلم من بهو الكلية إلى الساحة وهو ينظر إلي مبتسماً... ثم يهتف بي قائلاً...

- هل انتظرتِ طويلاً...
- كلا!!

كان متيقناً أنني هناك أنتظره، كل يوم... في نفس المكان... لم يخرج معي إلى مكان ما، ولم يكنْ يفعل كما يفعل أخواه، عندما يعرضان عليّ بين فترةٍ وأخرى الذهاب في نزهةٍ لرؤية معالم المدينةِ أو إلى مطعم معين مع والدتهما... كان يكتفي بإيصالي إلى المنزل دون أن يتكلم ابداً... ودون أن أتكلم أنا أيضاً...

لأني لم أكن... أقول- أنني، لم أكن لأجرؤ على الكلام معه وأنا بمفردي... بل أنني كنتُ أتعمد الجلوس في المقعد الخلفي وليس إلى جوارِهِ، فحيائي وتربيتي في مجتمعي كانا يمنعانني من ذلك... لم احظ في الجامعة بصديقات، لأنّ الجميع كان منشغلاً عني، أما بحبيبة أو حبيب أو مجموعة من الأصدقاء الأجانب، الذين ليسوا من بلادي ابداً أو مجموعة صديقات يجتمعن سويةً ويتبادلنَ الحديث، ولذلك، لم أكن سوى طالبةٍ انعزالية، تجلس في حديقة الجامعةِ بمفردها في الفرص، وتحضر المحاضرات بشكل منضبط للغاية، وتذهب إلى مكتبةِ الكلية للبحث عن مصادر إضافية... وما كانتِ العزلة أو عدم الكلام مع أحد هناك تهمني أبداً... فلقد كانت بناية الكليةِ وأيضاً الجامعةِ ككل... وحديقتها الرائعة، وردهات القاعات، وروعة المكتبة، أعزّ عندي من كل الصداقات...فأنا لم أعتد من قبل هكذا (مثالية) في (العلم).. وتوفر أدواته كلها أمامي وبوجود طبيعةٍ كتلك الطبيعة، كنتُ أسعد إنسانةٍ في الوجود... طبعاً، كنتُ أتجاذب أطراف الحديث إن جلست فتاةٌ ما قربي وسألتني عن شيءٍ ما، ولكنّ صداقةً حقيقية لم تكن لتربطني بإحداهنّ... سألت (فؤاد) يوماً وأنا أجلس قبالته في صالة المنزل بينما كانت خالتي تعدّ طعام العشاء في المطبخ المرتبط مباشرةً بالصالة.. أي غرفة الجلوس- أقول – سألت فؤاد فجأةً بينما كان يصحح لي ورقة اختبار منزلية سألني فيها عدة أسئلة بالفرنسية ليختبر قدراتي اللغوية...

- لو سمحت... (وكنتُ اخشى وأتجنب لفظ اسمه دوماً)...هل لي ان أعرف...
- ماذا؟

نظر إليّ باستغراب من تحت نظاراته السوداء الاطار، والتي زادت من زرقة عينيه وهما تحدقان بي حتى توردت وجنتاي..

أطرقت وأنا أحاول الاستمرار في الكلام..

- كنتُ أتساءل... هل...هل..

- نعم...
- هل أكملتَ قراءة مذكراتي! وهل لي باستعادتها!...
- يا الله!؟

زفر بدهشة ورفع رأسه عن ورقتي وعدل نظارته وهو ينظر إلى السقف ثم نظر إليّ وقال:

- إنها رسائل لي أنا! أليس كذلك؟

أطرقت مرةً ثانية وأخذتُ ارتجف... لم أعرف كيف أجيبه.. كنتُ دوماً ما أتجنب النقاش معه أو الحديث، وشعرت بذعر شديد

- عن أذنك...

نهضتُ بسرعة لأتدارك ارتباكي الشديد... صعدتُ إلى غرفتي وأنا أحدثُ نفسي ((إنه محق! وأنتِ حمقاء! كيف تسألينه بعد مضي سنتين وأكثر، ولماذا تُحرجين نفسك فلو أراد هو إرجاعها، أو أنهّ فقط لو كان قد قرأها، لأعادها لك)).. وقبل أن أضع يدي على مقبض الباب، إذا بي أشعر أنّ أحداً خلفي... التفتّ فإذا به هو، هو فعلاً، واقفاً ودفتري بين يديه...

- أنا آسف... كان لابدّ لي من إرجاعه لك منذ زمن... لم أعلم أنك ترغبين باستعادته لعدم مطالبتكِ بذلك، ولأنني... وسكتْ فجأة... تلقفتُ الدفتر وأنا واجمةٌ ذاهلة لا اعرف ما أقول... سمعته يقول فجأة ليكسر حبل الصمت بيننا...
- هلاّ نظرتِ إليّ مرةً واحدةً وأنا أكلمك!؟

((ياالهي! إنه يعرف إنني أتعمد عدم النظر إليه!))... هتفتُ بدهشة، ورفعتُ رأسي بسرعة لأرى نظراتٍ لاهبةً مستعرة وكأنها نارٌ زرقاء قوية...

- فاتن! ياالهي! كم أنتِ جميلة؟! هل تعلمين كم أراكِ جميلة...
- رباه!! استدرتُ بسرعة لأفتح باب غرفتي لكنه وضع ذراعه حائلاً بيني وبين الدخول اليها... وصرت بين الباب وذراعه..
- أرجوك...أنا آسف... أنا أعتذر... كيف تجرأت!

قال ذلك دون أن يبعد ذراعه عني وأردف قائلاً... سامحيني... لكنّ رسائلك... دمرتني يا فاتن... أنا قرأتُ كلّ حرف منها وأعدتها اكثر من عشر مرات...وكل ليلةٍ أقرأ فيها قبل ان أنام ككتاب مقدس... أوَ تعلمين كم يشعر (بابا فؤاد) بحقارته، حينما قرأت معاناتكِ تلك بسببي ...

- أنا آسفة! أنا لم أقصد!!
- ياربي! وكذلك تعتذرين!!... أنا الذي أعتذر منك طوال عمري... (فاتن)! هلا سامحتني... هلا سامحتِ بابا (الحقير) هذا!

رفعتُ نظري إليه! ياالهي... كانت نظراته ثاقبةً حادةً وكأنها تخترق روحي وكأنها تقرأ أفكاري كلها... وضع ذراعه الأخرى فوق الجدار أمامي... أصبحتُ كعصفورة تواجه نسراً...

- أنتَ لم تفعل شيئاً كي أسامحك عليه... بل أنا مدينةٌ لك بكلّ شيء... هل لي أن أذهب!؟... أرجوك، دعني...
- أرجوك!... فاتن... حسناً... أنا آسف...

قال ذلك وقد تغيرت نظراته فجأة كتلك المرة التي أنقذني فيها من كابوسي وأمسكني عن السقوط من أعلى السلم... لكنهّ في هذه المرة جعلني أسقط بعيداً... لقد سقطت روحي في متاهة التعلقّ به، وأدركتُ إني لم أكن افكرّ إلا فيه.. ابعد وجهه بسرعة ورفع ذراعه عن الجدار وحافة الباب...

واستدار وهو يقول بصوت حزين...

- أكرر اعتذاري منكِ... أنا كنتُ... كنتُ...
- تصبح على خير!!

قلتُ بسرعة لأتدارك الإحراج الشديد الذي حدث بيننا وكي لا أجعله يشعر بذلك ابداً، لأني كنتُ أخشى عليه (حتى من نفسه)...

استدار نحوي فجأةً...

- لكنّ أمي تعد العشاء لنا...
- شكراً... أنا لستُ جائعة... أريد النوم مبكراً! أشعر بتعب شديد...

قلتُ ذلك من خلف باب غرفتي وأغلقته بسرعة... وقفتُ خلف الباب لثوان وأنا أتنفس بسرعة من شدّة الخوف و الإحراج اللذين مررتُ بهما... ابتعدتُ عن الباب لأطفئ إنارة غرفتي التي نسيت إطفاء مصابيحها، فلاح لي أسفل باب غرفتي ظل يتحرك بين الضياء..شهقت بذعر، وعرفتُ أنّه لا يزال واقفاً هناك... ((ماذا يريد؟! ياالهي؟!...)).. بقيتُ عدة ثوانٍ انظر إلى الظل المتحرك عندما اختفى فجأة فزفرتُ بارتياح وقمتُ بأقفال الباب وسرتُ نحو سريري وأنا انزع ثيابي بسرعة وارتدي جلباب النوم المعلق قربه..

بدأت أبتعد بعد ذلك عن (فؤاد) قدر الإمكان... ولم أعد أرغب بأخذ دروس في الفرنسية منه، كي لا تتكرر تلك الحادثة معه، حتى أنني أخذتُ أتعمد عدم الركوب معه صباحاً بحجّة وعكةٍ صحية أو شيء من هذا القبيل، وكان هو ، كالمعتاد، يتركني افعل ما أريد، دونما اعتراض- وكان ذلك يزيدني غيضاً وحنقاً عليه- ويدفعني إلى التمادي في إهماله... إذ أخذتُ أتعمّد طلب توصيلي إلى الكلية من قبل (هاني) الذي لم يكن ليرفض مطلقاً، أما في طريق العودة، فلم أعد انتظر فؤاد، لأنني أصبحتُ اعرف الطريق جيداً وباصات المدينة متوفرة في كل مكان، ولذلك، أخذتُ أعتاد ركوب الحافلة التي توصلني مباشرةً إلى منزل خالتي... لم يعترض أحدٌ على ذلك إلاّ خالتي التي عبّرت عن دهشتها يوماً ما ونحن جالسون سويةً نتناول طعام العشاء... إذ هتفت وهي تصبّ لي الحساء..

- لماذا يا فاتن إذاً أصبحتِ تركبين الحافلات ولا تذهبين مع (فؤاد) إلى الجامعة!؟...

سقطت ملعقتي من يدي ورفعتُ رأسي نحوها ثم أسرعت بالإطراق.. رفعتُ رأسي مجدداً لأرى أنّ (فؤاد) لم يرفع رأسه مطلقاً وظلّ يتناول طعامه وكأنّ الأمر لا يعنيه...

- حسنٌ!

قالت خالتي وهي تنظر جواباً مني، عندما صاح زوجها فجأة..

- غداً سأسافر في طلبية أقمشة... أرجو أن تحضري حقيبتي لأني ربما سأتغيب ليومين أو أكثر...
- حسنٌ يا أبا فؤاد... تحت أمرك... ولكن... لم تقولي لي...

- أمي! ما أخبار صاحبة الصالون التي أردتِ الذهاب لصبغ شعركِ عندها... ماما... لقد برز الشيب هنا وهناك في رأسك... اذهبي بسرعة اليها وقصيّ شعرك كآخر مرةٍ كنتِ فيها جميلةً جداً بتلك القصة وذلك الصبغ...

أعلن (فؤاد) فجأة، فذهل الجميع!! بمن فيهم أنا... لأن (فؤاد) لم يكن يتكلم أبداً على مائدة الطعام ولم يكن ليبدي ملاحظات كتلك لوالدته التي أخذت تعدل شعرها بأناملها وتقول مبتسمة لأبنها...

- حقاً! حقاً! أنظر كيف يمتدحني فؤاد يا أبا فؤاد! أولا تتعلم منه شيئاً قليلاً!

قالت ذلك وهي تلكز كتف زوجها بيديها بعتاب لطيف.. وعند ذاك ضحك (هاني) وانفجر (أمير) بالضحك، فضحك الأب معهما من كل قلبه، وظلّ فؤاد صامتاً بينما رفعتُ رأسي لأنظر إليه شاكرةً فلم يبادلني أي نظرة ولم يرفع رأسه أبداً تجاهي... وصرخت خالتي...

- أتضحكون عليّ! حسنٌ إذاً! لا طعام!
- أرجوك أمي! كلا كلا! يا أجمل أم في العالم..

قام هاني وقبلّ رأسها بينما سحب أمير صحنه من بين يديها القويتين وصمت الأب عن الضحك...

- أماه... أنتِ أجمل أمرآه في العالم بالنسبةِ لنا... (قال أمير ذلك) ثم التفت إليّ مبتسماً...
- - طبعاً من بعد (قطر الندى)، قالها مجاملةً فاحمرت وجنتاي وشعرتُ بخجل شديد، بينما هتفت خالتي...
- فعلاً! فاتن ابنة أختي... هي قطر الندى وأجمل منها...

بياضها بياض الثلج وسواد عينيها سواد الليل... أنها نسخةٌ من أختي الحبيبة... كنا أجمل البنات في المدرسة...

- ولا تزالين يا أم فؤاد أجمل أمرآه!

قال أبو فؤاد فابتسمت خالتي بسعادة وجلست تكمل طعامها ولم تتكلم بعدها بشيء... وأكملنا طعامنا بصمت بينما شعرتُ أنا بدمائي كلها تتضرج في رأسي من شدّةِ الخجل...

وعندما ذهبتُ للنوم، فكرتُ كثيراً بموقف فؤاد عند العشاء... ((أذاً فهو يعرف كل شيء ويعلم أنني أتعمد عدم الركوب معه، ومع ذلك يدافع عني... كم أنا حقيرة!! أنا أكرهكِ يا فاتن!... لماذا تفعلين هذا معه... فهو لم يعاملكِ إلاّ بكل طيب...))

((لكنّ... لكنّ... أنا اخشى النظر إليه... أخشى التقاء عينيّ بعينيه... أنا ضعيفةٌ أمامه... وأعلم أنني معجبةٌ جداً به...)) وسالت الدموع من عينيّ على وسادتي...

((لكنني زوجةُ ذلك الحسام شرعاً ولذلك أنا ملطخةٌ بالعار ولا أستطيع التحرر من سجن عمي أبداً ولا الحياة بعيداً عن سلسلته الحديدية التي يجرّني بها كلما أراد نحو سجنه))...

((رباه! ولا يوجد فرجٌ لي من كل هذا! أرجوك ياربي!)) لا اعلم لماذا قمتُ في صباح اليوم التالي، وقبل أن يستيقظ الجميع بالخروج من غرفتي وبيدي دفتر مذكراتي القديم... لقد أعدتُ قراءته... واستذكرتُ أحزاني كلها معه... أخذتُ الدفتر بسرعة وجثوتُ كما فعلتُ في المرّة الأخيرة.. ترددتُ لثوانٍ قبل ان ادفعه اسفل الباب... كنتُ في هذه المرةِ قد كتبتُ في صفحته الأولى...

" إلى (بابا فؤاد) إنها رسائل لك، وليست لي وشكراً لك على كل شيء، لأنك دوماً ماكنت تحميني ولا تزال تحميني حتى من نفسي سأنتظرك كل يوم كي توصلني... أنا آسفةٌ على كل شيء..."

عندما نزل (فؤاد) لتناول وجبة الإفطار التي كنتُ أحضرها مع خالتي بانتظار أفراد العائلة، كان وجهه يشعّ سعادةً، ولاحت منيّ نظرةٌ إليه وأنا أضع صحن الزيتون والجبنةِ أمامه، كانت نظراته سعيدة شاكرةً لي... شعرتُ بسعادةٍ خفيه، والتفتُّ نحو إبريق الشاي لأحمله بقطع قماش صنعتها بيديّ(واقيات الحرارة)، بينما هتف أمير وهو يسحب كرسياً ليجلس عليه قرب فؤاد..

- الله! رائحة شاي (فاتن) العطرة! لا أحد يصنع الشاي مثلها! صبيّ لي أولاً كي أستطيع التركيز، لأني لم أنم جيداً البارحة!...
- ولماذا يا ولدي...

قالت خالتي وهي تضع صحناً من البيض المقليّ أمام أمير...

- بقيت حتى ساعة متأخرة من الليل العب ألعاباً على النت مع أصدقائي نتنافس بها...
- قلتُ لك إنّ النت مضرٌ جداً... انتَ لا تسمع الكلام!!
- صبيّ يا فاتن! هيا هيا!
- حاضر!

اقتربت من أمير وصببت الشاي في قدحه ثم وضعتُ الإبريق على المائدة لأضع حبات السكر في قدح (فؤاد)- الصامت أبداً- و أصب له الشاي..

- شكراً لكِ..

قال باقتضاب فأجبت بالعفو... عندما قفز هاني مسرعاً نحو المائدة..

- هل سافر أبي يا أماه!
- نعم يا حبيبي، كالمعتاد!
- الله! رائحةٌ زكيه... صبي الشاي لي يا فاتن...
- حاضر... ثوانٍ فقط...
- وضعتُ له السكر وصببتُ له الشاي ثم قمتُ بنفس الشيء مع خالتي وآخر شيء صببت الشاي لنفسي وجلست...
- هيا! اسرعوا كي لا يذهب الوقت سريعاً ويفوتكم الدوام.. أعلنت خالتي بعد ربع ساعة، فانتفضنا جميعاً وقمتُ أنا بحمل الصحون إلى المغسلة وكذلك فعل كل واحدٍ من أبناء خالتي... وبينما شمرّت عن ذراعي لأغسل الصحون، صاحت خالتي بذعر...
- - كلا! إذهبي... ستفوتك المحاضرة! هيا هيا...

أسرعت بغسل يديّ وفمي وذهبتُ لحمل ملازمي وأغراضي... كان فؤاد ينتظرني بالأسفل وهو يركب سيارته... فتحتُ الباب الخلفي، لكنني وجدته مقفلاً... طرقتُ النافذة أمامه... فتح لي الباب الأمامي وقال بحزم..

- أركبي هنا!
- لكن! ماذا...

- هناك أغراض في الخلف فوق المقعد الخلفي... لم أرتّب السيارة... وأسقط في يدي، فلقد كانت هناك أغراض كثيرة تملأ المقعد الخلفي فاضطررت إلى الركوب إلى جواره في المقعد الأمامي وأغلقت الباب...
- حسنٌ! هل انتِ مستعده!
- مستعده! لماذا!

قلتُ بدهشة...

فالتفت إليّ بسرعة وقال وهو يتعمد النظر إليّ بنظراته الثاقبةِ تلك...

- اليوم لن آخذك إلى الجامعة... بل ستذهبين معي في سفرةٍ صغيرة... أنا أستاذك ولن أحاسبك على الغياب...

حرتُ جواباً وأطرقت بخجل... لم أعرف كيف أجيبه وأنا التي كتبتُ له الرسالة وكنتُ أنا السبب في كل هذا...

- لكنْ إلى أين؟!
- هل تثقين بي!!

قالها دون أن ينظر إليّ...

- طبعاً...

تمتمتُ بلا وعي.. فأدار مفتاح السيارة وانطلق..

توقفت السيارة أمام متنزه جميل وأمامه مدينة ألعاب... فتح فؤاد الباب لي وأنا لا أزال في اندهاش وعدم تصديق لما يجري حولي... سرنا سويةً في المتنزه... حيث الطبيعة الخلابة، وحيث وجدنا أسَراً افترشت الأرض وجلست تتناول الطعام... كانت هناك مصاطب كثيرة جلس عليها زوجان، أو حبيبان... كنتُ أشيح بنظري عن أي شيء لا أراه مناسباً لي ولم يكنْ مألوفاً بالنسبة لتربيتي وأخلاقي...

لم يتحدث فؤاد مطلقاً بل اكتفينا بالنظر إلى الناس ونحن نسير سوياً... ثم وصلنا إلى مدينه الألعاب فوقف فؤاد ليأخذ وصلاً من الموظف وثم التفت إليّ بسعادة وهو يقول:

- هيا بنا!

ذهبنا إلى الخيول المتأرجحة وركبتُ فوقها وأنا لا أصدق ما أفعله... طبعاً، ساعدني فؤاد على امتطائها، وأخذت اللعبة تدور وأنا اضحك على نفسي... شعرتُ بسعادةٍ عارمه..

- هيا بنا يا فاتن!

أخذني بعدها إلى الزوارق وركبنا سويةً... كان المنظر رائعاً بينما فؤاد يقوم بعملية التجذيف بمفرده وأنا استمتع بالطبيعة.. ووصلنا إلى عربة الموت... نظر إليّ فؤاد متسائلاً..

- هل تركبينها!
- لم أجربها! أنا أخاف!
- هل تودّين تجربتها!
- حسنٌ! لا أدري!
- هل تثقين بي! أنها ممتعه!

وركبنا سويةً بعربة الموت وكانت تجربةً (مميته) إذ أنني شعرتُ برعبٍ شديد ولم أستطيع الصراخ، لأنّ طبعي عند الخوف هو الانجماد والانكماش فقط... عندما انتهت (الرحلة) في عربة الموت، التفت فؤاد نحوي فإذا به يجدني ممتقعة اللون...

- ياالهي! هل خفتِ إلى هذه الدرجة!
- جداً!! جداً...
- حسناً! هيا بنا! الم تستمتعي بهده اللعبة!
- لا! ولن أركبها بعد الآن! لقد متُّ رعباً...
- هل تريدين لعبةً أخرى!
- كلا! كلا... لقد تعبت...
- فاتن! أنا آسف..
- لا لا ! ابداً...
- حسنٌ! هيا بنا نذهب إلى مطعم قريب لنرتاح من هذه اللعبة

- هل انتِ سعيده.. هل استمتعتِ بوقتكِ...

هتف (فؤاد) بينما كان النادل يقدم لنا وجبة الطعام بعد أن قام (فؤاد) باختيار الوجبات بدلاً عني وذلك بطلبٍ مني...

رفعت رأسي إليه فوجدتُ نظراته الزرقاء تشع سعادة...

- فاتن... كان عليّ أن أجلبك إلى هنا من زمنٍ بعيد...
- لقد استمتعت بوقتي جداً.. وأنا شاكرةٌ لك.. كثيراً..

وأخذنا نتناول الطعام بصمت... عندما قطع الصمت صوت (فؤاد)

- فاتن!! هل لي بسؤال...
- نعم!

رفعتُ عينيّ نحوه بذهول...

ولمّا التقتْ عيناه بعينيّ شعرتُ بارتباكه، إذ سرعان ما أشاح بنظره عني متظاهراً بتناول الطعام..

- فؤاد! ماذا!

كانت تلك هي المرة الأولى التي أناديه فيها باسمه!! رفع رأسه نحوي بدهشة.. وقال بدون وعي...

- أنتِ عينا فؤاد! أنتِ تأمرين وأنا أنفذّ... بل أنتِ (فؤادي) كلّه!
- ياربيّ! ماذا تقول!...

اطرقتُ برأسي وتمنيت لو أنّ الأرض تنشق تحتي...

- أنا سأموت حباً لك يا فاتن! أنا أحبك... وانتِ تعلمين هذا جيداً!! وتتلاعبين بي..

قال ذلك مطرقاً فجأة... فصرختُ محتجةً..

- كلا! أبداً! أنا لا أتلاعب بك... مطلقاً..
- اذا! ما هي مشاعرك تجاهي... قولي لي فوراً!

قال ذلك وهو يحدقّ بي بعينيه الزرقاويتين... شعرتُ بذعر شديد... لم أعرف بم أجيب... أمسك بيديّ فجأة..

- فقط قولي لي هل توافقين على الزواج مني! صحيحٌ أنني أكبرك كثيراً! لربما هذا السبب، حسنٌ، سيدفعك إلى رفضي... ولم لا... انتِ تستحقين شخصاً كـ (أمير) أو (هاني)... وليس شخصاً يكون كهلاً بعد عشرين سنه وأنتِ في أوج شبابك...

واسترسل بالكلام، فذهلتُ أنّ كلّ هذا الكم من الكلمات كان مدفوناً في صدره، وقد أستطاع البوح به الآن... انتبهتُ إلى يديه وهما تمسكان بيديّ فأبعدتهما بسرعة..

- انت لستَ كما تقول!
- حسنٌ!

صمت عن الكلام منتظراً سماع جوابي...

- أرجوكِ أجيبي... هل ستفكرين في الأمر..

وأومأت برأسي دلالة الإجاب كي أتخلص من الإحراج ذاك...

- فاتن! أوَ لستُ كبيراً عليكِ... قولي...
- لا! (هتفت بقوة وأنا ارفع رأسي لأرى نظرات ممتنه)...
- اذاً! هل تبادلينني نفس الشعور... فقط هزّي رأسك..أرجوك! أنا سأموت من كثرة التفكير... وليس من هذه الفترة فقط، بل منذ عدتِ إلى منزلنا، فتاةً مكتملةَ الأنوثة والجمال..لم أصدّق عينيّ... هل هذه هي نفسها (طفلتي) التي حملتها بين ذراعي عندما جاءت إلينا أوّل مرّه... ياالهي! لم أستطع إيقاف التفكير بك وخصوصاً عندما عرفت بما فعله عمك (الدنيء) معك... ياالهي!، لقد عشتُ عذاباً مضاعفاً وأنا ... وأنا، أتخيل مع نفسي، أنّ ذلك (الوغد) ابن عمك، قد لمسَ شعرةً منكِ... أنتِ لا تعرفين كم عانيت!! كم تألمتُ لوحدي يا فاتن...
- هل كنتِ ملاكاً نزل علينا من السماء، ام عذاباً لي أنا بالذات!؟لأنني أخلفتُ وعدي لطفلة صغيرة بكت بين ذراعيّ ووعدتها أن أحميها من كل شيء فتركتها ترحل بمفردها إلى بلاد بعيدة... بعيدة عني... كم كنتُ أحمق!!

- كفى أرجوك! كفى!
- أنا الذي أرجوكِ! أن توقفي عذاباتي! ثم... ثم... لمّا أعطيتني تلك المذكرات! يا الهي؟ هل توجد براءةٌ في العالم مثل براءتك.. هل يوجد شخص في الدنيا يحمل روحاً طاهرةً مثل روحك... أنا يا فاتن! أتمنى كلمةً واحدةً منك ستجعلني أسعد أنسان على وجه الأرض... أرجوكِ أجيبي! هل أنت معجبةٌ ولو قليلاً بي! أرجوكِ... أنتِ فتاة أحلامي المثالية ولن أفرط فيكِ أبداً... أنتِ طفلتي وكل شيء لي...

شهقتُ بألم وقمتُ منتفضة من فوق المقعد... نهض فؤاد مندهشاً...

- لماذا! هل أنا آذيتك بشيء! أعلم أنني لستُ الشخص الذي تتمنين الزواج به، فأنا عرفتُ علاقات واهية كثيرة ...
- كلا! كلا! لكني لا أستطيع! لا أستطيع!

وأخذت الدموع تنهمر من عينيّ...

- أرجوك... هيا بنا... لا تبكِ... هيا فلنرحل! أنا آسف...إنسي كل شيءٍ قلتُهُ لك... أنا آسف...

ولم نتحدث بعدها ابداً... حتى عندما كان يوصلني إلى الجامعة أو يعيدني منها... لم نتكلم أبداً وكلما التقت نظراتنا، كنا (كما اعتدنا) من قبل نتهرب من بعضنا... أنا لم أستطع أن أقول له... كتبتُ في دفتري الذي كنتُ أكتب فيه مذكراتي منذ وصولي إلى منزل خالتي...

((سامحني يا فؤاد... أو أقول يا (بابا فؤاد)... أنا لا أستطيع أن أبوح لك بمشاعري ولن أستطيع، ما دمتُ قد عُقد قرآني على شخص آخر حتى لو كان في اقصى الأرض... يعلم الله وحده كم أحببتك... وكم أحبك... وأنا أتعذبُ مثلما تفعل أنت لأجلي ولربما أكثر، لأنك تعلم سبب عذابك، أما أنا فلا أعلم كيف أتخلص من عذابي، وأنا قرينة شخص لا أطيقُه وفي نفس الوقت، لا أجرؤ على السفر للطلاق منه، لأنني ان فعلتُ سأذبح، كما تذبح الشاة... ولسوف يغسلون بدمي عارهم... وحتى وإن لم أقتل، فأنا ميتةٌ أصلاً في عيون الناس هناك، بل إنّ الميت تناله الرحمة من أفواههم، أما أنا فلن أنال سوى الأقاويل والبهتان!)).. ((سامحني يا فؤاد... يا والدي، و ابن خالتي ومن أحَبّه قلبي بكل صدق وإخلاص،

حباً بريئاً طاهراً، لا يشوبه أيّ شيء... هل لك أنْ تفهم إحساسي وسبب صدّي وإعراضي... أنا أشعر أنيّ ملوثة... أني مقيدة، أنيّ في سجن بعيد، مفتاحه بيد عمي وأبنه... آهٍ، هل هناك أمل!)) ((أرجوك أن تنساني وتعيش سعيداً... فمن يرافقني، تحلّ عليه لعنتي... لأن حياتي كلها عذابٌ في عذاب... معك يا (فؤاد) شعرتُ بطعم السعادة، وأنت تعلمني مفردات اللغة... وبصوتك الدافئ الحنون الذي كنتُ أنسى بين طبقاته الرخيمة كل آلامي وأختبئ تحت نظراتك الحنون من كل آلامي السابقة وخوفي وجنوني))...

((لكنْ... إلى متى سأظلّ في هذا العذاب... سأظل وحيدةً يوماً بلا أهل ولا أصحاب، لأجل هذا القيد العقيم... لكنْ... أنا أخشى البوح بمخاوفي وأخشى قول شيءٍ ما... لا أعرف ما العمل))..

ودفنت رأسي بين يديّ لأنتحب بصمت حزين...

الفصل الثاني عشر

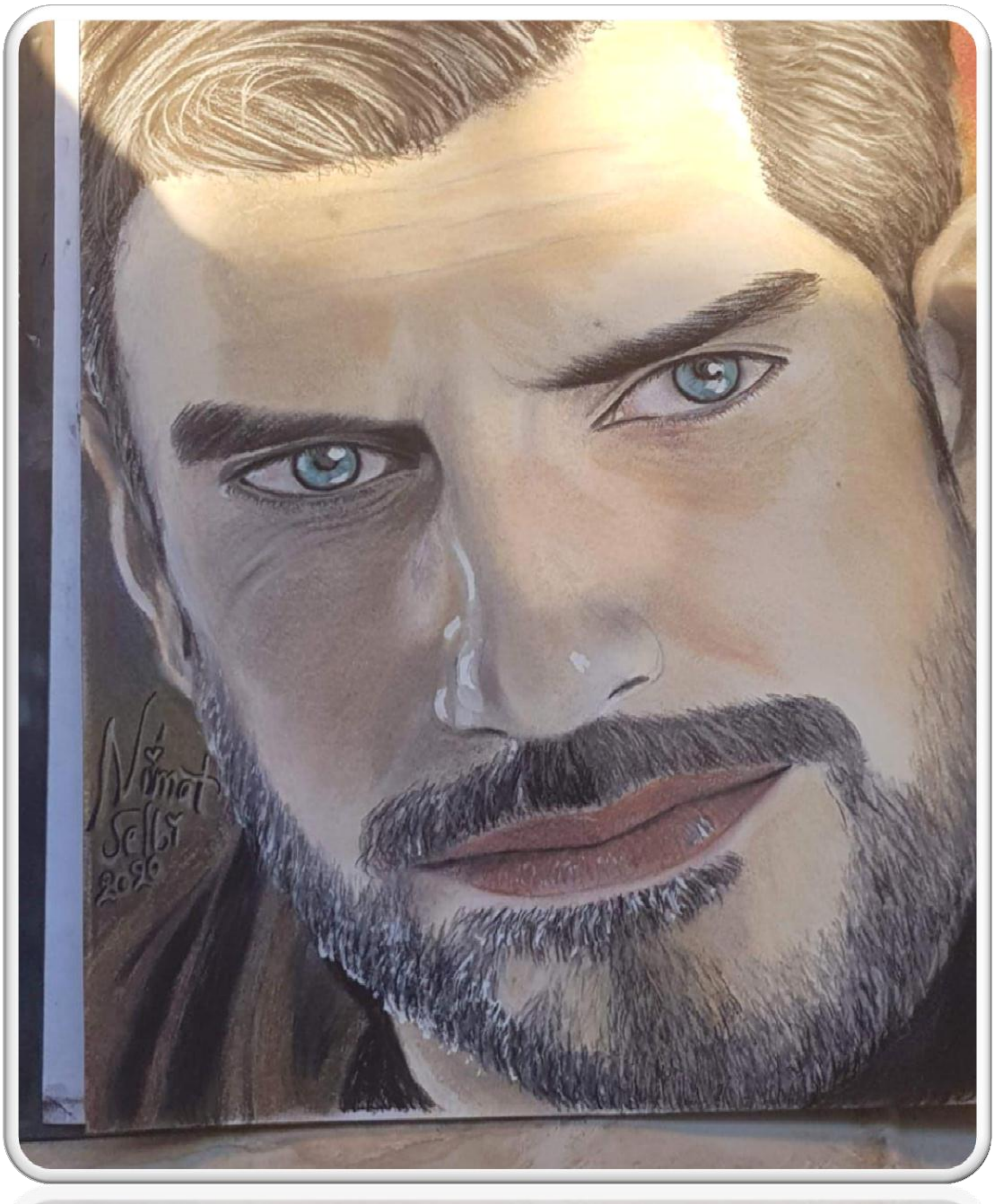

مرت سنتان أخريان وكنتُ في سنتي الأخيرة قبل التخرج من قسم الآداب الفرنسية... كانت الحياة رتيبة متتابعة الخطى، إلاّ أنها عندي أجمل ما تكون وأنا اشكر الله على كل لحظةً أحيا فيها بعيداً عن عذابات عمي وأسرته... ورغم معاناتي مع (فؤاد) كلما رأيت صمته وانكسار نظراته، إلاّ أنني كنتُ أزداد شعوراً بالامتنان لبيت خالتي وشكراً لله أن خلصني من حياتي السابقة وعذاباتها... في أحد الأيام، جاءنا زميل جديد إلى القاعة وعرّف عن نفسه بأنهّ قد أنتقل للعيش حديثاً في ولايتنا حيث نسكن أنا وخالتي وأسرتها... وأنّه من الجالية العراقية... كان الشخص الوحيد الذي تعرفتُ إليه من (الجالية العراقية)... ولقد انتبه إلى حجابي فحاول بعد المحاضرةِ التحدث إليّ والاقتراب مني...

- مرحباً يا أختاه...

هتف بعد انتهاء المحاضرة مباشرة...

- مرحباً بك!
- هل لي أن أقترح عليك قدحاً من القهوة في مقهى الكلية؟
- أنا! ماذا... (فاحمرت وجنتاي) ... لا لا... أشكرك..
- لكن لم لا... نحن كلانا مغتربان! ونعاني هنا نفس الشيء... تسمرتُ ولم اعرف بم أجيبه وظلّ يصرّ على طلبه عندما سمعنا صوتاً...
- ألم تسمعها تقول لك إنها لا تستطيع!

كان صوتاً غاضباً ظهر من العدم لكنه أنقذني من الأحراج ... ظهر (فؤاد) فجأة خلفنا في الساحة العامة أمام بهو الكلية فأحمرت وجنتاي خجلاً وخوفاً هذه المرّة.. والتفت الشاب إلى (فؤاد)..

- آسف! هل أنت والدها أو عمها؟!

تبادلنا النظرات أنا وفؤاد الذي أبعد عينيه عني مباشرة وقال بغضب واضح النبرات.. (متجاهلاً ملاحظة الشاب عن عمره بالنسبة لي)..

- لستُ هذا ولا ذاك، لكنني الوصيّ على الآنسة... أنا ولي أمرها والمسؤول عنها... ولا حق لك بدعوتها والإلحاح عليها...

- - حسنٌ!؟ أو لا يحقّ لنا في بلد الحريات أن نمارس حريةَ التكلم مع زميلة دراسة، وأيضاً... زميلة غربة!؟ هل الوصاية تمنع هذا!
- أنا أحذرك!!

أيها الوقح... (قالها مزمجراً) وقدحت عيناه شرراً.. وضع (فؤاد) سبابته فوق كتف ذلك الشاب الذي اصفرّ وجهه ذعراً، وقال بغضب عارم...

- حسنٌ اذاً ! أنت تريد القتال! هيا قاتلني وافتعل عراكاً!!
- أنا لستُ بسنك... ألعَب بعيداً عن هنا... إنها قريبتي وأرفض لك التقرب منها... مطلقاً...

قال كلمته الأخيرة بلهجةٍ متوعدة.. ثم وجّه كلامه إليّ ..

- هل أكملتِ محاضراتك!
- نعم... يا(فؤاد)! قلتُ (أسمه) على حرج كي لا أذكر أنه أستاذي
- هيا اذاً... امشي من هنا، تحركي بسرعة...

أخذني من ذراعي بقوة وشدني كطفلةٍ صغيرة تسير خلفه... تاركاً الشاب مذهولاً فاغراً فاه!!! بينما كنتُ أنا أحاول الاعتذار منه، إلاّ أنّ قبضة فؤاد على ذراعي كانت قويةً جداً...

- حسنٌ... دعني اعتذر منه على الأقل بشكل مهذب!

قلتُ وأنا اغذّ الخطى لأسرع مع خطوات (فؤاد) الغاضبة السريعة

- أوَ تخافين على مشاعره!

التفت إليّ بحنق، فتوقفنا عن السير...

- كلا! ليس الأمر هكذا... لكنك تهجمتَ عليه! نحن لسنا في العراق ولسنا في كربلاء خصوصاً، ونحن داخل حرم جامعي!
- نعم، نعم ! داخل حرمٍ جامعي!

قال ذلك وهو يعدّل وضع نظاراته فوق عينيه ثم رفعها بغضب ..

- ماذا تريدين!؟ إذهبي ولبّي دعوته! هيا... تفضلي... قال ذلك وهو يشير بيده بعصبية... وأسقط في يدي فلم أعد أعلم ماذا أقول ..
- كلا! أنا لم أكن أريد... (فؤاد)! أنت لا تفهم!
- أنا لا افهم ماذا! كنتِ محرجةً أمامه وكان يلحّ عليكِ إلحاحاً وقد شاهدتك وأنا أكتب فوق مكتبي من الطابق العلوي من مبنى الحرم فجئت مهرولاً اليكِ... كيف كنتِ ستعتذرين؟
- لا أعلم! حسنٌ... أنتَ محق!

وأطرقت برأسي... فهدأ غضبه ولانت نظراته...

- أنا كنت خائفاً عليكِ... يا فاتن... صدقيني...
- أعلم... أنا أشكرك... لقد أنقذتني...
- حقاً! أنتِ لستِ غاضبةً اذاً!
- كلا! لكنني شعرتُ بظلم ذلك الشاب، لأنه لم يكن يعلم...
- اوووه يا فاتن!

صرخ (فؤاد) بغضب...

- لا تبالي به... من هو ومن يكون! مجرد أحمقٍ يحاول التملق اليكِ وكسب مودتك! ألا تفهمين!؟...
- أولا يحق لي أن أتحدث مع أحدٍ هنا كأية طالبة!

نظرتُ إليه بتحدٍّ وذهول، فارتبك كثيراً... وحار جواباً..

- حسنٌ! هل يعجبك التحدث معه؟ هل هذا ما تريدين!!
- كلا! لكنني كنت سأتعذّر منه وارفض طلبه...
- كان ليلاحقك مرةً أخرى! ألا تفهمين... إنه يمهّد لذلك...
- وما ادراك انه لن يفعل الآن، تحدياً لك؟

أخذ فؤاد ينظر إليّ بغضبٍ مستعر وأمسك بذراعي بقوة وشدني باتجاهه... كانت نظراته الزرقاء ملتهبة كشعلة نار زرقاء..

- أنا لا أفهمك مطلقاً! لو كنتِ وافقتِ على طلبي... لما تجرأ مخلوقٌ على الاقتراب منك... كنتُ لأقطعّه بأسناني!! أنت جوهرتي... لن أسمح لأحد ما أن يقترب منك ابداً... اعرف نواياهم...

نظرتُ إلى عينيه الغاضبتين، ووجهة المتضرج دماً، وجسده المرتعش غضباً فشعرتُ بالحزن لأجله من كل قلبي... هتفت، وقد قررتُ البوح بالحقيقة له...

- أنا... أنا أعتذر لك لعدم ردي... لأني... لأنني دوماً ما شعرت اني زوجة ذلك (الحسام)... فكيف لي أن أوافق يا فؤاد! سامحني... وأخذت ابكي... (قررتُ أخيراً البوح له، لأنني خفت عليه من نفسه)...
- سامحني... لقد عقد الشيخ قراني عليه! أنا أخاف أن أفعل شيئاً يغضبُ الله... كيف أتزوج اثنين، قل لي بربك!
- فاتن! كلاّ... آركبي الآن... أنا اعتذر اليك... (قالها وقد هدأت ثورته)

كناّ نتجادل قرب السيارة ولم نفكّر في ركوبها كي لا يرى أحدٌ شجارنا... (ولو أنّ أحداً من الطلاب أو الطالبات لم يكن مهتما، ولم يفهم بالأحرى لهجتنا العراقية)... إلاّ إنني شعرت بمساسي لمركزه كأستاذ بشجارنا ذاك أمام الأخرين.. وأنا التي لم أُرد إيذاءه ابداً..

- فاتن! هل هذا هو هذا السبب اذاً!

قال ذلك عندما أجلسني بقربه في السيارة، فرفعتُ رأسي نحوه..

- واللهِ انهّ هو السبب لا غير!؟

وتهللتْ أسارير (فؤاد) وانشرح صدره... التفت إليّ بجسده وهو يشدّ حزام الأمان...

- فاتن! يعني انكِ توافقين عليّ بكل صفاتي وعلاّتي!! أنتِ تعلمين أني أكبركِ كثيراً وأنيّ...

نظرتُ إليه بدهشة...

- ليس فيك علات ابداً... انتَ مثالي!!
- حقاً! يا طفلتي الصغيرة... أو تدرين كم أحبك... أوَ تدرين...

- فؤاد! أنا لا أستطيع التحدث معك هكذا! أرجوك...
- لكنْ... انتِ لا تفهمين... سأذهب بك إلى أقرب مسجد أقامه المغتربون العراقيون هنا... وسأسأل الشيخ أمامك... سترين يا فاتن! إنكِ لستِ مرتبطة بذلك التافه أبداً! أنت حرّه...

كان عليكِ البوح بذلك لي من قبل... لمَ لمْ تقولي...

- لكنْ! كيف؟! أوَ من المعقول أن لا أكون زوجةً شرعاً له؟
- نعم! من المعقول؟ هل تريدين أن تجربي! هيا بنا سوياً...

وذهبنا إلى إمام المسجد وجلسنا قبالته... أنا وفؤاد... سلمنا عليه بعد أن انتهى من صلاته، نظر إلينا مستغرباً...

- هل تريدان عقد قرانكما...

نظر (فؤاد) إليّ مبتسماً... ثم أعاد النظر إلى الشيخ...

- أنا أتمنى هذا! ولكننا جئنا لنسألك مسألة شرعية...
- نعم! تفضل يا ولدي!
- (فاتن)! اشرحي له ما مرّ عليك أرجوكِ... بكل تفاصيله!

وتنفستُ الصعداء بينما كنتُ أجلس القرفصاء أمام الأمام وأشرح له ما مرّ بي مع عمي وولده وهو يهز رأسه مطرقاً إلى الأرض... ولمّا أتممتُ شرحي، زفرت بارتياح وأنا أشعر بأنني قد تحررتُ من سجن رهيب عميق، وأنّ روحي حرةٌ طليقة قبل أن يتكلم الشيخ ويُدلي بفتواه...

- بُنيتي! لقد أجمع علماء المسلمين والمذاهب المختلفة، أنّ تزويج البنت الباكر البالغ المالكةِ لزمام أمورها باطل شرعاً إن كان رغماً عنها... وأنتِ تقولين أنك كنتِ كأنما تُساقين إلى الموت، فهل يرضى الله لهذا الشيء أن يسميه زواجاً ويلزمك حقوقاً شرعية تجاه من لا ترغبين به مطلقاً! كلا!

نظرتُ إلى فؤاد بسعادة وابتسم هو لي والفرحة تغمر محيّاه...

- يا شيخ! الآن... أطلب منك تزويجنا...
- ماذا! فؤاد! ماذا!

- هل انتِ غير موافقة!!
- ماذا! كلاّ لم اقل هذا... لكنْ... خالتي... عمي... يجبُ أن نخبرهما أولاً! أوَ ليس كذلك...

أمسك فؤاد بيدي بقوة وهمس في أذني...

- هل تظنين أني سأترك العصفور يطير من القفص سريعاً... لقد سعيتُ جاهداً كي تأتي هنا معي...

إبتسم الشيخ وهو يتململ في جلسته...

- حسنٌ... هل أقوم الآن بتزويجكما بالصيغةِ الشرعية... أمْ أنك غير موافقةٍ أيتها العروسة...

وذُهلتُ من كلمات الشيخ بينما نظر (فؤاد) إليّ وهو يبتسم بمكر ...

- هل انتِ غير موافقةٍ على الزواج مني!
- ماذا! كلا! أنا موافقة! يشهد الله أني موافقة... فشدّ على يدي بقوة... وابتسمت بسعادة له... كانت هذه المرّ ة زيجتي الشرعية، زيجةً سعيدة، طربتْ لها روحي وسَعَد قلبي بزواجي من (فؤاد) الذي هو أقرب إليّ وأحبّ من فؤادي من بعد ربي... وأمسكنا بيدي بعضنا ونحن نخرج زوجين... لم أصدق نفسي وهتفت وأنا اكلم (فؤاد)...
- هل حصل ما حصل الآن!
- نعم! حصل ذلك يا حبيبتي! حصل... تركتني أتعذب لعامين آخرين لأجل شيء تافه! لأجل خوفك من زيجة باطلة شرعاً...

نظرتُ إليه معاتبة وأنا استند بكتفي إلى ذراعه القوية...

- فؤاد! أنا عشت بعزلة أغلب حياتي؟ فما الذي كان يدريني! كيف كنتُ لأستطيع البوح لك...
- اذاً! هل أشكر هذا الطالب المغترب الذي جاء إليكِ اليوم!
- نعم! أشكرهُ!

قلت ذلك ونظرنا إلى بعضنا البعض وضحكنا بسعادة... ركبنا السيارة سويةً...

- هل انتِ زوجتي حقاً الآن!

قال وهو يشدّ على يدي... نظرتُ إليه بسعادة..

- أنا لا أصدق ما حصل الآن بسرعة!! لكن! ماذا سنقول لخالتي!
- لا تفكري بهذا... فقط فكري بي أنا!
- وهل كنتُ افكر بسواك!
- الله! الله! زيديني من هذا الكلام اللطيف!
- هيا بنا... ستقلق خالتي... هيا...
- الآن! سأقول للجميع انك زوجتي، فلا يتجرأ مخلوق ما على التحدث اليكِ ودعوتك لشرب قدح شاي أو قهوة...

قال هذا وهو ينظر إليّ عبر مرآة سيارته الأمامية معاتباً وهو يعدلها بيده فابتسمت ولذتُ بالصمت... وفي المنزل... دلفنا سويةً... وقفنا أمام خالتي التي كانت تعدّ لنا طعام الغداء... والتي وقفت مذهولةً أمامنا فجأة...

- ماذا! ما بكما!؟ تكلما...

اقتربت مني وتلمست جبيني...

- هل أنتِ مريضة يا حبيبتي! قولي لي... تكلمي؟
- لا ياخالتي!

وشعرت بالخجل فأطرقت برأسي...

- أنّ جبينها يتصبب عرقاً... ما الأمر يا فؤاد! هل تشاجرتما؟! قالت معنفّةً ابنها وكانت هذه المرّة الأولى التي اسمع فيها خالتي تقول هذا الكلام لفؤاد، فعلمتُ أنّ قلبها كان يعلم بما يَكنّه قلب (فؤادها) الأكبر... وأنّها كانت تعرف بما بيننا ولو (نسبياً)...
- أماه! لقد أخذتُ فاتن إلى مسجد قريب لجامعتنا...
- نعم! حسنٌ...
- وهناك اعترفتْ له أنها كانت خائفةً من زواجها الذي تمّ رغماً عنها كعقد قران فقط من ابن عمها...
- نعم... وماذا...

قالت خالتي وعلامات الجديّة تكسو وجهها... واستعجلت ابنها...

- أكمل... ماذا حصل بعدها...
- قال لها أن زواجها ذاك باطل وأنّ عليها أن لا تخاف... وهنا...
- ماذا يا حبيبي! أكمل...
- استغليتُ هذه الفرصة ... وعقدتُ قراني عليها أمام الشيخ...
- حقاً!

صاحت خالتي بدهشة، فأطرقت برأسي أكثر إلى الأرض وتمنيتُ لو ابتلعتني من فرط الخجل...

- أنت لا تمزح معي! يا الله! ما أسعدني... الف الف مبروك! وأخيراً يا فؤاد... وأخيراً تحررتَ من صمتك وعذابك وقمتَ بالصواب! الف مبروك يا حبيبي! (قالت ذلك وهي تقّبله)...
- أمي! أوَ كنتِ تعلمين!؟ هيا بالله عليكِ! كيف ذلك؟!إصاح (فؤاد) بدهشة فقالت خالتي بذهول...
- عارٌ عليك! أنا أم! وأشعر بأطفالي... أكثر من شعوري بأطرافي... أنتم جزءٌ مني... تعالي يا طفلتي! أصبحتِ ابنتي مرتين الآن! الف شكر لك يارب!؟!

وقبلتني من جبيني ووجنتيّ وضمتني اليها بسعادة... شعرتُ وأنا احتضنها أنني بين ذراعي أمي فبكيت فرحاً وحزناً في آن ...

- أنتِ لستِ غاضبة منا لأننا لم نخبركِ!
- ماذا! هراء! فعلتما عين الصواب! سنحتفل بكما احتفالاً خاصاً وسنقيم حفل زفاف بعد عقد قرانكما في المحكمة...

((كنتُ في تلك الأثناء، وخلال مدّة إقامتي في الولايات المتحدة قد أخذت الجنسية الأمريكية وصرت مواطنه أمريكية))...

وكان ذلك بمساعدة خالتي وزوجها وعلاقاته في المجتمع حيث عاشا مع أبنائهما...

دخل هاني وأمير إلى المنزل في الموعد، عندما هتف (هاني)...

- أنني جوعان جداً يا أماه!
- صه! استمعا جيداً ! هناك خبرٌ سعيد في أسرتنا!
- ماذا ماذا ماذا!

قفز أمير فوق الأريكة يحمل تفاحةً أخرجها من الثلاجة، وتمدد فوق الأريكة وهو يقضم جزءاً منها...

- استمعا الآن! فؤاد وفاتن قد عقدا قرانهما في المسجد!
- الله! حقاً! وأخيراً قمت بذلك يا أخي! ألف مبروك! قفز أمير من فوق الأريكة وهو يحتضن أخاه بينما هاني ينظر إليهما ريثما ينتهيان، إذ قام بتقبيل أخيه وهو يشدّ على يده ويقول..
- وأخيراً قمت بذلك! أحسنتَ يا أخي... الف مبروك!
- الف مبروك يا (فاتن)!! أصبحتِ اختنا (مرتين) !! وتبادلنا النظرات أنا و(فؤاد)... كنتُ منذهلة...

صاحت خالتي وهي تقرص أذني (أمير) و (هاني)..

- كنتما تعلمان طيلة هذه المدة، هه!!
- كلا! مطلقاً!!

همس (فؤاد) إليّ وهو يبتسم...

- صدقيني... لم أقل لأحد شيئاً!!! (فزادت دَهشتي)...
- هل كنا واضحين هكذا للجميع...

ضحك فؤاد عليّ فضحككتُ أيضا على نفسي... وجلسنا سويةً كأسعد أسرة، اكتملت سعادتها بزواج ابنها البكر...

الفصل الثالث عشر

أقامت لنا خالتي حفل زفاف رائع حضَره المقربون والمعارف من المغتربين العراقيين في تلك الولاية... قامت خالتي بإهدائي قلادتها الذهبية وسوارها الثمين أمام جميع الحضور... كنتُ في غاية السعادة وأنا أنظر إلى فؤاد يجلس إلى جواري ويلبسني خاتمي الذهبي... عندما عدنا إلى منزلنا وصعدنا إلى غرفتينا... ودّعتُ غرفتي ووقفت أمام باب غرفة فؤاد... الغرفة التي لم أتجرأ على دخولها مذ كنتُ طفلةً صغيرة... نظر فؤاد بحنان إليّ...

- هه! ما رأيك... هل تتذكرين الماضي الآن...
- نعم! كنتُ آتي كل يوم إلى غرفتك وتهديني قطعة حلوى...
- أنا الآن أهديكِ روحي وحياتي كلها ملكاً لك...

وحملني كما في المسلسلات والأفلام الشاعرية ودلفنا إلى الغرفة لنبدأ حياة جديدة...

كانت خالتي في غاية السعادة، وكذلك أخوي (فؤاد)، اللذين حملاه فوق كتفيهما مع الأصدقاء ليقوما بعمل أهازيج عراقية تعلماها من الأهل والأصحاب...

وكان العرس في آية الجمال والروعة، أما ثوب عرسي فقد كان شبه خيال...

تخرجت من الجامعة وقررتُ إكمال دراستي كي أصبح أستاذةً جامعية... ولأنني كنتُ من الأوائل على قسمي، فقد وافقت عمادة الكلية على تعييني كأستاذة مساعدة... لكنّ حملي السريع أعاق عليّ إكمال طموحي فجلست في المنزل لأرعى طفلتي و فرحة قلبي الأولى والتي أسميتها مع (فؤاد) باسم (فرح)، كي تكون أيامها كلها فرحاً... كان (فؤاد) قد أجّل دراستي لأجلي بينما حظوت بإجازةٍ من العمل لأجل رعاية طفلتي الصغيرة... كانت خالتي سعيدةً جداً بتلك المولودة الجديدة التي ملأت حياتنا سعادةً وفرحاً... كانت تحمل عيني والدها اللذين أحببتهما من كل قلبي... تلكما العينين الحنونتين...

وكبرت (فرح)، وأخذت خالتي تُعنى بها لأجلي بينما عدتُ إلى الدوام مع (فؤاد) وأخذتُ أباشر دراستي العليا من جديد... وفي يوم من الأيام وبينما أنا وفؤاد عائدين من الدوام... إذا بنا نرى خالتي واقفة أمام صندوق البريد وهي لا تلوي على شيء... هرعتُ إليها، لأنّ قلبي خفق بشدةّ خوفاً من وجود مصيبةٍ جديدة تنغص عليّ سعادتي

- ما بك يا خالتي!
- سامحيني يا فاتن! لقد فتحتُ الطرد إذ لم أحتمل ورود أسمك فوقه دون ان أفتحه وخصوصا أنني اخشى عليكِ من ذلك الثعبان... لقد انتظرتكما طويلاً... واختنقت في المنزل فوقفت هنا انتظر!

وبكت خالتي فاحتضنتها...

- ما الأمر! قولي لي بسرعة...
- حبيبتي... البقاء لله... لقد مات عمكِ بعد مرض عضال وصراع شديد مع ذلك المرض الذي استمر لسنوات... هذه رسالةٌ منه اليكِ يوصي بها بإعطائك كل مستحقاتك، ويعترف لك بها أنه سرق راتبي والديكِ طيلة فترة وصايته عليكِ... وأعترف فيها بتزوير أوراق رسمية حاول بها سرقة حصتك من منزل جدك... أنه يطلب السماح منك... هاكِ اقرئي الرسالة...
- يا الهي!

شهقت بذعر وأنا أستلم الرسالة بينما قفزت فرح من داخل الحديقة نحو أبيها الذي احتضنها وأخذها إلى المنزل وصاح بي...

- هيا يا فاتن... تعالي معنا وأقرئيها لنا جميعاً..

عزيزتي وابنتي فاتن...

((أنا عمك... (فلان ابن فلان)... اعلن لك وبكامل قواي العقلية أنني قد سرقت مال اليتيم... مالكِ، وهو راتب والديكِ طيلة سبع سنوات، ولم أعطكِ منه ديناراً واحداً اللهم الاّ ماكنتُ أعطيه لزوج عمك لتشتري لكِ تلك الثياب المستعملة القديمة... أنا اعترف لكِ اني ظلمتك...

أتمنى ان تكون هذه الرسالة قد وصلت اليكِ، لأنني سأرسلها إلى منزل خالتك حيثما اعتقد أنّك ستكونين...

أتمنى أن تكوني هناك وأن تكوني بأمان وسلام، وإلاّ فأن الله لن يسامحني ابداً على ما فعلته معك... لقد ظلمتك واحتقرتكِ وعاملتك معاملة مزرية... وزوجتكِ ابني رغماً عنكِ لأجل الورث... فعاقبني الله بهذا المرض الذي أذلني... فهجرتني زوجتي وهجرني ابني وأنا الآن في المستشفى أصارع الموت... أتمنى أن

تصلك رسالتي قبل أن أموت ولو أنني أشك في هذا لأن الطبيب قال أنّ لي مهلة أيام قليلة قبل أن يتآكل المرض جسدي كلّه... أرجوكِ أن تسامحيني، فلقد أعمى الشيطان بصيرتي ونفسي الأمارة بالسوء... أرسلتُ في طلب المحامي لأعيد لكِ كل استحقاقاتك... ومن الله المغفرة...))

المذنب،

عمك.....

وبكيتُ وأنا اغلق الرسالة وأطويها بين أناملي...

شهقت خالتي وصاحت بفرح..

- سبحان الله! انظري يا ابنتي! لقد نصرك الله ولو بعد حين، وظهر الحق... الحمد لله يا ابنتي...

احتضنتني فبكيت بين ذراعيها ونظرت إلى فرح وهي تجلس فوق ركبتي (فؤاد) الذي كان ينظر بقلق إليّ...

- هل انتِ بخير يا حبيبتي...
- نعم... لا تقلق يا حبيبي... الحمد لله... الف حمد وشكر...

ورفعت نظري إلى السقف لأشكر الله في سري على كل شيء...

((شكراً لك يارب العالمين! شكراً على كل شيء...))..

الفصل الرابع عشر

كيف أصف فتاتي الصغيرة... وهل يوجد لها وصفٌ ما... لقد رضتْ أن تكون زوجةً لي وأنا الذي أكبرها بخمسة عشر عاماً... حسنٌ... أنا فعلاً بمقام أبٍ لها... حسنٌ يا أماه.. قولي لي ماذا أفعل الآن...

دفن "فؤاد" وجهه بين يديه وهو يتحدث في المطبخ مع والدته بينما هما ينظران عبر نافذته إلى (فرح) وهي تلعب في الحديقة...

- لماذا تقول هذا الكلام الآن يا ولدي... ماذا حصل؟!

قالت الأم وعلامات الامتعاض واضحة على ملامحها...

- أماه! انتِ لا تفهمين الأمر!! لقد أصبتُ بالسكري!!
- ماذا!

سقط الصحن من بين يدي والدة "فؤاد" بينما قفزت الدموع من مقلتيها... وتمتمت بألم..

- كيف! متى!
- أماه! بعد وفاة والدي وصدمتي به... لم أحدّث أحداً بالأمر، لكنّ علامات أخذتْ تظهر عليّ كالعطش الدائم والتعرّق وكثرة النهوض في الليل للذهاب إلى دورة المياه.. أهملتُ الأمر في البداية... لكنْ... أماه! انتِ تعرفين... أنا الآن مصابٌ بمرضٍ مزمن... ولستُ صغيراً يا أماه... لقد تجاوزتُ الأربعين...
- حبيبي، ولدي! العمر كلّه لك... من بقيَ معي سواك يا أغلى حبيب! لا حَرَمني الله منك... أيها الغالي...

احتضنتِ الأم ابنها وقبلّته بين عينيه..

- حبيبي الغالي...يا قرّة عين أمك... لقد تزوج أخواك واستقلاّ عنا وأنت تعلم أنني لا املك في الدنيا اغلى من (فرح)، حفيدتي الحبيبة التي حبّها ممتدٌ من حبك يا ولدي الغالي... أنت لم تتركني ولم تطلب يوماً أن تخرج من منزلنا هذا يا حبيبي، لا بأس عليك، ففاتن، هي ابنتي... وهي تحبّك... ويجبُ أن تعرف بمرضك كي ترعاك يا قرّة عيني...

اغمض (فؤاد) عينيه الزرقاويتين بألم وشدّ على قبضتيه بينما نهض منتفضاً والغضب يتطاير من عينيه...

- أعلم إنها تحبّني يا أماه! ولذلك تحدثتُ اليكِ... لأنها تستحقّ شخصاً أفضل مني... إنها تستحقّ أن تعيش بلا معاناة مع رجل مريض عمرها الباقي...
- انّ المرض شيءٌ ليس بأيدينا يا ولدي!! إنه ابتلاءٌ من الله ويجب علينا تقبّله... لا بأس يا حبيبي... عندما تعود (فاتن) من الدوام، تحدث إليها...

وما أن أكملتِ الأم كلماتها حتى كان باب المطبخ قد فُتح من الخارج ودلفت (فاتن) تحمل حقيبة يدها وهي ترتدي جلباباً طويلاً رماديّ اللون وربطة شعر سوداء... نظرت إلى خالتها وزوجها (فؤاد)... كان الوضع غير طبيعي كما أحّست..

- سلام!! ما الأمر! ما بكما...
- عليكِ السلام حبيبتي (فاتن)... تعالي اجلسي وارتاحي...
- لا يا خالة، أريد أن أصعد إلى غرفتي لأبدل ثيابي...

(فؤاد)، لماذا لم تكمل دوامك اليوم... بحثتُ عنك في غرفتك في الجامعة... لم أجدك! ما الأمر!! هل أنت بخير يا حبيبي!

اقتربت (فاتن) من (فؤاد) ووضعتْ يدها فوق جبينه..

- يا الهي! أنتَ محموم! لكنْ لمَ لمْ تخلع ثياب العمل!
- هيا يا فاتن! أريد أن نذهب إلى مكانٍ ما!!
- ماذا! الآن! ما الأمر يا فؤاد!!

أمسك فؤاد بيد فاتن وأخذها خارج المطبخ عبر الحديقة حيث تبعتهما نظرات الأم الحزينة، بينما قفزت (فرح) خلفهما تريدُ الذهاب معهما... فالتفت (فؤاد) نحو ابنته وانحنى نحوها مسكها بكتفيها الصغيرين..

- ماما وبابا عليهما الذهاب إلى مكانٍ ما لوحدهما وأريدك أن تبقي مع جدتك حبيبتي... كوني مطيعة...
- لكن يا بابا! قالت (فرح) محتجة بينما هرعت الجدّة لاحتضانها من خلفها حيث لفّت جسدها بذراعيها وهمست في أذنها كلماتٍ جعلتها تهدأ...

- اركبي يا حبيبتي...

همس (فؤاد) بصوت خفيض فرفعت (فاتن) عينيها نحوه و انقبض قلبها... لقد شعرتْ انّ هناك أمراً ما، وكيف لا تعرف وهي التي قد حَفِظَتْ انفعالات (فؤاد) أكثر من حفظها لمفردات اللغة الفرنسية عندما كان يعلمها ويتدارسان القواعد ويعدّان بحثاً عن الأدب الفرنسي – لأجل بحث الماجستير الخاص بها..

أوقف (فؤاد) سيارته في مكان ناءٍ عند أطراف المدينة و نظر إلى (فاتن) نظرة خاصة خفق قلبها لها..

- ماذا هناك يا (فؤاد)! لقد أرعبتني حقاً!
- حبيبتي! هيا بنا الآن... تعالي معي..

قال جملته الأخيرة بالفرنسية وهو يشدّ فاتن نحوه ممسكاً يدها، فشعرت (فاتن) بسعادةٍ خفيه... وكأنها عادتْ إلى تلك الأيام قبل زواجهما فانطلقت تتبعه... سار بها في ممر خفيٍّ بين الأشجار وهي تسير كالعمياء خلفه دون أن تعرف أو تحاول تكهن، إلى أين يأخذها، بل كانت تمسك بيده بقوه، لأنّ قلبها يخفق بحبّه وبالثقةِ به كل الثقة من بعد رب العباد... انفرجت الأشجار أخيراً عن منظر هائل صرخت له فاتن عجباً، فقد كان ممراً سرياً يؤدي إلى شلال عظيم كانت هي واقفةً أمامه مباشرةً وهدير الماء الصاخب يصمّ الأسماع وحولهما تلك الخضرةُ البديعة والطبيعة الرائعة... التفتت (فاتن) نحو (فؤاد)...

- ما هذا الجمال يا (فؤاد)!! يا للروعة! كيف تعرفُ بهذا المكان يا ترى وكأنك تحفظه...

التفت (فؤاد) اليها وشدها نحوه وهو يهمس لها بحنان..

- إنه مكاني السرّي المفضل الذي لم أخبر أحداً به حتى الآن، إلآّك يا غاليتي... تعالي معي... هيا، هيا...
- يا الهي! الشلال...
- لا تخافي! تعالي... ستبتلّين قليلاً!

سار الاثنان خلف الشلال فإذا بكهف واسع اخذ (فؤاد) يحث (فاتن) على الإسراع على السير فيه حتى انفرج الكهف عن سهل واسع مليء بالورود الصغيرة والخضرة الغّناء...

وهناك ركض فؤاد وفاتن خلفه حتى سقط تحت شجرةٍ وارفةِ الظلال واغمض عينيه بينما جلست فاتن تلتقط أنفاسها بجواره وهي لا تصدق كل هذا الجمال وكل هذه الروعة.. وشهقت لما فتح (فؤاد) عينيه الملونتين بلون السماء ..

- يا الله! ما هذا الجمال يا (فؤاد)! كيف لكَ أنّ لا تخبرني بهذا أو عن هذا المكان المذهل!

نظر (فؤاد) إلى (فاتن) نظرةً طويلة ثم دفعها بيديه إلى العشب لتضطجع إلى جواره...

- كنتُ آتي إلى هنا أيام مراهقتي... حبيبتي (فاتن)... انتِ تعرفين كم أحبك... ولأجل حبي لك... أنا مستعدٌ أن أدعك (حرةً) إن أردتِ الآن... الآن يا غاليتي..
- عّماذا تتحدث يا فؤاد! رَحماك يارب!

رفعت فاتن رأسها ووضعته فوق صدر زوجها بينما نظرت إليه بعتاب..

- ما هذا الكلام! هل هناك شيءٌ ما تخفيه عني...
- نعم! فاتن! أنا كهلٌ بالنسبةِ لك... ألست كذلك!
- كلا! من قال هذا!؟
- أرجوكِ دعيني اكمل! أنا اليوم اكتشفتُ إصابتي بمرض السكري... ومرضي من النوع الأول، أي إنني مضطرٌ لضرب ابر الأنسولين... أنا لم أعد ملائماً لكِ ولكِ حريةُ تركي لو أردتِ... أنت حرةٌ يا فاتن... ويبقى حبك في قلبي إلى الأبد!! ويشهد الله على كلامي...
- صه! كفى!

وضعت (فاتن) أناملها فوق شفتي (فؤاد) بينما قفزت الدموع من عينيها...

- أوَ هكذا ظَنك بي يا (فؤاد)... وأنتَ الذي أغدقتَ عليّ حبك وحنانك!... مستحيل ان أتركك ولا ارضى منكَ هذا الطلب!... انت حبيبي وستبقى إلى الأبد... لن يفرقنا الا الموت يا فؤاد... حبيبي هل تفهم!!

رفع (فؤاد) رأسه نحو فاتن وعدّل اضطجاعه بحيث مال نحوها وصار رأسها فوق صدره تماماً فضمها بين ذراعيه..

- ماذا أقول بعد الذي قلتيه..
- لا تقل شيئاً... يكفي أننا سوياً بين أحضان هذه الطبيعة الرائعة ... وأنا معك في الصحة والمرض والرخاء والشقاء، ولا أريد منك أن تظنّ بي الاّ خيراً...
- انتِ تعرفين ظنيّ بك يا فاتن!

قالها بعتاب وهو ينظر إلى عيني زوجته السوداويتين اللتين أحبهما وأسماهما عيني (الغزال)...

- حبيبتي (فاتن)، أنا لو لا معرفتي بك وخوفي عليك لما قلتُ ما قلتُه؟!
- وهل ستقبلُ تركي لك وهجري إياك أيها الزوج الحبيب!؟

قالت (فاتن) بغنجٍ ودلال ثم تابعت...

- هل تقبلُ أن أتركك وآخذ (فرح) بعيداً عنك!
- ماذا! لا... ابداً... سأموت!
- اذاً! لا تسأل هذا السؤال بعد اليوم مطلقاً... ولكنْ، قل لي!... عجباً لك، كيف لم تجلبني إلى هذا المكان من قبل!؟
- إنهّ سري الخاص!
- سرٌ عليّ أنا ! ما هكذا الظن بك!

ضحك (فؤاد) على كلام (فاتن) ونظر إليها بسعادةٍ وامتنان..

- فاتن! حبيبتي... هل تودين يوماً العودة إلى العراق! لطالما لاحظتُ الشوق في عينيك واللهفة على شفتيك لما يذكر احدٌ بلادك... وتتمنعّين عن الكلام، لكنني أشعر بكِ دوماً...
- حبيبي... لا حرمني الله منك!

تكورت فاتن بين ذراعي زوجها أكثر وكأنما تطلب المزيد من الحنان والرعاية، وكأنما تخشى أن تتركها تلكما الذراعان على حين غفلة... وظلت أنفاسها المتتالية فقط هي ما يسمعُهُ (فؤاد)...

الفصل الخامس
عشر

قفزت (فرح) وهي تصفق فوق أرض منزل والدي (فاتن)... كانت تشعر بحماس شديد وظلت تتلفّت يمنياً ويساراً وهي تنظر إلى أركان المنزل ولكنّ حماستها قلّت فجأة وتوقفت عن التصفيق لمّا رأت خيوط العنكبوت تملاّ أركان المنزل المهجور دهراً وكأنه منزل الأشباح، والتراب يعلو كل الأثاث المغطى بالشراشف..

كانت (فاتن) تقف مباشرةً خلف ابنتها عندما دلف (فؤاد) بعدهما ووقف واضعاً يديه فوق كتفي (فاتن)... كانت الدموع تنهمر من عينيها، فنظر اليها مشجعاً ومسح دموعها بيديه...

- كفى حبيبتي...
- (فؤاد)! هنا، هنا ترعرعت... حتى سنّ الثامنة! حتى أخذني عمي الظالم إلى منزله... هنا... هذه الأركان فيها طفولتي وحياتي! آه كم اشتقت إلى هذه الأرجاء!
- ماما! هذا منزل جدي وجدتي اللذين ماتا بحادث السيارة!
- نعم حبيبتي... ومات خالك معهما... خالك الأوحد...

قالت (فاتن) وهي تكفكف دموعها... وضع فؤاد الحقائب على الأرض ورفع رأسه نحو فاتن وقال لها..

- حسنٌ!! ماذا بعد! لا نستطيع المكوث هنا! المنزل في حالةٍ يرثى لها...
- حبيبي... أعرف!... سوف نذهبُ إلى فندقٍ ما للمبيت...

وفي هذه الفترة... عليّ العثور على مشترٍ لهذا المنزل ...

- ماما! مستحيل! هل ستبيعينه!؟
- اذاً! ماذا افعل به!! لقد ظل لسنوات طويلة عرضةً للأتربة، ولا أحد يسكنُ فيه... وأنا لاأريد أن أأجرهُ لأحد أبداً... فأنا بعيدةٌ عن بلدي ولا أضمن المستأجر...
- حسنٌ، حبيبتي... سأخذ سيارة أجرة وأضع الحقائب فيها...

قال (فؤاد) فأشارت (فاتن) بالإيجاب... ثم التفتت نحو زوايا المنزل ودلفت إلى غرفة نوم والديها تتأمل الذكريات وتبكي...

ذهبت إلى غرفتها وجلست تتأمل الألعاب التي علاها التراب والغبار فنفضت عن لعبتها الحبيبة التي جلبها والدها لها التراب ونظرت اليها وهي تبكي بينما تقدمت فرح نحو الغرفة بخوف وتوجس، فما أن أبصرتِ الألعاب حتى صاحت بفرح..

- الله! يا للروعة! هذه ألعابك يا أماه! دعينا نأخذها معنا...
- نعم! (قالت وهي تمسح دموعها)... سنأخذها! لأنني لم آخذها قبل سنين طويلة، عندما جئنا أنا وجدتك، والدة (بابا)، لنلمّ أغراضي ونأخذ صور عائلتي... كنتُ من فرط صدمتي وخوفي من رجوعي إلى منزل عمي لا أفكر الاّ بالهروب فقط... لقد هربتُ طيلة عمري هنا في بلدي، من بلدي ومن ناسٍ يدّعون أنهم (أهلي)... رباه!!...

وصمتت للحظات بينما كانت تتأمل (فرح) وهي تُخرج ألعابها من الدرج وتنفض الغبار عنها... شعرت (فاتن) بالحزن لأنها ستضطر لبيع منزل (والديها) الحبيبين الذي ظلّ صامداً طوال تلك السنوات، ولكنْ... من لها في هذا البلد... من بقيَ لها كي تترك المنزل لأجله... وهل يا ترى ستتمكنّ من العودةِ مرةً أخرى... كان عليها ان تأخذ قراراً قاطعاً...

- فاتن! لقد أجّرتُ سيارة (تكسي)، هيا أسرعي يا حبيبتي!
- اجل! اجل... هناك بعض الأغراض التي أريد حملها معي، هل يمكنُ هذا!!
- حسنٌ! هيا!
- نظر (فؤاد) بدهشة إلى (فرح) وهي تحمل عدّة ألعاب وتضمّها بشدّةٍ إلى صدرها، بينما حملت (فاتن) مجموعة ألعاب أخرى، وتبادلا النظرات هو و فاتن للحظات وانفجرا بالضحك بينما تابعا (فرح) وهي تسير أمامهما بجديّةٍ تامه وكأنها تنجز مهمةً صعبة... وساروا جميعاً نحو سيارة الأجرة وركبوا فيها نحو اقرب فندق للمبيت...

أثناء مدّة بقاء (فاتن) في ولايتها في العراق حيث وُلدت وترعرعت، كان عليها أن تحزم أمرها مع زوجة عمها وابنه، فكان لابدّ لها من الذهاب إلى منزل جدها بينما عرضت منزل والديها للبيع وكانت تنتظر المشتري الجيد لأجل هذا الغرض إذ قامت بالاستعانةِ بمكتب عقارات مشهور ووعدها صاحب المكتب بالعثور على مشتر جيد خلال فترة أقامتها في البلد...

لم يرضى (فؤاد) لفاتن الذهاب إلى منزل الجد بمفردها ...

- مستحيل أن أتركك تواجهين هؤلاء الناس بمفردك! فاتن!! لقد تركتك مرةً ولن أتركك بعدها أبداً...
- فؤاد!! أنها ليست مشكلتك! أنا اعرف كيف أتحدث معهما!
- مهما كان الأمر!! أنا معك فيه... هيا معي...

استسلمت (فاتن) أخيراً تحت إصرار (فؤاد) وذهبت معه إلى منزل الجد، حيث فتحتِ الباب عجوزٌ ظلت تنظر بدهشة وذهول واستنكار دون ان تبتعد عن الباب أو تسمح للزائرين بالمرور... قالت بصوت مستنكر...

- من أنتما! ماذا تريدان؟!

نظرت (فاتن) إلى تلك العجوز واستذكرت ملامح زوجة عمها (أيام زمان) لما كانت تصرخ بوجهها وتعذبها وتضربها، فانقبض قلبها... انتظرت للحظات قبل أن تعلن...

- إنها أنا يا زوجة عمي...

اتسعت حدقتا عيني تلك المرأة بينما أطلقت صرخةً مكتومة وأغلقت الباب بسرعة...

أخذت (فاتن) تطرق الباب بينما (فؤاد) ينظر إلى المنزل الكبير من الخارج ويتأمل مساحته وحديقته الكبيرة...

كانت (فرح) تتبع خطوات والدها...

فُتحت الباب مرةً أخرى... اطلَّ وجهٌ عبوس من خلفها..

- ماذا تريدين يا وجه الشؤم!
- آه! أنا من تقولين له هذا الكلام! إسمعي جيداً! انتِ من يجب ان تقفي هنا مكاني وتخرجي من المنزل لأنّ نصف الدار لي، هل تفهمين! وإن لم تتعاملي جيداً معي فسأطردكما انتِ وابنكِ منه! هل تفهمين... هه! هل تفهمين!
- فاتن!! فاتن، ماذا هناك...

*أمسك (فؤاد) بيد فاتن التي كانت تهدد بها موجهةً سبابتها نحو زوجة عمها واقترب منها وهو يحاول تهدأتها..

- حبيبتي... تعالي!! إنها لا تستحقّ أن تثوري لأجلها...
- إنها ظالمة! حسبي الله عليكِ يا ظالمة! حسبي الله ونعم الوكيل!

لم تشعر (فاتن) وهي تصرخ، بأنّ جارةً كانت تمرّ بقرب المنزل قد سمعت صوتها فاندفعت نحوها بلهفة...

- هل أنتِ (فاتن) التي هربتْ قبل سنوات كما سمعتُ الآن هذا الرجل يناديكِ أم أنني أتخيلُ هذا!! يا الهي!
- من! ماذا! نعم... أنها أنا... ماذا تريدين يا خالة!

قالت فاتن بامتعاض بينما لا تزال زوجة العم واقفةً عند الباب... تابعتِ المرأة كلامها...

- يا الهي! إنها أنا... زوجةُ السائق الذي أوصلك! أتذكرين! تعالي عندي... تعالي لأضيفك!
- لا اصدق هذا! فؤاد! هيا بنا...

وسارت خلف المرأة تاركةً زوجة العم في دهشةٍ وحنق...

دخلتْ منزل الجارة الذي لا يبعد سوى مسافة منزلين عن منزل جدها الكبير... دلفت واللهفة تحرقها وهي تتأمل رجلاً أشيب الشعر قد جلس لمشاهدة التلفاز وجهاز التحكم عن بعد بين يديه... التفت وهو ينادي زوجته...

- من هناك يا أم (أحلام)!! ماذا!
- هل تصدق من جاءت لرؤيتك!

دخلت المرأة وفاتن وزوجها يتبعانها مباشرةً وخلفهما (فرح) فوقف الرجل مذهولاً...

- عماه!! لا أُصدقّ أنّ الصدفة قد جمعتني بك، كما جمعتني بك في تلك الليلة... يا الهي... كم أنا سعيدة...

واندفعت (فاتن) دون شعور تقبّل رأسه... فصاح الرجل..

- استغفر الله! استغفر الله! ماذا تقولين يا ابنتي!
- عماه! إنها أنا (فاتن)! إبنة جارك الذي مات قبل أوانه، إبنة جارك التي أنقذتها من الموت والعذاب، وهي الآن سعيدة ولها ابنه وزوج رائع هو هذا...
- مرحباً بك سيدي!
- مدّ (فؤاد) يده ليسلم على الرجل العجوز الذي لاحت ابتسامةُ (فرح) فوق شفتيه، سرعان ما تحولت إلى صرخةٍ مكتومة...
- أو حقاً هي انتِ يا ابنتي! يا الله! رحماك!
- أرأيت يا أبا أحلام رحمة الله! أنها هي... هي! الحمد لله... الحمد لله!
- أوَ تعلمين ماذا جرى لي... وكم خفتُ عليكِ... وكم فكرتُ فيك يا ابنتي... حكيتُ قصتك لزوجتي ما إن عُدت... كانت أم أحلام... (اجلسا)... اجلسا... أم أحلام! أرجوكِ ... أعدّي لنا بعضاً من الشاي والكعك...
- لا يا عم! لا داعي للإزعاج!
- ابداً يا ابنتي! أنا سعيدةٌ جداً بلقائكِ...
- شكراً لكِ يا خالتي! الف شكر... اجلس يا فؤاد!! تعالي يا فروحة... اكمل يا عم.. نعم ...
- أنا كنتُ حزيناً جداً وخائفاً عليكِ... انتِ لا تعلمين ما جرى هنا... انقلبت المنطقة رأساً على عقب بحثاً عنك وأنا... لم انبسْ ببنتِ شفه... وكانت أم (أحلام) تستعلم وتستقي الأخبار من الجيران وتستفهم ماذا جرى مع منزل جدك من بعيد وبدون ان يشعر بها أحد... لم أخرج بسيارتي لفترةٍ طويلة بحجة أنها (عاطلة) وأني في وعكةٍ صحية.. لأتخلص من المساءلة... انتِ لا تعلمين... لقد تأوّل الجميع على عمك وعرفوا ما فعله معك... وأصبح الكل يكره ذكر منزل عمك وبالأخص زوجته وابنه...
- عماه! أنا كنتُ سبباً في إيذائك... أعتذر جداً...
- كلا يا ابنتي! على العكس... انتِ لا تعلمين... أنا كنتُ سعيداً كوني قد أنقذتك من براثن هؤلاء القوم... هددوا بقتلك وأخذوا يعدّون التبريرات الواهية التي لم يصدقها احدٌ من أهل منطقتنا...بأنكِ (حاشاك)... العفو منكما! قد هربتِ مع (ابن خالتك) إلى الخارج، وكلامٌ من هذا القبيل وهم لا يعلمون أنني أعرف حالك وأعرف كلّ ما مررتِ به..

نظر (فؤاد) بسعادة إلى (فاتن) وقبض على يدها وقال غامزاً العم العجوز..

- اجل! لقد هربت إليّ وليس معي... وأنا لا اعرف كيف أجازيك يا عماه! فلولا فضل الله بأرسالك لها، لما كانت (فاتن) العزيزة، أم (فرح) معي الآن... أنا أشكرك كثيراً...
- الشكر لله يا ولدي.. سبحان الله! لقد قدّر الله ذلك...
- فعلاً يا عم! سبحان الله... لو لا أن الله بعثَكَ لي... أوَ تدري، اني لحد هذه اللحظة، لم اعلم انك قريبٌ جداً لمنزل جدي... سبحان الله... أنا لا اعرف كيف أجازيك...
- ما هذا الكلام! تفضلي يا ابنتي!

قالت ام (أحلام) وهي تدخل بصينية الشاي والكعك و تقدم كوب الشاي لفاتن التي ابتسمت لها بامتنان...

- تفضل يا (فؤاد)... شكراً لك يا أم أحلام... لا اعرف ماذا أقول...
- يجب عليكِ أن تستعيني بمحامٍ ماهر وتشتكي على زوجة عمك... إنّ المنزل ملكك... لاحقّ لها الاّ جزء صغير من بعد موت زوجها!! ابنها سافر إلى الخارج ولا احد يعرف عنه شيئاً ولم يفلح لا في دراسةٍ ولا في عمل، وكان يأتيها دوماً في الليل متأخراً ورائحة (المنكر)- استغفر الله، استغفر الله، تفوح من فمه!! إنّه ليس ولداً صالحاً... وذلك جزاء المال الحرام والغصب...
- رحماك يارب! يعني (أنها).. هي تسكن بمفردها هنا!
- نعم!! هي تعيش لوحدها...
- اتركي الخلق للخالق يا ام أحلام! لا شأنَ لنا... المهم إن تأخذي حقك يا ابنتي فقط... ليس لنا شأنٌ آخر...
- وماذا تقترح عليّ يا عم... المحاكم والقضايا سوف تكون طويلة الأمد وأنا لا استطيع المكوث هنا طويلاً فلدينا عمل في الجامعة أنا وأبو (فرح) كما تعلمان... لا ادري...

زفرت (فاتن) بحزن... فهتفت المرأة..

- أنا مستعدّة للتفاوض مع زوجة عمك...
- ماذا!

التفت الجميع نحوها بمن فيهم زوجها العجوز، فأردفت..

- نعم! سوف اذهب لها وألقي اليها كل الكلام و أقول لها ما رأيك؟ هل تريدين محاكم وقضايا ام نبيع المنزل وبحصتك وحصة ولدك تشترين مشتملاً تعيشين فيه بقية عمرك، ثم إنّ هذا المنزل كبير جداً عليكِ كي تنظفيه لوحدك... ولا احد يعينك فيه.. مصاريفه كثيرة والكهرباء والماء وكل شيء يتطلب مالاً...

صمت الجميع لبرهة لمّا هتف (فؤاد)...

- ونعم الرأي... وأنا بانتظار ردك وهذه أرقامنا في هذه البطاقة سيدتي...

قال (فؤاد) هذا ونهض... فنهضت (فاتن) خلفه مندهشة وهي تحاول استيعاب ما يجري بسرعةٍ حولها..

- أرجو ان تتصلي بي إن جدّ جديد وسآتي مسرعاً...

أنا جدّ شاكرً لكما... أرجو المعذرة الآن فعلينا المغادرة...

التفتت (فاتن) نحو (فؤاد) وهما في غرفتهما في الفندق المطل على ضريح الأمام (الحسين) في كربلاء وهما في الطابق الثاني من الفندق حيث اختار (فؤاد) مكوث عائلته في ارقى فندق في تلك الولاية – حتى وان كان أغلاها...

- حبيبي!! لماذا خرجتَ بسرعة من منزل العم الذي انقذني قبل سنوات طويلة...

قالت ذلك وهي تقترب من فؤاد الذي كان ينظر عبر نافذة الغرفة إلى القبة الذهبية ويتأمل فن العمارة الإسلامية بدهشة لذلك الضريح الكبير والبناية المهيبة حوله...

أحاطت فاتن كتفي فؤاد بذراعيها من الخلف وأسندت رأسها فوق ظهره...

- ما بك يا حبيبي! أشعر أنك لستَ مرتاحاً..
- أنا أتذكر عهدي لك ان أحميك...

قال ذلك وهو يمسك يديها ليقبلهما ثم يلتفت نحوها..

- فاتن! صغيرتي... هل تذكرين تلك الليلة... في مطبخ والدتي.. عندما أقسمتُ لك ان أحميك... كانت عيناك تبرقان بأمل سعيد وكلهما ثقةٌ بي... لكنني، لما رأيت اليوم هذا العجوز وتذكرت تلك الأيام... آه يا فاتن... آه يا حبيبتي...

قال (فؤاد) بألم وهو يعضّ على شفتيه... ضمّ فاتن بين ذراعيه بينما هي تحاول أن تجعله ينظر اليها كي تقول له أنها لا تريده أن يشعر بالمسؤولية تجاه ما حصل لها عندما كانت صغيرة، إلاّ أن نظرات (فؤاد) كانت موجهةً نحو الفراغ وكأنما كان يحدث نفسه...

- آه يا حبيبتي!! أنا عشتُ في صراع كبير في تلك الأيام... والآن... وكأنني أعود إلى تلك المرحلة من جديد وأنا اذكرُ كيف تعذبتِ في العودة اليّ... كم كنتُ جباناً... لو أنني جئتُ اليكِ لما تحملتِ العبء وحدك... كنتُ جباناً فعلاً... وإلاّ

فكيف لفتاة في الثامنة عشر أن تخرج، لوحدها... وفي مجتمع كهذا... أنا أفهمك الآن يا فاتن لمّا عدتُ لزيارة ولايتك... ساعدك الله... كيف عشتِ هنا... وكيف قاسيتِ مع عمك وزوجته... كلّ ذلك... (وصمت لبرهة) ثم نظر إلى فاتن بعينيه الزرقاويتين نظرةً ثاقبة اخترقت روحها...

- كل ذلك بسببي أنا!
- فؤاد! كلا! كلا... يا فؤادي لا تقل هذا الكلام! فليحفظك الله لي... ولا فرقّنا الله ابداً... أنا ليس لي احدٌ سواك من بعد الله... انتَ كل أهلي وعائلتي ... حبيبي... لقد قدّر الله وما شاء فعل، فلا داعي لاسترجاع الماضي والآلام... حبيبي فؤاد... دعنا من كل هذا، ولنستعد لزيارة الضريح المقدس في المساء لتعرف (فرح) عن ولاية والدتها ودينها وتتعلم أموراً جديدة لا تعرفها ولن تعرفها وهي هناك ...

قالت (فاتن) ذلك وهي تقبل يدي (فؤاد) الذي نظر اليها نظراته الحنونة الزرقاء ثم همس لها بصوته الدافئ...

- فلْنَستعد اذاً يا حبيبتي...

الفصل السادس عشر

مكثنا في ولايتي (كربلاء) لمدّةٍ كافية استطعتُ فيها تصفية كل متعلقاتي من بيع وحقوق... أما عن زوجة عمي فقد رضيت بالعرض الذي قدّمته زوجة السائق (ام أحلام) وكانت تكابر في نفسها أمامي ولا تريد أن تظهر بمظهر الذليلة المغلوبة على أمرها... وفي أثناء بقائنا أنا و (فؤاد) هناك، ازداد قربنا من بعض وكأننا نجدّد شهر (عسل) لم نخطط له... وكانت (فرح) سعيدةً بالأسواق التي كنتُ آخذها اليها وكأنها تكتشف (قارةً) جديدة!!... وكلما كانت تمضي معي عندما نخرج من (الفندق)- تقول بسعادة:-

إنها مغامرةٌ جديدة في الشرق!

فأضحك في سرّي... وشعرتُ في تلك الفترة بسعادةٍ لا مثيل لها، لأنني عدتُ إلى جذوري... ولأنني قضيتُ وقتي متنقلة بين أرجاء المدينة وكأنني اودع كل ركن فيها واسلّم على كل شيءٍ وطأته قدماي قبل أن أعود مجدداً إلى ولاية زوجي وابنتي وسكني الجديد... رغم كل تلك السنوات ورغم مرور كل ذلك الوقت، إلاّ أنّ شعور الحنين إلى اصلي و ولايتي، كان يشدني شداً... عندما استلمتُ ثمن منزل ابي وأمي، شعرتُ أن جذوري قد اقتُلعت ولكن... كان ذلك الأمر رغما عني، إذ لا قرابة لي ترعاه ولا احد أستطيع استئمانه عليه، وهكذا قضي الأمر الذي كنتُ (أستفتي فيه)...

عندما عدنا إلى منزل خالتي، كان الجميع سعيداً بما أنجزتُه هناك وبذلك المبلغ المالي الكبير الذي حصلتُ عليه... جاء (أمير) لزيارتنا مع (صديقته) الأميركية التي لم تكن (خالتي) تحبها كثيراً- ذلك أنها كانت تعلم أن زواج ولدها بتلك المرأة لم يكن حقيقياً وإنما كان (أمير) يقول أنها زوجته أمام والدته كي تتقبل تلك العلاقة- أقول، عندما جاء أمير لزيارتنا وعلم بأمر النقود، فاتحني بموضوع مهم وذلك بعد أن فرغنا من تناول طعام الغداء سوياً... وكانت صدفةً جميلة قدوم (هاني) أيضا مع (زوجته)- الفعلية- لأنه تزوج فتاةً أعجب بها في الجامعة ورغم عدم إسلامها، إلاّ انه تزوجها وأنجب منها ولداً صغيراً قدما به معهما وكان يكبر فرح بعدّةِ أشهر ...

أشعل أمير سيجارة وهو يتكئ على الأريكة حيث أشار لي بيده الأخرى كي اجلس بجواره، ولكنّ (حيائي) المعتاد جعلني اجلس قبالته حيث كانت طاولة

صغيرة بيننا وضعت فوقها منفضة السجائر... نفث (أمير) دخان سيجارته، ونظر إليّ نظرةً ثاقبةً بعينيه السوداويتين.. وأردف..

- حسنٌ! ما رأيك يا فاتن بمشروع صغير، تديرين به أموالك؟
- ماذا! مشروع!؟ لا اعلم يا أمير... أنا لم أقرر شيئاً بعد..
- اجل! اجل، لقد سمعتك على المائدة لما كنا سويةً و لذلك... أنتِ ابنة خالتي وبمثابة أختٍ لي... وأمرك يهمني جداً... ولا أريد أن تذهب النقود سدىً فتصرفين منها وأنت لا تعلمين متى نفذت كلها!! هه! ما رأيك أن تكوني مديرة أعمال شركةٍ صغيرة للملابس، وباعتباري خبيراً بهذه الأمور... أعني الاستيراد والتصدير وتجارة الملابس، فلذلك أقول لك... لو سمحتي لي... سأكون مديراً تنفيذياً لشركتك الصغيرة هذه ومستشاركِ الأمين!

نظرتُ إلى (أمير) بدهشة وبقيت عيناي معلقةً بنظراته الثاقبة الواثقة بينما هو ينفث السجائر أمامي...

- هه! ما رأيك يا (قطر الندى)!!
- أوه يا أمير! أو لا تزال تناديني هكذا! كفّ عن المزاح...

قلت ضاحكةً بينما اردف (أمير)...

- اجل! سأظلّ أناديك هكذا... ماذا تقولين الآن... خذي وقتك في التفكير وشاوري (فؤادك)!هه...

قال هذا غامزاً بعينه اليسرى ناحية (فؤاد) حيث جلس واضعاً فرح فوق ركبتيه على مقربةٍ منا، فلاحت التفاتةٌ مني إليه، كانت كافيةً كي يشعر أنّ هناك خطباً ما، وأنني لستُ مرتاحة من أمرٍ ما، فهتف قائلاً..

- هه! (أمير)... كيف أحوال العمل هذه الأيام!؟

أكمل (أمير) نفث دخان سيجارته غير عابئ بسؤال أخيه الأكبر، حيث أنه لم يلتفت إليه، وقال معلقاً على كلامه باقتضاب..

- بخير!!
- حبيبي! هيا بنا... لقد تأخرنا...

قالت (صديقة) أمير الأميركية وهي تنحني فوقه بشعرها الأشقر الملتوي ورداؤها المصنوع من الفرو يلتف فوق عنقها حيث سقط جزء طويل منه فوق كتف (أمير) وذراعه... رفع رأسه إليها وهو يشدّ على ذراعها الذي أحاطت به رقبته من خلف الأريكة...

- اجل حبيبتي... سنرحل الآن...فاتن! فكري بالأمر، هه... سأنتظر جوابك... وكوني على ثقةٍ إنني لن أخذلك...

قال هذا وهو يضع بطاقةٍ صغيرة أمامي على الطاولة، تلقفتها لأجد فيها أرقام هواتفه... كانت بطاقته الخاصة بالأعمال...

- حسنٌ! أعدك أنني سأفعل ياأمير...

إبتسم (أمير) بفتور ثم نهض من فوق الأريكة وشدّ على يد (فؤاد) مودعاً ثم سلمّ على (هاني)، واحتضن والدته ورحل...

نهض فؤاد ليجلس بقربي... أحاط كتفي بذراعه...

- حسناً... ما الأمر! أخبريني..

لا أدري لماذا خبأتُ البطاقة بين ثنايا ثوبي الفضفاض ولم اخبر (فؤاداً) أيّ شيء بل اكتفيت بالابتسام له وانا أقول..

- إنه أمير... أنت تعرفه!! يظلّ يناديني (قطر الندى)..

قلت بارتباك ثم نهضت بسرعة من بين يدي (فؤاد) لأتظاهر أنني مسرعةٌ لمساعدة خالتي... كنت اعلم أنّ نظرات (فؤاد) تتبعني كشعلةٍ زرقاء لاهبة...

شعرت بلوم كبير لأنني لم أخبره وسألتُ نفسي عن السبب ولكنّ (القدر) لم يترك لي مجالاً لأُخبره... ففي صباح اليوم التالي وبينما كنا في الجامعة نمارس عملنا كمدرسّيْن جامعيين وبينما كنتُ أراقب تلك الفتاة الأجنبية التي كانت تتابع (زوجي) باهتمامها وتبدي إعجابها بشكل لافت به ونار الغيرة تنهشني... أقول- كنتُ على وشك عمل فضيحة في الجامعة بسببها... بدأ الأمر قبل ذهابنا إلى العراق وكنتُ قد لاحظت بوادر الأمر... نظراتها له في الردهة وتعمدها انتظاره

أمام غرفته، أو ذهابها إلى الغرفة بحجّة أنها تحتاج إيضاحاً في مادة الأدب الفرنسي التي يدرسها زوجي (فؤاد)...

صحيح أنّ (فؤاد) قد أخبرني ونحن سوية، في احدى المرات بينما كنا نتناول طعام العشاء في احدى المطاعم...

- حبيبتي... أنا لم أكن قسيساً ولم اكن راهباً!

قالها جواباً على سؤالي، عندما تجرأتُ فجأةً وسألته...

- حبيبي... كيف بقيتَ بدون زواج طيلة سبع وثلاثين عاماً!

نظر إليّ بعينيه الرائعتين وهو يقطب جبينه الأبيض ويعكف حاجبيه الأسودين... وأردف قائلاً..

- هل صدمتكِ الحقيقة يا غاليتي!! صغيرتي البريئة!

مدّ يده ليمسك بيدي لكنني سحبتها بغضب..

- ماذا تعني! هل كنتَ تعصي الله!
- لا لا لا ! اوه! فاتن... لا تذهبي بفكرك بعيداً، كلا!! لم أكن أعصي الله! أقسم بالله، كلا!!
- - إذاً! بماذا تفسّر كلامك هذا؟!...

أمسك يدي وطبع قبلةً صغيرةً فوقها وهو يرفعها نحو شفتيه

- غاليتي! انتِ جوهرتي الغالية! هل تغارين عليّ!؟
- طبعاً! أغار عليك... أوَ ليس من حقي!

رفع نظراته الزرقاء نحوي بمكر وقال ملاطفاً..

- أين كانت هذه الغيرة عندما كنتُ أستجدي كلمةً أو نظرةً منك؟! سبحان مغير الأحوال!
- لا تغير الموضوع! أجبني!
- حسنٌ! هناك شيء اسمه (زواج مؤقت أو عرفي أو سِّمه ما شئتِ)... لمدّة معينه.. أنا لستُ قسيساً كما قلتُ لك.. ثم... هنا... الأغراء، ووسائل الفساد، متاحة بشكل

كبير... ولذلك لم أتزوج و قررتُ عدم الزواج إلاّ بمن يختارها قلبي وأستطيع أنْ أجعلها أمينةً على حياتي وأسرتي... ثم... يا (فاتن) الحبيبة... أنا لم افعل شيئاً... هنّ من كنّ يلاحقنني... صدقيني... رفعتُ عيني إليه لأراه ينظر بمكر ومرح إليّ ثم ينفجر ضاحكاً...

- ما بك! لا تغضبي... لا لا... أين تذهبين..
- أنا عائدة إلى المنزل..
- أين! تعالي يا فاتن! كنتُ أمازحك... أرجوكِ... أو لستُ الآن ملكك بالكامل... أيتها الغيورة!
- من حقك ان تكون (دون جوان) بامتياز قبل الزواج وليس من حقي عندما علمتَ أنّ ابن عمي عقد قرانه عليّ أن يلمس شعرةً مني أو أن يراني! يا للأنانية...

كشرّ (فؤاد) عن أسنانه (كأسد) غاضب فجأة و شدني من ذراعي لأجلس قبالته من جديد... نظرتُ إليه بخوف..

- كنتُ لأُقَطّع من يلمسك!! أوَ تفهمين... أنتِ جوهرتي...
- فؤاد! أنا...
- قلتُ لكِ أنني كبير عليك وأنني لستُ مناسباً لكِ واعترفت لكِ ذات مرّة بعلاقاتي وانتِ تعلمين كل شيء فلماذا تفتعلين المشاكل الآن يا فاتن ونحن خارجان لنرفّه عن نفسنا قليلاً...
- لأنني أرى نظرات الأعجاب بك، أينما أذهب... هذا هو السبب قلت بغضب ثم أردفت دون الالتفات إلى نظراته وابتسامته..
- أنا في الجامعة، أتحمل رؤية الفتيات حولك يومياً... أتحملّ رؤية زميلاتك في العمل وهنّ ينحنين أمامك بأكتاف مكشوفة أو ثياب غير مستورة... وأنا... أنا التي لا اكلم أحداً الاّ للعمل، واهرع بسرعةٍ اليك... لأجدك جالساً وأمامك طالبة ترتدي ثياباً خليعة، أو أستاذة قد أظهرت ثلاث أرباع ساقيها! أولا يحقّ لي أن أتّقد ناراً! أو لا...

أمسك (فؤاد) بيديّ وأنا منفعلةٌ بالشرح ثم وضع اصبع سبابته على شفتي بهدوء وقال بهمس بصوت حنون..

- صه! إشش... كفى يا حبيبتي... كل ما قلتهِ عن هؤلاء الفتيات والنساء، لا يساوي عندي شعرةً من أميرة أحلامي، (فاتنتي)... انتِ ملكة (فؤاد)- فؤاد... ألا تفهمين...

نظرتُ إليه حينئذٍ بسعادة وشعرتُ بسلام داخلي وطمأنينة لم تزعزعها إلاّ تلك الفتاة الوقحة التي أعلنت بشكل جرئ وبمسمعٍ مني- وكأنما تتعمد إسماعي(إعجابها) بزوجي و حبها لشخصيته وقامته وكل شيءٍ فيه!!!

أعود لأقول...صحيح، أن (فؤاد)، زوجي، قد أخبرني عن حياته السابقة وكل علاقاته... ولكنني، لم أحتمل رؤية تلك الفتاة بمكياجها وتبرجها الصارخ وثيابها الضيقة الخليعة وهي تكلم زوجي وجهاً لوجه بينما أنا اقف كشبحٍ في آخر الرواق، لا وجود لي...

دخلتُ عليه بينما هي جالسةٌ أمامه، قد وضعت ساقاً مكشوفةً فوق ساق بينما اعلى صدرها كله تقريباً مكشوف للعيان..

شعرها الأشقر منسدلٌ على كتفيها وقد أمسكت كراساً بين يديها... ارتبكت نظرات (فؤاد) لما رآني قد دخلتُ غرفته فجأة...

- ماذا هناك! هل كل شيء بخير في المنزل!
- نعم! لا شيء هناك...

قلتُ بارتباك وشعرتُ بحمقٍ شديد... نظر (فؤاد) إليّ نظرات متسائلة فرددتها بنظرات عتاب بينه وبين الفتاة...

- يمكنكِ الذهاب الآن... سنكمل نقاش الموضوع مرةً أخرى..
- حسنٌ أستاذ!

قالتِ الفتاة الغضة هذا- ذات المرحلة الأولى في الجامعة- وهي ترمقني بنظرات الكراهية والحقد... نهض فؤاد من مقعده وأقترب مني...

- ما الأمر يا غاليتي!! إنها مجرد طفلة!
- كذلك كنتُ أنا!!

قلتُ بغيرةٍ شديدة... فزفر (فؤاد) بعصبية...

- ماذا أفعل لكِ... (فاتن) لا تكوني غيورةً هكذا...
- ليس الأمر بيدي! أرجوك... أنا أتعذب...

قلتُ ذلك ودفنت وجهي بين يديّ باكية فضمني فؤاد بين ذراعيه.. وقال مهدهداً..

- أرجوكِ... ليس هذا مكاناً لمناقشة هذه الأمور... سوف نتكلم في المنزل... حسناً... لا تبكِ أرجوكِ حبيبتي...

مسح دموعي بمنديله... رفعتُ نظراتي إليه ممتنةً عندما رنّ هاتف (فؤاد) الجوال وكانت (النغمة) مخصصة لحبيبة قلبنا (فرح) فنظر (فؤاد) إليّ بارتباك..

- فرح بابا! ماذا هناك! ماذا... جدتك! يا الهي! أنا قادم... حالاً.. نعم.. إسمعي... اتصلي بعمك... رقمه في الجهاز
- ماذا هناك يا فؤاد!

قلت بعصبية وأنا اكتم صرخة في صدري..

- أمي يا فاتن! أنها أمي!
- خالتي! ما بها... ما بها..
- بسرعة... اطلبي الإسعاف بينما أذهب إليها، بسرعة يا فاتن، إنها على الأرض بلا حراك! فرح لا تعرف ماذا تفعل...
- رباه! رحماك يارب!

صرخت بألم... أخذ فؤاد أشياءه الضرورية من فوق المكتب وخرج مسرعاً بينما ذهبتُ إلى مدير الجامعة لأشرح له الأمر وأخرج طالبةً الإسعاف..

ولكن... من كانَ عليّ أن أحزن عليه أولاً... خالتي التي أصيبت بجلطة نُقلتْ على اثرها للمستشفى قبل أن يصل (فؤاد)، حيث وجدتُ (أمير) مع (فرح) بقرب خالتي عندما وصلتُ المنزل برفقة الإسعاف... أقول، قبل ان يصل (فؤاد)، لأنّ فؤاداً لم يصل للمنزل... اتصلتُ عليه عدّة مرات واتصل (أمير) كذلك... ولكن بلا فائدة.. في نهاية النهار، اتصل احدٌ ما من جهازه فأجبت بهاتفي المحمول وأنا متلهفة

- حبيبي (فؤاد) أين أنت؟! لقد متنا خوفاً عليك..

تحدثتُ بلهجتي العراقية ولكنني صعقتُ عندما كان الردّ عليها صوتاً لا يشبه صوت حبيبي (فؤاد) ولا يمتّ له بصلة، وبلغة إنكليزية ذات لكنة أميركية..

- هل أنتم أسرة هذا الشخص!! ورددّ اسمه بصعوبة...
- نعم!

قلت بذهول وقلبي يخفق سراعاً...

- أرجو الحضور إلى المشفى... لقد كسر ساقاه بحادث سيارة...

سقط الهاتف من بين يدي ولم أشعر بذراعي أمير وهما تحملانني قبل أن أسقط على الأرض ولا صراخ (فرح) خوفاً عليّ ولا صرخة (هاني) الذي تلقف الهاتف مني ليستعلم مالذي حصل...

كنا ننتظر خروج (خالتي) من ردهة العناية المركزة، فإذا بنا نذهب سوياً إلى وحدة عناية الكسور، ذلك بعد أن أفقت بين ذراعي (أمير) الذي ظلّ يربت بضرب خفيف على وجنتي ويفتح زجاجة الكولونيا أمام أنفي...

سالتِ الدموع من عيني وأنا انظر إلى أمير بينما رأيت هاني بجواري والهاتف بين يديه...

- فؤاد! فؤاد! لقد تعرض لحادث سيارة! الهي!

وذهبنا جميعاً إلى غرفة (فؤاد)... كانت ساقاه ملفوفتين بالجبس ومرفوعتين إلى الأعلى... نظرنا من خلف الباب عبر النافذة الزجاجية لأنه كان غائباً عن الوعي...

- بابا! يا الهي! ماذا حصل يا(عمي أمير)؟!
- لا شيء يا حبيبتي... لا شيء..

الفصل السابع عشر

كم دعوتُ الله في سرّي وأنا أجلس قرب سريره في المستشفى كي يفتح عينيه الحبيبتين... لقد طالت غيبوبته لثلاثة أيام بلياليها، كنت فيها أتعس مخلوقةٍ على وجه الأرض، لا أعرف ما أفعل أو ما الذي عليّ عمله لأجل زوجي كي يعود إليّ... وتوسلت في صلواتي بربي أن يعود إليّ حتى وإن أحاطته نساء (الدنيا) وحاولت فتيات الجامعة كلها إغواءه... لم أعد افكرّ إلاّ بحنانه وحبّه ونظراته وكيف أني سأضيع بدونها جميعاً...

كنت جالسةً قرب سريره، أكلمّه وأنا أمسك يده ودموعي تسيل من عينيّ دونما شعور... لم أعد اعرف الليل من النهار، لأنني في كل الأوقات، لم أترك (فؤاد)، ولم أستطع مغادرة المشفى حتى أرى عينيه الزرقاويتين...

- أرجوك يا حبيبي... أرجوك! انظر إليّ وقل لي انك لاتزال معي... أرجوك يا (فؤادي).. فلقد تحطم (فؤادي) منذ دخولك المستشفى... لم أعد اعرف ما أريد، وتركتُ خالتي وفرح وتركتُ الدنيا كلها لأجلك أيها الغالي... أرجوك لا تتركني... لا تخف... خالتي بخير، فلقد أصيبت بجلطة خفيفة، قال الأطباء أنها ستكون بخير باستمرار العلاج والرعاية... أمير وهاني معها، وكذلك (فرح)... أما أنا... فاعذرني يا أغلى ما عندي في هذه الدنيا... أنا لا أعرف ما أفعل بدونك... انت حياتي كلها... تعلمتُ أن أعيش وأنا انظر كل صباح إلى عينيك... فعدم النظر إليهما معناه الموت يا حبيبي.. انتَ لا تعرف كم أحبك... أحببتك مذ كنتُ طفلة... منذ تلك الليلة التي ضممتني بحنان الأب بين ذراعيك، آه يا فؤاد... لا ترحل بعيداً عني، أنا أرجوك!! سأموت بعدك فمن لفرح!؟ أرجوك لا تتركني... ثم، ثم... من سيرعى هذا الطفل الذي بدأ يتكون في أحشائي... هه؟ قل لي، من؟!

قلتُ ذلك وأنا أمرّغ وجهي بيده الناصعة البيضاء ودموعي قد غمرتها عندما رفعت رأسي، فرأيت تلك الأشعة الزرقاء تنطلق من عينيه الحبيبتين، فأطلقت صرخة مكتومة...

- رحماك يارب! فؤاد حبيبي...

ضغط فؤاد على يدي بيده... كان ضعيفاً على الكلام... نظراته الزرقاء تكفيني، رفعت عينيّ إليه واقتربتُ من سريره أكثر وأنا غير مصدّقةٍ عودتهُ إلى الوعي...

- حبيبي الغالي... فؤادي... حمداً لله، الف حمد على سلامتك
- أنتِ...أنتِ...

حاول الكلام لكنه لم يستطع... تقطعت أنفاسه، لم أرَهُ بذلك الضعف من قبل فقبّلتُ جبينه ووجنتيه ثم وضعت أناملي فوق شفتيه... وضعت يده أسفل صدري وتمتمت هامسة...

- أجل! إنّهُ هنا... إبنك يا حبيبي... كنتُ أودّ إخبارك قبل تلك الحادثة... عندما دخلت غرفتك وكانت تلك الطالبة...
- ماذا حدث...؟!...آه! أمي... أمي...
- لا تخف... لا تخف! إنها بخير... المهم ان تكون أنت بخير أيها الغالي... شكراً لله الف شكر...

وأمسكت يده مرةً أخرى فرفعتها نحو شفتيّ أشبعها قبلاً... وفجأة جاءت الممرضة، فلما رأته مستفيقاً، أشارت إليّ كي أخرج وذهبت تنادي الطبيب...

أخبرتُ أمير عبر الهاتف مباشرةً، لأنني لم أصبر حتى الذهاب إلى المنزل، وبشرّته أنّ فؤاد قد أستفاق وبقيتُ اذرع ردهة الانتظار ذهاباً ومجيئاً منتظرةً قدوم (هاني) و (أمير)...

قام (أمير) و (هاني) بنقل (فؤاد) إلى غرفته بعد توقيع الطبيب على مغادرته وانتهاء فترة نقاهته في المشفى وذلك بعد مرور عدّة أيام... كانت عودة (فؤاد) إلى المنزل فرحةً كبرى لي ولخالتي الجالسة على كرسي مدولب لأنها لم تعد تستطيع القيام بعد جلطتها الأخيرة... قبلت الأم أبنها وهي تبكي لما ادخله (أمير) وهاني وهو فوق الكرسي المتحرك...

قفزت (فرح) نحو أبيها تحتضنه...

- حمداً لله على سلامتك يا ولدي! حبيبي(فؤاد)...
- أماه! قال هاتفاً وهو يحمل يدها ليقبلها...

أما أنا فقد كنتُ اعلى السلم أشاهدهما، وأنا مستعدةٌ للذهاب إلى الغرفة بسرعة قبل (أمير) وهاني كي أساعدهما على نقل (فؤاد) وإجلاسه فوق سريره...

عندما أكمل الأخوان عملهما وقبلاّ أخاهما وشكرهما على ما فعلاه ثم خرجا وأغلقا الباب، جلستُ أنا عند قدمي (فؤاد) المكسورين وهما مجبّرتان، ملفوفتان بالجبس...

- حسنٌ يا فاتن! هذا هو زوجك الآن... قعيد بلا عمل...
- لا تقل هذا! ستكون على ما يرام بعد مدّة...
- مدّة لا تقل عن سته اشهر مثلاً... أو قولي سنه!
- لا! لا تقل هذا يا رجل!
- يجب أن ادفع تكاليف علاجي أيضاً، فأنا محتاج إلى جلسات علاج طبيعي بعد أن يفكّوا الجبس عني... من أين سنتكفل بكل هذه المصاريف؟! يا ترى يا فاتن، لو متّ فرضاً، أو لم يكنْ ذلك انسب وأقل تكلفة!؟
- صه يا فؤاد!! لا تتكلم هكذا... لم اعتدك بهذا التشاؤم...
- وأنا لن استطيع الذهاب إلى الجامعة بعد الآن حتى استطيع النهوض مرةً أخرى، والجامعة لن تصرف عليّ نقوداً بالمجان وبدون مقابل.. هذا ونحن في صدد استقبال مولود جديد...
- (فؤاد)! أو لستَ فرحاً به؟!

قلت بتساؤل لأنني لم اره يكلمني بتلك (النبرة) من قبل...

أشاح (فؤاد) بوجهه عني وقال بصوت خفيض..

- لم أكن أتوقع مجيئَهُ بهكذا ظرف أمرّ به... إنه كان... وصمت لبرهة ثم أردف بغضب... كان ليكون هديةً رائعة من السماء لو كنا نعمل كلانا... من أين سأجلب لكِ ما تحبين من طعام ومن أين سأتكفل بمصاريف الطفل الجديد مع العلم أنّ (فرح) ستدخل المدرسة في العام المقبل... لو متُّ لكان خيراً لك...
- فؤاد! ما بك! لم أعهدك هكذا... كنتُ أدعو الله ليلاً ونهاراً كي يعيدك إليّ والآن انظر كيف تعاملني وتعامل نفسك... ماذا تريد الآن... دعنا نحيا هذه اللحظة الجميلة ونشكر الله أن عُدتَ لنا سالماً ودع الخلق للخالق... لن يتركنا ابداً...

أخذتُ أرعى (فؤاد) وأنهضهُ بيدي وأعيده إلى السرير وهو نائمٌ فوقة بينما أبدل له ثيابه وأنظفه كطفل صغير و أرعاه... كان ينظر إليّ بامتنان ويقبلّ يدي بين الفينة والأخرى ولكنّ مزاجه اصبح حاداً، وصار عصبياً بشكل كبير...

أخذتُ إجازة بلا راتب كي أرعاه، لأنه ما كان يمكن لي أن اتركه بمفرده على ذلك الحال... خالتي كانت قادرةً على الذهاب إلى دورة المياه عبر الكرسي المدولب الذي يمكنها تحريكه بواسطة يدها بعد أن تشحنه... لقد اشتراه (أمير) لأجلها... بدأت نقودنا تنفذ أنا وفؤاد، تلك النقود التي ادخرناها للزمن وكان عليّ أن افكر بحلٍ ما..

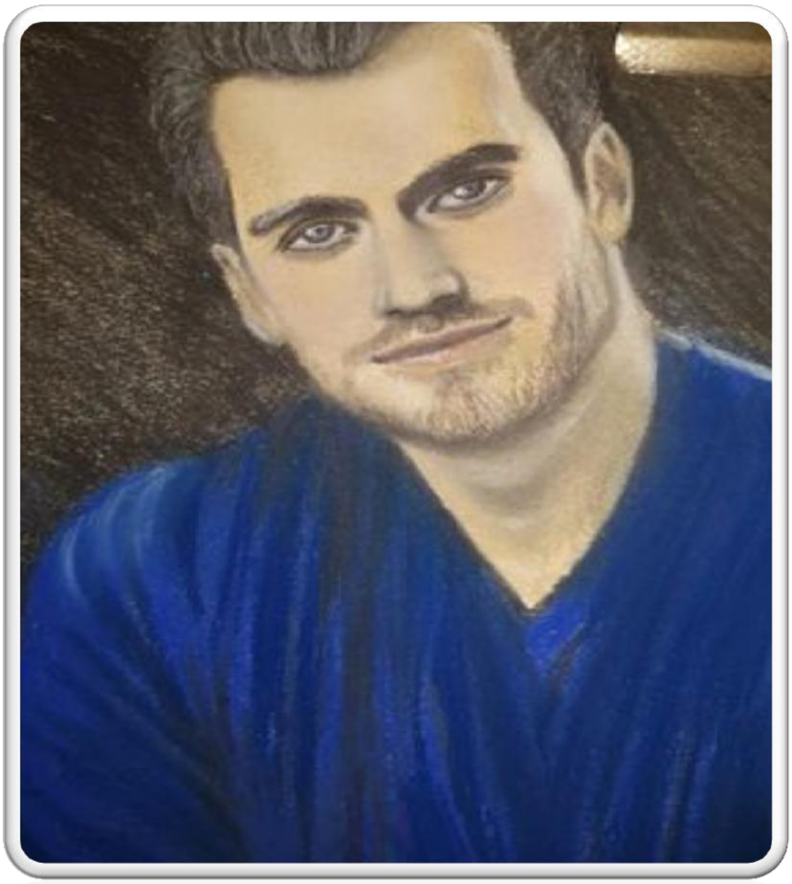

الفصل الثامن عشر

طالت فترة مرض (فؤاد) وشفاء ساقيه من الكسور بسبب مرض السكر... وكانت الأدوية غالية الثمن وكذلك جلسات العلاج الطبيعي بعد فك الجبس من ساقيه...

ذهبت إليه في احدى الأمسيات لأحمل له الطعام بعد أن أعددتُ الطعام لخالتي وجلستُ قربها أتناول العشاء بينما فرح تلعب قربنا، إذ أعلنت أنها غير جائعة... سألتني خالتي عن وضع (فؤاد) فأخبرتها أنّه لا يزال لا يستطيع تحريك ساقيه، وأمتقع لون وجهي كما أعلنت خالتي عندما سألتني...

- ماذا بك يا صغيرتي! لون وجهك امتقع فجأةً...
- لا أدري يا خالتي... حسنٌ... عليّ أن اذهب بالعشاء لأجل إطعام فؤاد... هل تحتاجينني في شيء يا خالتي الغالية...
- حبيبتي!! لا حرمني الله منكِ!! الهي... ماذا كنتُ سأفعل لولاك يا جوهرة هذا المنزل... انتظري لحظةً يا ابنتي..

قالت ذلك وهي تقترب مني ضاغطةً على مقود الكرسي... ضمتّ يديّ بين يديها بقوةٍ ثم أخرجت من تحت طيات ثوبها صرّةً من القماش وضعتها بين يديّ...

- خذي يا قرةَ عيني وفؤاد فؤادي...
- ما هذا يا خالة!

فتحت الصرة فإذا بداخلها نقود- دولارات أميركية-

- كلا! مستحيل أن أقبل هذا يا خالتي!
- صه! ولا تتكلمي مطلقاً.. أعلم انكِ في وضعٍ لا تحسدين عليه، وأنها أزمةٌ مؤقته ستمّر بأذن الله... لا تهتمي... كنتُ قد جمعّت هذا المبلغ لمثل هذا اليوم...
- خالتي... (أطرقت خجلاً وأنا لا أعلم ما أقول) وأمسكتُ النقود بين أناملي... كنتُ محتاجةً لها جداً..
- لا تقولي لفؤاد... اتفقنا...
- حسنٌ يا خالتي... أمرك...

أخذت طعام العشاء والدموع تتقافز من مقلتيّ وصعدتُ السلم، وأنا أتمنى أن تعود الأيام السعيدة عندما كنا أنا وفؤاد نذهب إلى الدوام سويةً ونركض فوق

مدرجات الحرم الجامعي ويدانا ممسكتان ببعض... دلفتُ إلى الغرفة... تململ فؤاد في السرير...

- جلبتُ لك العشاء..
- لا أريد طعاماً... لا أشتهي أي طعام!
- فؤاد! لماذا أصبحتَ صعب المراس هكذا! أنا متعبةٌ جداً... متى تريد تناول العشاء مثلاً... عندما أنام!!!
- من حقك أن تقولي هذا الكلام، نعم! انتِ متعبة... انتِ تتحملين لأجلي الكثير... لا أريد طعاماً ولن أريد... أرجوك أذهبي بطعامك وأخرجي خارج غرفتي...
- ماذا! ماذا تقول؟ فؤاد... ماذا دهاك... لكن... لمَ تعاملني هكذا!

قفزت الدموع من مقلتيّ...

- طبعاً، تريدينني أن أتناول الطعام وقتما تشائين أنتِ! لأنكِ متعبة... أو لا ترين أني لا أرى سوى هذه الجدران البائسة ليلاً ونهاراً وأنني أصبحتُ عاجزاً!

صرخ بغضب وحشي لم أعتده فيه من قبل... حاولتُ أن أتفادى غضبه وأن اقترب منه كي أهدئ روعه...

- حبيبي... أرجوك... ليس جيداً عليك هذا التعصّب... دعني أطعمك كما كنتُ أفعل... هه! هاك طعامك حبيبي..

قربت ملعقة الطعام من شفتيه فرفع يده وضربها بقوة سقطتُ أنا على أثرها على الأرض لأن يده صفعتني بدلاً عن الملعقة التي طارت في الهواء... سقطتُ من فوق الكرسي وكان ألم ظهري وساقيّ وحوضي كبيراً قبل سقوطي من فوقه... فما أن سقطت، لم أعد استطيع النهوض...زحفتُ نحو دورة المياه، وأنا غير مباليةٍ بصراخ (فؤاد) وكلماته وندائه... إنّه لم يعد يبالي بصحتي ولا بحالي... دلفت الحمام بعد أن فتحت الباب بيدي عنوةً ودفعتُ جسدي نحو أرضيّة الحمام فإذا بنهر صغير من الدماء يجري اسفل مني... قطعةٌ صغيرةٌ حمراء اللون تميل إلى السواد قد تكورت بجوار ساقيّ العاريتين... لم أعد أحتمل ألم ظهري فصرختُ بقوة، بل بأقصى قوةٍ عندي قبل أن أفقد وعيي فوق أرضية الحمام... (وكان صراخي بسبب ألمي النفسي أكثر من الجسدي)...

فتحت عينيّ لأجد نفسي فوق سرير في غرفة غريبةٍ عني تكهنتُ بسرعة أنني في المستشفى برؤيتي لتلك الأجهزة حولي وتلك الأنابيب المرتبطة بذراعي... جاءت الممرضة باتجاهي، نظرت إليّ... قاستْ نبضاتي ثم ذهبت ليأتي الطبيب و يعاينني... بعد دقائق طويلة استعدتُ فيها شريط أحداث ما حصل لي آخر مرة، سالتِ الدموع من عيني ووضعت يديّ على معدتي... أصبحتُ خاوية الأحشاء... لم يعد هنالك طفلٌ يكبر في داخلي... بكيتُ بحرقةٍ شديدة وتمتمت بغضب.. ((هو من قتله! إنه هو! المجرم، الجبان! إنه بائس!))..

جاءت الممرضة لترفع الأنبوب الملتصق بيدي وتعلقه فوق شماعّه طويلة ربط في أعلاها كيسٌ ابيض مليءٌ بسائلٍ ما ... وفجأةً سمعتُ أصواتاً مألوفة...اقترب مني كرسيٌ مدولب فوقه امرأةٌ احبها كثيراً جاءت وهي تبكي لأجلي... خلفها كان (أمير) و (هاني) مع زوجته... نظرتُ اليهم جميعاً بدهشة... حاولتُ الكلام، لكنّ خالتي بدأت..

- حبيبتي! حمداً لله على سلامتك... كفاكِ بكاءاً... أهم شيء سلامتك... لا تبالي بالطفل يا صغيرتي... لقد سمعتُ صراخ (فؤاد) فاتصلتُ على الفور بأمير... جاء أمير مسرعاً وأخرجك من الحمام... كان هو من أتصل بالإسعاف عندما وصل (هاني) مع زوجته... حمداً لله على كل حال يا ابنتي...

تبادلتُ نظرات الامتنان والعرفان لأمير... وبنفس الوقت شعرتُ بالحياء والخجل منه... أشحتُ بوجهي بعيداً محاولةً إخفاء دموعي بينما هتفت خالتي...

- حسنٌ! سنتركك كي ترتاحي... فروحة! قبّلي ماما...

قفزت (فرح) نحوي وكانت خائفةً من الاقتراب بادئ ذي بدء، ولعلها كانت متخوفةً عليّ بسبب وهني وضعفي... قبلتها وحاولتُ إحاطتها بذراعيّ... لكنني كنتُ ضعيفةً جداً فأحاطتني هي بذراعيها وقبلّت عنقي ووجنتي...

تركني الجميع بعد حين... أخذتُ أبكي من جديد... لم أصدّق أنني خسرت طفلي بعد أشهر طويلة من الحمل... فجأةً سمعت صوتاً يناديني... التفت... كان أمير بقربي...

- هل أنتِ بخير يا فاتن!

قال ذلك وهو يجلس على كرسي قبالة سريري... نظرتُ إليه بامتنان، فلقد كنتُ بحاجةٍ ماسة للتحدث مع أحدٍ ما كي أنسى آلامي وهمومي...

- نعم! شكراً لك... الحمد لله...
- فاتن!! هل لي أن أسأل كيف حدثَ الأمر... أم أنه تدخلٌ في شؤونك... سامحيني... ولكنّ الأمر ليس سهلاً أبداً...

قال (أمير) ذلك وهو مطرق إلى الأرض... رفعتُ عينيّ نحوه... حرتُ جواباً... ماذا أقول...

- لقد كنتُ منهكة القوى يا (أمير)... لم أعد أتحمل...
- ما كان يجب علينا تركك ترعين (فؤاد) بمفردك! الذنبُ ذنبي أنا... (هاني) عنده أسرةٌ والتزامات! لكن... أنا حرٌ وليس عندي عائلةٌ أرعاها... كان لا بدّ لي أن امكث في المنزل معكما كي أرعى (فؤاد)... اللوم يقع عليّ...
- لا تقل هذا يا أمير!! (قلتُ بألم وحزن)...
- إن لك أعمالك ومشاغلك... آه... أمير... على ذكر العمل... يا ترى!!... (وصمتُّ عن الكلام)... التفت إلي...
- ماذا يا فاتن! قولي... نعم...
- هل لا يزال عرضك قائماً!

قلتُ ذلك بخوف وتوجس، وحمدتُ الله في سرّي أنني لم أعبث بنقود منزل والديّ وجدي...

انفرجتْ أسارير وجه (أمير) وكأنني كنتُ انقذُهُ من ورطةٍ ما... صاح بسعادة..

- أنا تحت أمرك ولسوف ترين أنك لن تندمي...
- لكنّ شرطي الوحيد... أن ابدأ عملي معك وأنا بعيدةٌ عن منزل والديك!! أريدك ان تجد لي سكناً أنا وفرح...

نظرتُ إلى (أمير) فوجدتُ نظراته حائرةً مندهشة، لكنه استدرك ذلك بقوله سريعاً...

- طلباتك أوامر يا (قطر الندى)...

لأول مرة، بعد سنوات طويلة، سكنتُ بعيداً عن منزل خالتي الحبيبة، وكنتُ ألوم نفسي لأنني تركتها وهي بأمسّ الحاجةِ إليّ، ولكنّ (مقتل) طفلي الذي كان لا يزال يتكون في أحشائي جعلني غير قادرةٍ على أن أضع قدماً واحدةً على أرض منزل خالتي من جديد، أو على الأقل، في تلك الفترة... لأنني لم أستطع ذلك وكان الأمر كله يفوق طاقتي..

ولقد وفى أمير بوعده لي وبدأنا شركتنا الصغيرة لخياطة الملابس... أنا بنقودي، وهو بخبرته في التجارة وفي عالم التسوق...

استفدتُ من إجازتي من الدوام بتأسيس ركائز هذه الشركة مع (أمير) الذي كان وفياً جداً لالتزاماته تجاه العمل، على العكس من مخاوفي المستمرة وشكوكي تجاهه وخوفي من أنه كان يستغلّ نقود والديّ لمآرب خاصة لديه...

وبدأ عملي ينجح، وأخذت الثياب تُسوَّق، وتشتهر في السوق والطلب يتزايد عليها، فأصبحت (ماركةً) خاصة بنا أنا و(أمير)- شركتنا- ولم اصدق أنني غدوتُ امرأة أعمال في غضون أشهر... لقد كان الفضل من بعد الله يعود لأمير الذي كانت لديه معارف كثيرة في عالم الأزياء والموضة والملابس... فلقد جلب مصممي أزياء محترفين وعمالاً أكفاّء، وتكفلّ بكل صغائر وكبائر الأمور كمدير تنفيذي، عندما كنت أنا لا افقه شيئاً أبداً عن أيٍّ من هذه الأمور... وبدأت أنا ارتدي ثياباً صُنعتْ خصيصاً للمحجبات، حيث أصبحت شركتنا (ماركة) خاصة، للمسلمات المحجبات اللاتي يبحثنَ عن الأناقة في الرداء والموضة في وقتٍ واحد... مع مراعاة الشروط الدينية في الحجاب الإسلامي...

كنتُ أستعلم عن أحوال خالتي وفؤاد عن طريق (أمير) الذي أخبرني أنّ (هاني) قد عاد للسكن مع والدته ريثما يقوم (فؤاد) على قدميه من جديد... كان أمير يلمح لي بين فترة وأخرى عن اشتياق (فؤاد) لعودتي أنا وفرح... لم أكنْ أمنع (فرح) من الذهاب مع عمها لرؤية جدتها وأبيها ولكنني لم أستطع الذهاب مطلقاً... كنتُ أتألم كلما تذكرت صراخه عليّ... كلما كنتُ أحاول أن أثني ساقه، أو ألبسه ثيابه في آخر فترةٍ قبل مغادرتي المنزل... كان في الشهر الأخير- وقد مرت أربعة أشهر على مراعاتي له- نزق الطباع، صعب المراس، قد تحوّل من (فؤاد) الحنون، إلى شخص مجنون لا أعرفه، يصرخ ويشتم القدر، ويسبّ نفسه والدنيا كلها وهو يصرخ كلما تألم بسبب ساقيه..

في البداية كنتُ أهرب من الغرفة... ثم كنتُ أحاول نصحه، بالكلام اللين، فما أتلقّى إلاّ كلاماً جارحاً... كان يقول لي بالحرف الواحد...

- لقد أصبحتُ ذليلاً لكِ... أنا مجرد إنسان بائس... أخرجي واتركيني... لا أريدُ أن ترعيني... إذهبي لستُ بحاجتك... إذهبي عني ياليتني متّ و تخلصتُ من هذه الحياة!!

لم أستطع تركه ابداً، في البدايةِ كنتُ اغلق الباب وأنا أخرج من الغرفة فأبكي لوحدي كي لا تراني خالتي... وأبكي و أبكي، ولكن ما أن أسمع صوته ينادي عليّ أو على (فرح) حتى اقفز بسرعة وأصعد السلم لأرى ماذا يحتاج..

كانت أياماً مرعبةً سوداء حالكة السواد... قطعاً من الليل المظلم حلّت فوق نهار حياتي فأحالته ليلاً قاتماً... كلُّ ما كان يؤلمني هو تغير (فؤاد)... فؤاد الذي كنتُ أرى فيه كل حياتي ولم أتخيل حياتي يوماً بدونه... أصبحتُ أسير وأحيا كشجرةٍ خاوية بعيداً عن جذوري وحياتي...

"هل من المعقول أنيّ أنا (فاتن) نفسها"... هتفتُ وأنا انظر إلى نفسي في المرآة قبل أن أخرج لأرى (أمير) ينتظرني أسفل الشقة كي نذهب إلى ولايةٍ أخرى لتوقيع عقد تصدير ملابس من شركتنا إلى شركة أخرى في ولايةٍ ثانية... كنتُ قبل أن أذهب معه، قد رفعتُ قضية (طلاق) ضد (فؤاد) دون أن يعلم أحدٌ بالأمر...

قال أمير لي وهو يقود السيارة..

- لقد جاء اليوم مبلِّغٌ من المحكمة...

انقبض قلبي ما إن أعلن (أمير) ذلك بتلميحه... وساد صمتٌ بيننا لم يكسره سوى صوت (أمير) الذي قال متداركاً..

- لقد عاد (فؤاد) للسير على قدميه وهو بصحةٍ جيدةٍ الآن كما أنّ والدتي عادت إلى السير قبله كما أخبرتكِ سابقاً... لذا، لا داعي للقلق على (فرح)، فهي هناك مع والدتي... ستكون بخير طيلة جولتنا في الولاية الجديدة لتوقيع العقد...

عندما انتهت جولتي في الولاية الجديدة مع (أمير) بعد توقيع العقد، وتسويقنا لبضاعتنا الجديدة... كنّا في طريق العودة إلى ولاية (خالتي)... وقبل أن أدلف شقتي حيث تبعني (أمير) يحمل حقيبة سفري وشكرته على ذلك... وجدتُ أسفل الباب مغلفاً صغيراً فتحته... فإذا به قرار القاضي بتطليقي من (فؤاد)- بمباركةٍ خاصةٍ منه شخصياً- وأعني (فؤاد) الذي قام بتطليقي مباشرةً بعد أستلام قرار المبلّغ...

- أبهذه السرعة تخلّى عني!

قلتُ بذعر بينما وقف أمير لا يلوي على شيء...

- هل أنتِ بخير!!

أسندتُ رأسي إلى الباب ووقفت محاولةً ان لا أقع من فرط الصدمة... صحيح أنني قد قدمّت البلاغ وقمتُ بتلك الخطوة، لكنني توقعتُ ان يتصل (فؤاد) بي، أو أن يعتذر إليّ، أو أن يحاول أن يعيدني إلى حياته بطريقةٍ ما... ان يحميني من نفسي... أن يدلني إلى الصواب، فقد كنتُ تائهةً في بحر متلاطم الأمواج، حزينة على فقدان طفلي ولا أعرف ما العمل!؟

كنتُ أنتظر منه إصراراً وتمسكاً بي... لكنني ألفيتُ نفسي جد رخيصة عنده... تعذرت من أمير بحجة التعب من السفر وأخذت الحقيبة شاكرةً إياه ودلفت الشقة وأنا أبكي و ارتميتُ على الأريكة لا الوي على شيء...

أصبحت شجرة خاويةً و مقطعة الأغصان أيضاً... هكذا أصبحتُ أتخيل نفسي... حتى أوراقي قد تساقطت على الأرض وأخذت الريح تعبث في جذعي الخاوي...

- لماذا يا فؤاد! كيف ولماذا تعذبني هكذا... ما الذي فعلته لك! رحماك يا الهي؟!

أخذتُ أبكي بحرقة... وقررتُ قطع إجازتي كي اواجهه وأثبت له أنني أقوى منه وأنني لن أبالي به.. وأنني (رغم) حجابي- امرأةٌ يتمناها كل رجل... وإن كنتُ من قبل، لا أكلّم أحداً من الأستاذة الاّ بشكل عابر، احتراماً له، فلن أبالي بعد هذا به... وسأريه أنه ليس هو فقط (دون جوان) زمانه... بينما أنا نكرةٌ لا أحد يعرفني ولا يهتم بي...

وبالفعل... طبقّت الأمر، وعدتُ إلى وظيفتي كأستاذة للأدب الفرنسي- نفس اختصاصه- الذي دخلته لأجله وحباً له... رحّبَ الاستاذة وعميد الجامعة بعودتي وكذلك زميلاتي في العمل... عرفتُ من إحداهنّ، أنّ الجميع قد علم بخبر فقداني لطفلي، بسبب زيارة احدى الزميلات للمشفى صدفةً ومرورها بغرفتي عندما كنتُ طريحة الفراش... وتأسفتْ لذلك الأمر وقالت أنني لا أزال صغيرة والعمر كله أمامي أنا و(فؤاد) لننجب طفلاً آخر، فقلتُ بامتعاضٍ وغضبٍ..

- لم نعد متزوجين! لقد انفصلنا أنا وفؤاد...

نظرت إليّ تلك الزميلة بدهشة... لم أكنْ اجتماعيةً أو صاحبة حضور مع زملائي وزميلاتي في العمل، ولكنّ الجميع كان يحترمني ويقدّر عزلتي وانكفائي على ذاتي...

تألمتُ بداخلي كثيراً لأن الجميع بدأ يخبرني انهم آسفون لخسارتي طفلي... وكنتُ أرى نظرات العطف في أعينهم، فأزداد حنقاً على (فؤاد) وحقداً عليه...

كنتُ أمر بجواره وبقربه دون أن التفت إليه، بل تعمدتُ تجاهله اكثر مما كنتُ قبل زواجي منه، وكم كنتُ ماهرةً في (التجاهل)، الذي مارسته لسنوات في منزل عمي...

بدأتُ أدخل في نادي الأساتذة المخصص لأشرب الشاي أو أتناول الطعام... كنتُ قد سلمتُ أعمالي كلها لأمير في شركتنا الصغيرة، لكنني كنتُ افرغ نفسي لها بعد الدوام، لأنهك نفسي بالعمل و (أنسى نفسي)... ابنتي (فرح) كانت تأتي إليّ مرتين في الأسبوع، لأنها كانت تفضل منزل جدتها، فلم احتج ولم أطالب بشيء وذلك بسبب انشغالي بعملي وانغماسي بآلامي وأحزاني...

كنتُ في البداية أجلس بمفردي في غرفة الطعام المخصصة للأساتذة... ثم بدأت أتعرف على زميلاتي رويداً رويدا.. فبدعوةٍ من إحداهن للجلوس إلى طاولتهنّ، وجدتُ نفسي أتحدث وأتحدث وكأنني لستُ (أنا)... تلك الـ (فاتن) الانعزالية... وبدأت الزميلات يحببنني...

صرّحت إحداهنّ يوماً ونحن جالساتٍ نحتسي الشاي والمشروبات بعد وجبة طعام خفيفة...

- في الحقيقة! أنا لم أعلم انكِ لطِيفةٌ إلى هذا الحد...

كنت اجتنب التحدث معك، وخصوصاً وهذا الحجاب يلفّك بهالةٍ كبيرة من الغموض... لم تكوني تحدثين أحداً ولا تجالسيننا...

نظرتُ إليها وتألمت في داخلي، لأنني لم أرد أن أذكر (فؤاد) فقلت مازحةً...

- ذلك كله بسبب الزواج ومسؤولياته! أنا الآن حره!

ضحكت بمرح فضحكتِ الأخريات معي...

وبينما كنّ يضحكن إذ أقترب أحد الأساتذة من طاولتنا وقال بصوت رخيم...

- هل تسمحنْ لي بالجلوس معكن والانضمام إلى هذه الجلسة الجميلة...

نظرت احدى الزميلات إلى ذلك الأستاذ وقالت بتهكم...

- تفضل! إنضمّ إلينا...لمَ لا...

أخذ الأستاذ كرسياً وحَشَره بقربي كي يجلس إلى جواري... شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي وأحسستُ أنّ في الأمر شيئاً... لكنني تغاضيتُ عن ذلك الإحساس... بدأ الأستاذ بالكلام والمزاح ثم التفت إليّ قائلاً..

- هل أجلب لك شيئاً ما...
- لا شكراً... لستُ بجائعة...

عندما رفعتُ رأسي، وجدتُ فؤاداً قبالتي، جالساً إلى طاولة مع بعض الأساتذة... كان ينظر مباشرةً إليّ، فقلتُ متداركة...

- حسنٌ! هل يمكن أن تجلب لي معك بعض البيتزا والعصير...
- اجل، بكل تأكيد!!

نهض الأستاذ ونظرات الزميلات الضاحكة تتابعه ... غمزتني إحداهن...

- انه معجب جديد كما ترين!!

أحمرّ وجهي خجلاً...

- كلا! ليس الأمر كما تظنيّن!!

- عزيزتي! الكل يعلم انك الآن غير مرتبطة... فلم المكابرة!
- كلا! أنا لا أكابر... لكنني لا أظنه معجباً بي..
- ههههه! يا فتيات! هل تراهنّ على أنه معجبٌ بها..

ضحكتْ الزميلات ووافقنَ بسرعة...

- لا اصدق ما تقولينه!! يا الهي... لِمَ يأتي لامرأةٍ محجبة وأنتنّ أمامه بهذا الجمال وانتِ بالذات وهذا جمالك الخارق يجذب أي شخص اليك...

ابتسمت الزميلة بسعادة وقالت...

- أحييّ تواضعك وروحك الطيبة وأشكر مديحك، ولكنْ، إياكِ ان تقللي من قيمة نفسك... أنت جميلة أيضاً... بل ان حجابك يزيدك غموضاً وتعالي لأخبرك سراً...

وأخذت تتحدث بصوت خافت وهي تغمز بعينيها...

- انّ الرجال يعشقون الغموض في النساء!

وضحكت الزميلات معها بينما ابتسمتُ مجاملة معهن.. في تلك الأثناء جلب الزميل ما طلبته منه، فأخذتْ الزميلات بالتعذر والمغادرة، الواحدةُ تلو الأخرى...

الفصل التاسع عشر

أخذ ذلك الأستاذ يتعمد تناول الطعام برفقتي ويلاحقني عندما أذهب إلى مكتبة الجامعة... كان ذلك الزميل يكبرني بخمس أعوام فقط، ولم يكن طويلاً جداً مثل فؤاد بل كان أطول مني بقليل... شعره أسود بني وعيناه بنيتان كلوزتين... كان حنطيّ البشرة مربوع الكتفين مترهل العضلات، لديه (خال) بارز صغير أعلى شفتيه...

لم أكن أعيره اهتماماً في البداية... لكنّ ملاحقته المستمرة لي، وتعمدّه تناول الطعام دوماً معي، كل ذلك جعلني أستعيد ثقتي بنفسي من جديد... بدأ يحدثني عن نفسه وعن حياته بينما أنا لا أذكر له شيئاً عن نفسي... كنتُ أسمح له فقط بالجلوس وتناول الطعام لأغيض (فؤاد) الذي كان يتعمد الجلوس قبالة طاولتي كل يوم دون أن أنظر إليه لأزيده ألماً وحنقاً... شعرتُ في داخلي أنني أستغلّ هذا الأستاذ ولكنني لم أعِدْهُ أو أكلمه بشيء أو افرض نفسي عليه بأي طريقةٍ ما... قلتُ له ذات يوم...

- لماذا تلاحقني! الا ترى أنني لا أنفع أحداً...

رفع رأسه نحوي متعجباً وقال بذهول...

- وهل تناول الطعام هنا ممنوع! أنا مجرد زميل أتناول الطعام معك!؟ هل أضايقك بهذا...
- أنت لا تضايقني ابداً، ولكنني أحب الصراحة في كل شيء وإن كنتَ تعوّل على شيء ما بجلوسك هنا أو في حديقة الجامعة، أو في المكتبة، فدعني أقول لك:

أنت لن تحصل على شيء ما... فقل لي ما نواياك؟

- لا شيء! صدقيني! وإن كنتُ أضايقك فسأرحل...
- كلا! على العكس... نحن نجلس سويةً وبحضور زميلاتنا ولا غبار على ذلك، وأنا أعتذر منك لسوء ظني...

ورغم أنه لم يكن يفعل شيئاً سوى التحدث عن نفسه وحياته، وما مرّ عليه خلال اليوم بعد أن تنهض آخر زميلة لنا من على الطاولة... إلاّ أنني كنتُ أشعر بتأنيب الضمير لسبب لا اعرفه... هل كان ذلك بسبب (فؤاد) ام بسببه؟

وفي تلك الليالي الطويلة وأنا أسكن لوحدي مع (فرح) الصغيرة، كنتُ أستذكر أيامي مع (فؤاد) وكلامه العذب لي، وكأنّ ذلك الألم وتلك الذكريات السيئة تتلاشى رويداً رويدا من ذاكرتي... وكأني تبرأتُ من ذلك الطفل الذي قتلة (فؤاد) في أحشائي فقتل (حبي) له معه...

كنتُ أستذكر في كل ليلةٍ أضع رأسي على الوسادة فوقها، كلماته، همساته، وحنانه...

ولمّا كنتُ أفكرّ فيه، يعترض (عقلي) عليّ فأشعر بتناقض شديد وصراع داخلي عميق...

((لو أحبني فعلاً، لاتصل بي... و لَسَأل عليّ ولما تخلى عني... الهي... دلني على الصواب))...

وأبكي بمفردي وأنا أحتضن (فرح)...

وفي الجامعة... كنا نلتقي أنا وأياه يومياً، أنا و (فؤاد) ولكنني لم أكن أنظر إليه ابداً، ولعل ذلك كان سرّ مقاومتي... لأنني لو نظرتُ نظرةً واحدة إلى عينيه، فلربما كنت سأنهار فوراً بين ذراعيه...

بقيتُ أتعذب وأنا أفكر كل ليلةٍ فيه... قررتُ السفر كي أنساه، وبحجّة الترويج لشركتي الصغيرة في بلدان أخرى، اتصلتُ بأمير وعرضتُ عليه هذه الفكرة... وافق مرحباً بها لكنه أبدى نوعاً من الاعتراض من فكرةِ السفر بمفردي... كنتُ أريد الهروب من ذلك (الأستاذ) الذي أقحم أنفه في حياتي، والذي لم أكن أهتمّ بما يقول، وكأنّه يقص عليّ قصةً قديمة يعيدها كل يوم... لقد عرض عليّ الزواج ذات يوم... في نفس المكان... بينما كنا نتناول الطعام... قال لي دون أن ينظر إليّ:

- مدام فاتن!! أنا معجبٌ بك للغاية وأنتِ لا تقولين لي أي شيء عن حياتك... لكنني معجبٌ بك... أرجو أن تقبلي الزواج مني... أعتقد انك عرفتِ كل شيء عني...

رفعتُ عينيّ إليه مندهشةً... لم أجُبْهُ بشيء... لم يكنْ يهمني أمرُهُ إطلاقاً وذلك ما اكتشفته في قلبي عندما عرض عليّ الزواج... ادركتُ أني لا اعرف عنه شيئاً ولم اصغ يوماً إلى قصصه عن نفسه رغم تصنعّي فعل ذلك وإتقاني الدور!!

رغم معارضة (أمير) إلاّ أنني سافرتُ إلى (كندا) بعد أن تعاقدتُ مع إحدى أكبر شركات الأقمشة وصناعة الجلابيب والحجابات...

كانت سفرةً مرهقةً جداً، ورغم أنّ انغماسي في العمل جعلني أنسى أو بالأحرى (أتناسى)- فؤاداً- وكل حياتي الشخصية، لكنني شعرتُ بالإرهاق الشديد و الإعياء لقيامي بكل المهام وحدي وعدم قدوم (أمير)، الذي كنتُ أعتمد عليه في أكثر الأمور الإدارية والتنفيذية- ولقد شعرتُ بالدهشة والاستنكار لاعتراضه على صفقةٍ مربحةٍ كتلك، فتعذر بحجة أنّ البلد بعيد جداً وأنّ علينا الاقتصار في أعمالنا على داخل الولايات الأميركية!!

قررت المكوث عدّة أيام في ولاية (تورنتو) الكندية... وأخذتُ أتجول في أنحاء المدينة وأستمتع بمناظرها الخلابة... ورغم تمتعّي بتلك الأجواء الجميلة إلاّ أنّ قلبي كان حزيناً ولطالما شعرتُ أنني أقوم بعمل خاطئ لسببٍ لا اعرفه...

عندما عدتُ إلى شقتي في ولاية (كاليفورنيا) الأميركية... كنتُ فخورةً بما أنجزته لوحدي في مجال عملي الخاص، وتمنيتُ أن أقول لـ (فؤاد).. ((أنظر! أنا لم أعد طفلةً صغيرة تعتمد عليك!))..

وما ان ذكرتُ اسمه في سرّي حتى انقبض قلبي... نظرتُ إلى المرآة وأنا انزع ثيابي وقلت لنفسي وأنا أجلدها لوماً وتقريعاً..

((لقد تماديتِ هذه المرة يا فاتن! صحيح أنك مطلقة منه، وانك لم تعودي تعيشين معه... لكنك.. لكنك لا تزالين زوجَهُ شرعاً، وهو لم يطلقكِ بعد، لأنك (أنتِ) أنتِ التي لم تطلبي ذلك، ولقد قالها هو من قبل، ما ترغبين به، يلبيهِ لكِ... أنا على شبه يقين أنه هو الذي منع (أمير) من هذا السفر، فهو غير راضٍ عن سفرتك كلّها!! لأنه يخاف عليكِ... كيف فعلتِ ذلك وتحت أي شرعٍ أو عُرفٍ فعلته... كلّ ذلك... لأنتقم منه، لأعذبه، كما عذبني عندما قتل طفلي... كل ذلك كي تريه يا (فاتن) أنك قد رعيتهِ وعملتِ بما يمليه عليك الواجب كزوجةٍ وأكثر فما كان جزاءك إلاّ الجحود والأذى وفوق كل هذا وذاك... قتل طفلك وهو جنين في أحشائك!!))

ودفنتُ رأسي بين يديّ وجثوتُ على الأرض أمام المرآة باكية نادبةً حظي، وبقيتُ ابكي وابكي حتى سقطت على الأرض..

الفصل العشرون

لم أشعر ما الذي حصل لي بعد تلك الليلة، عندما أعتصر قلبي من شدّة إهمال (فؤاد) لي وعدم سؤاله عني، وانتظاري لمحة حنان أو عطف منه في لا وعي، بدليل، أنيّ سمحت لرجلٍ غريب أن يجلس قربي ويحكي لي يومياً قصصاً عن حياته، كي أغيظ (فؤاد) فقط! نعم! لقد اعترفتُ لنفسي أمام المرآة تلك الليلة بكل ماكنتُ أهرب منه... أنا لم أكن أهرب من أحد سوى (فؤاد) ولم اكن اهرب منه إلاّ كي يُعيدني إليه، لأنني لم استطع فعل ذلك بنفسي... إهماله وعدم سؤاله عني زادني حزناً وألماً وكمداً.. لقد سقطتُ صريعة الحمى دون أن أشعر لوحدي... كان آخر عهدي بوعي هو أتصال من (أمير) على هاتفي الجوال، استطعتُ فقط ضغط زر الإجابة، لكنني لم أقوى على الكلام... كانت قواي ومكابرتي، وكل ما حاولتُ أن أثبته أمام (فؤاد)، مجرد سراب في صحراء قاحلة، مجرد سرابِ ماء تخيلت أني سأرتوي منه حدّ الإشباع...

عندما فتحتُ عينيّ وجدتُ أني فوق سريري في شقتي... ولكنْ، من حملني!؟ من جاء لإنقاذي ورعايتي... نظرتُ إلى ثيابي، لقد أبدلت!! وكانت هناك منضدةٌ صغيرة قرب سريري وُضعتْ فوقها كمادات ووعاء ماء ونظرتُ إلى ذراعي فوجدتُ أنبوباً معلقاً من أعلى شماعةٍ يتدلى منها كيس ابيض فيه محلول ملحي وكان ذلك الأنبوب يرتبط في الأسفل بذراعي... اذاً فقد كنتُ أتلقى غذائي عبر أنبوب طيلة فترة مرضي، وتساءلت في سرّي :

((كم مكثت يا ترى!؟ كم بقيتُ على هذه الحال ومن رعاني! رحماك يارب! تذكرت الهاتف... إنه أمير بلا شك! لقد أنقذني عندما سقطت في الحمام وأسقطتُ طفلي والآن ينقذني مرةً أخرى! كيف لي أن اردّ جميله يا ترى!؟))..

وسمعتُ صوتاً يأتي من الغرفة الأخرى والتي كانت عبارة عن (المطبخ)، لأن شقتي صغيرة كما هو حال بقية الشقق هناك، ولم تكن منزلاً واسعاً ولا بيت جدي الكبير ولا حتى منزل خالتي التي اشتقتُ لرؤيتها ولم اكن استطيع الذهاب إليها، و أكتفي بالاتصال بها بين الحين وآخر...

- من هناك!؟ هل أنتَ (أمير)!؟

صحتُ بصوت واهن... تململتُ في فراشي محاولة النهوض، تذكرتُ وعكتي الصحية بادئ ذي بدء عندما هربتُ من منزل جدي، ومن بلادي وجئتُ إلى هذا

البلد وكيف انهارت أعصابي، وحملني (فؤاد) إلى غرفتي- وهي غرفة عمتّه- لتبدأ قصة حبي له وعذابي في آنٍ معاً.. لم أستطع النهوض وسقطتُ على السرير مرةً أخرى..

انطلقت صرخة ألمٍ مني دون قصد لأنّ ذراعي المرتبطة بالأنبوب آلمتني بشدة عندما حاولتُ النهوض... شعرتُ أني شجرةٌ خاوية من جديد، فجسدي الضعيف لم يعد يقوى على حمل عناء أفكاري وثقل هموم قلبي المتزايد...

- سلامتك!

سمعتُ صوتاً مألوفاً بالقرب مني وذراعاً تحمل رأسي لتُعيد وضعه بشكل صحيح فوق الوسادة... وفعتُ رأسي ونظرتُ إلى ذلك الـ (مُنقذ) الذي رعانيِ، فصُعقت... كان هو (هو)...

نظراته الزرقاء اخترقت روحي من جديد...

- سلامتك يا فاتن الف سلامه يا أم (فرح)...
- يا الهي! إبتعد عني!

أشحتُ بوجهي عنه صوب الجدار الملتصق بسريري... لم يغادر ولم يتحرك ابداً، بل أمسك بيدي التي حاولتُ سحبها من بين يديه، ولكن دون جدوى!!..

- إسمعيني يا فاتن!! لقد طال غيابك عن بيتك وعن غرفتك قرابة العام، أعتقد أنها فترةٌ كافيه للانتقام مني، كما فعلتِ عندما جعلتِ ذلك الرجل الغريب يجلس بجوارك طيلة الوقت عندما تتناولين الطعام... هل كنتِ ترضينَ أن أفعل هذا بكِ، وأن اجلب فتاةً بقربي أحادثها كلما تناولت الطعام!؟

لم استطع الإجابة بشيء فأغمضتُ عينيّ بشكل أكبر كأنما أحاول الهروب من كلماته وصوته ونظراته..

- سأتكلم لأدافع عن نفسي... لا أقول لك أني برئ... أنا أستحق أكثر من هذا!!... هل تسمحين لي ان أتكلم، أم أصمت وأذهب... هيا قولي انك لا تريديني فأرحل دونما رجعة... قولي...

قال ذلك بغضب وهو يصرّ على أسنانه وقد ترك يدي تسقط فوق الشرشف الأبيض... لم أستطع الإجابة بشيء... بعد ثوانٍ ثقيلة الوقع، خفتُ أن يغادرني بعدها، تمتمت بصوت خفيض..

- كيف عرفتَ بمرضي وكم مكثتُ وأنا على هذا الحال..
- الم يتصل بكِ (أمير)!!
- نعم!
- كنتُ أنا من قلتُ له ان يتصل! لم تجيبي! جننتُ عندها... وجئت بأقصى سرعة... ارن الجرس فلا تفتحين...

اضطررت لفتح القفل بمفتاحي... كنتِ على الأرض مكورةً كهرةٍ صغيرة، وكانت حرارتك عاليةً جداً...

انهمرت الدموع من عينيّ بينما هو يتكلم... وتابع قائلاً..

- هل تظنّين أني لا أعلم بما يجري، أو بسفرك أو بشركتك تلك، كل ما تفعلينه يقصّه (أمير) عليّ بالتفصيل، بل أنا الذي عرضتُ على (أمير) ان يساعدك في مشروعك هذا، لما جاء يطلب موافقتي، لأني أخاف عليكِ من ذئاب البشر.. أنت أغلى ما عندي يا فاتن!!! لقد رفضتُ سفرك! كيف تسافرين إلى بلدٍ آخر دون رفقتي، لوحدك!!
- دوماً ما تضع القيود عليّ! هل أنا طفلة!! دوماً ما تمحو شخصيتي وتُشعرني، أني غير قادرة على فعل شيء...

لقد ذهبت ووقعت العقد وروجتُ لشركتي هناك! لمَ لا أقدر!

- لكنني أخاف عليكِ! ماذا لو لحق بك مجرمٌ ما! مجنون!؟ لصٌ أو قاطع طرق!؟ مغتصبٌ جبان! ماذا أفعل عندها؟

لُذْت بالصمت عندما شدني إليه من تحت ذقني بأنامله عنوةً ووضع وجهي قبالته كي انظر إليه...

- هل نسيتِ أنك لا تزالين زوجتي! أم إنكِ صدقتِ تلك الورقة التي أرسلت اليك بها الطلاق عبر المحكمة! ثم... ثم! أين (فاتن) الخجولة التي كانت تخشى أن تتحدث (معي) وأنا ابن خالتها و في منزل واحد معها، لأجل عقد قران في دولةٍ

أخرى من شخص هي قد رفضته ولا تريده!!!! هه! أجيبي! وأنا زوجك شرعاً أمام الله والناس، تخرجين لوحدك وتقومين بما تشائين، تحت علمٍ مني ومرأى ومسمع، دون أن يلومك ضميرك هذا... أين دينك! أين التزامك؟ أين (فاتن)!؟

صاح بغضب!! فنظرتُ إليه وأنا أبعد أنامله عن ذقني بحنق وأشد ياقة قميصه الأسود بغضب...

- فاتن! أين هي فاتن، هه! دعني أخبرك اذاً...

لقد قتلتها انتَ لما قتلتَ طفلها وتركتها على أرضية الحمام تغرق بدمائها بمفردها جزاءاً لها لما فعلته معك طيلة أشهر طويلة وهي (حامل)!! لقد قتلتها بيديك يا (مجرم)! لا تسألني عن الالتزام والدين فأنا لم أعد أحتمل شيئاً فوق طاقتي وكنتُ أعلم مسبقاً انك قادر على منحي الطلاق شرعاً، ومنتظرة تلك اللحظة، لذا، فلا أظنّ أني قد اقترفتُ إثماً لعدم قدومي اليك وتوسلي تحت قدميك كي تطلقني شرعاً!!

كنت أتكلم بهذا الكلام وأنا أصرخ وأبكي، لكنّ الكلمات سقطت من بين شفتي لمّا رأيتُ (دموعه)، أقول، أني صمتّ فجأة، تذكرتُ مرةً بكى فيها أمامي، أو بالأحرى امتلأت عيناه بالدموع ولم يُرد أن يريني بكاءه فأشاح بوجهه عني...

كانت الليلة السابقة لسفري عندما أخبرني أني سأعود للعراق بمفردي لمّا كنت طفلة صغيرة في الحادية عشر من عمري...

والآن! ها هو يبكي مجدداً أمامي ولكنه لم يبعد وجهه ولم يكفكف دموعه التي زادت من بريق عينيه الزرقاويتين..

طأطأ رأسه أمامي وهو يبكي وصاح بصوت حزين..

- فعلاً أنا مجرم! سامحيني يا فاتن! أنا أستحق ما جرى لنا... أنا السبب في كل هذا وأعرف أنني أنا المذنب... عفوكِ عني...

وأسقط ما في يديّ... لم أعد أعرف ماذا أقول... رحماك يارب...

- فؤاد! أنا!... لم أقصد...
- كلا! إنها الحقيقة!... لكن دعيني أقول لكِ شيئاً أنتِ لا تعرفينه وقد ظننتِ بي سوءاً فأنت لمّا صرختِ في الحمام رميتُ نفسي على الأرض وذهبتُ اليك زحفاً ويشهد الله على كلامي! أنا من أتصل بأمير بعد أن نظفت المكان وغطيتك... أنا

لستُ بهذه النذالةِ لأدعك وحدكِ وأنتِ في تلك الحال، حتى لو كنتُ مقعداً... حتى لو تقطعتْ كل أوصالي، فأنا من المستحيل لي أن...

- صه! كفى!... كفى!..

وضعتُ أناملي فوق شفتيه... " رحماك يا رباه! لقد رعاني بقلبه وفكره طيلة تلك الفترة، ولم يكن قد أهملني مطلقاً بل كان ينتظر إشارةً مني كي أعود إليه، فيعيدني لأنه كان يشعر بعذاب الضمير ولم يتجرأ على أخذ الخطوة الأولى نحوي، على عكس ما ظننت وفكرت وبقيتُ أظنّ به السوء"

- حبيبتي فاتن!! ماذا!!
- كفى يا فؤاد! لقد ظننتك أهملتني وكنتُ انتظر مبادرةً واحدةً للصلح منك... مكالمةً، أو رسالةً أو أي شيء يعيد حبلَ الوصل بيننا.. لكنك التزمت الصمت طوال تلك الأشهر الطوال... لم تتكلم معي، حتى عندما طلب ذلك الرجل يدي للزواج!!
- ماذا قلتِ! هل تقدم لكِ!!

قال فؤاد بغضب وهو يصرّ على أسنانه، لقد تغيرّ كثيراً و أصبح عصبياً جداً، سألته بقلق...

- كيف حال مرض السكر معك يا (فؤاد)، لقد أصبحت سريع الانفعال ولم تكن هكذا من قبل..

قلت ذلك بقلقٍ شديد، فلانت نظراته وانفرجت شفتاهُ عن ابتسامة طويلة راضية... همس بسعادة...

- أوَ تخافين عليّ يا فاتن!؟

أبعدتُ نظراتي عنه سريعاً ولكنه امسك ذقني مرةً أخرى و قربّ وجهي إليه وهمس بحنانه المعتاد الذي اشتقت إليه كثيراً..

- هل أجدُ في قلب هذه (الفاتنة) أيّ حبٍّ تجاه هذا الرجل الكهل الذي أعياه المرض والبعد والشوق اليك...

نظرتُ إلى عينيه اللاهبتين فأطرقتُ بخجل...

- رحماك يا رب... لا تزالين تخجلين مني!! أنا زوجك أيتها الحمقاء!! أنا وأنتِ واحد... قولي لي أنك لا تريديني فأرحل! هل أرحل الآن... حسناً... وداعاً يا فاتن!! إن أردتِ الطلاق عند الشيخ فما عليكِ الاّ الاتصال بأمير وإبلاغي...

قال ذلك ونهض ليحمل سترته الزرقاء فوق كتفه وغادر الغرفة فعلاً عندما صحتُ دون وعيٍ مني..

- فؤاد! لا تتركني!

وفجأة، وجدتُ نفسي بين ذراعيه..

- عينا فؤاد وقلبه انتِ! لبيكِ مولاتي! هل عفوتِ عن خادمك المذنب ام لا!؟
- حاشاك! لا تقل مثل هذا الكلام!

قلت بدلال وأنا أنظر إلى عينيه الزرقاوين بينما هو يضمني بين ذراعيه، شعرت فجأةً بوخز إبرة الأنبوب فصحت بصوتٍ ضعيف متألمة منها..

- لا تخافي! هل تزعجك! لقد جلبت ممرضةً لك إلى هنا لأنك كدتِ تموتين طيلة يومين وليلة وأنتِ تهذين بإسمي..
- ماذا! أنا!

ضحك (فؤاد) وهو يرفع الإبرة من فوق جلدي فصرخت بألم..

- لا بأس... سأعقم الجرح لكِ... ها نحن ذا... أكملت... نعم... أين كنا!!... لقد كنتِ تهذين بإسمي طيلة الوقت، أنا مستعدٌ لأقسم لك، ولولا انشغالي بك لسجلتُ لك صوتك المتيمّ بحبيّ...
- كم أنتَ مغرور!؟! اذهب من هنا!
- هل أذهب فعلاً!!

قال ذلك وهو ينظر إليّ بمكر، فضحكنا سويةً...

وفجأة أحسستُ بجوعٍ شديد بحيث أنَّ صوت معدتي المخزي، قد سَمَعَه كلانا، أنا و (فؤاد)، فانفجر بالضحك عليّ...

- أنا سأعدّ لك عشاءاً خاصاً... يليق بعودتنا يا حبيبتي...
- ومن قال لك إنا قد عدنا!

- اذاً! ماذا تسمّين هذا!
- مجرد تعارف..
- حسنٌ... لنمثلّ إننا نتعارف وأنك دعوتني إلى شقتك التي أجرتِها بنقودي وموافقتي أنا، لأنها شقتي أصلاً إن كنتِ لا تعلمين... (وغمز بعينه اليسرى)

قال ذلك وهو ينظر إليّ بين الفينة والأخرى فأطلقت صرخة غضب ورميته بالوسادة التي كانت تحت رأسي...

- أنت! أنت! أولا يحقّ لي ان أحصل على شيء دون موافقتك وعلمك ودون ان يكون لك يدٌ من الأمر!!
- مطلقاً يا عصفورتي! ستظلين أسيرةً لي حتى يفرقنا الموت! انتِ من قلتِها مرة...

قال ذلك واختفى خلف الباب... ثم ظهر ثانيةً..

- لن أغيب عنك كثيراً حبيبتي... تسليّ بمشاهدة التلفاز..

قال ذلك وهو يعيد الوسادة خلف ظهري ويقوم بتعديل وضعي فوق السرير بحيث أستطيع مشاهدة التلفاز أمامي...

الفصل الواحد والعشرون

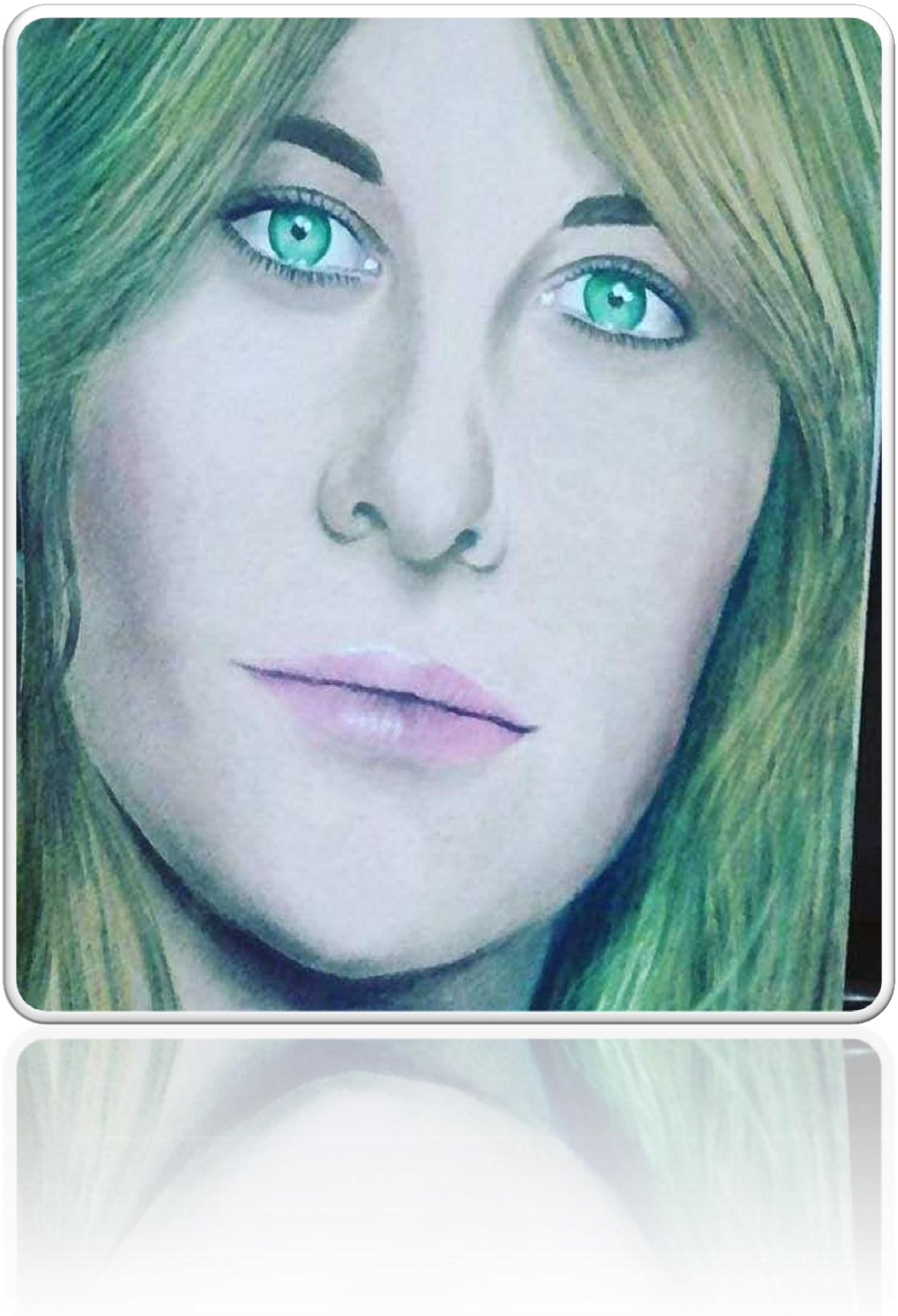

في صباح اليوم التالي، وجدتُ صينية الفطور بقربي، ورسالةً صغيرة فيها ملاحظة كتبها (فؤاد) بالفرنسية، أنه قد غادر إلى الدوام.. شهقت بسرعة، وأنا اشعر بالحنينِ إلى الدوام والجامعة، وكأنّ مرضي طال دهراً...

بدأتُ افكر وأنا مستلقيةٌ تحت الشرشف المخملي، كيفَ انّ هذه الشقة كانت أصلاً لـ (فؤاد) فبدأت أربط بعض الخيوط المبهمة سابقاً بالنسبةِ لي، فقد وجدت جهاز تسجيل وأشرطة (سي دي) وكتباً كثيرة، ولمّا سألتُ أمير عن الأمر كان يتلعثم ثم يتدارك الأمر بقوله أنه أجرّها من صديقٍ له وكان مستعجلاً السفر فترك تلك الأشرطة كأمانةٍ عنده... ضحكتُ مع نفسي ثم شهقتُ بذعرٍ مرةً أخرى... فلقد كان مفتاح الشقة بيد (فؤاد) طيلة تلك المدّة... شعرتُ اني كعصفورة غادرت قفصاً إلى قفص آخر كما قالها (فؤاد) لي فضحكتُ على نفسي...

((ما الذي أردتِ إثباته له أيتها الحمقاء!!))..

تناولت الطعام الموضوع في الصينية عن آخره، وكأنني لم أتناول الطعام منذ أشهر، أخذتُ أضحك على نفسي ولم اصدّق انّ مشكلتي مع (فؤاد) قد حُلّت وأني قد عُدتُ اليه مرةً أخرى!! وكأنَ صوتاً ما في داخلي يصرخ:

((هل حقٌ ما حصل لك البارحة، ام كان حلماً!!؟))

حاولت النهوض... كنتُ لا أزال ضعيفة، لكنني حاولتُ جهدي ان اقف واسرح شعري الأسود الطويل أمام المرآة... نظرتُ إلى وجهي، كم كان عمري حينها... (فرح) قد دخلت المدرسة، وأصبحت في السادسة، أما أنا فكنتُ في التاسعة والعشرين و (فؤاد) في الرابعة والأربعين...

وبعد مضي شهر من عودتي لفؤاد، أو بالأحرى، (عودته) إلي... وجدتُ نفسي حاملاً... كان (فؤاد) تلك الليلة جالساً فوق السرير وهو يتناول (الشاي) الذي أعددته له، وكان قد ورث تلك العادة من خالتي التي تحبّ شرب الشاي مساءاً، أمام التلفاز... نظرتُ إلى المرآة في الحمام ولم اصدّق نفسي... ((أبهذه السرعة! يالهي! لستُ مستعدةً لخوض تجربةٍ أخرى مع الحمل! أنا خائفة!!))..

ناداني (فؤاد) لما استبطأني، فقد قلتُ له اني ذاهبةٌ للحمام بسرعة وكنتُ مرتديةً ثياب النوم، ففتحتُ الباب بارتباك وأجبته بسرعة:

- لا شيء... سآتي فوراً...

حملتُ أنبوب اختبار الحمل بيدي والعلبة الخاصة به ووضعتها تحت رداء ثوبي ومشيتُ بسرعةٍ نحو السرير حيث كان فؤاد مستلقياً...

نظر إليّ من تحت نظارته السوداء بقلق..

- ماذا هناك يا فاتن! هل أنتِ بخير...
- حسنٌ... نعم ، نعم... لا شيء...
- قولي لي.. بسرعة، هناك خطبٌ ما!
- كلا! أنا كنتُ افكر كثيراً بخالتي طوال النهار، في الجامعة ولمّا عدنا من الدوام... أشعر أني لستُ بارةً بها، وأنني قد خذلتها بتركي لها وحدها في المنزل..
- حبيبتي! الم تذهبي اليها بنفسكِ وهي التي اقترحتْ علينا البقاء هنا في شقتنا ريثما تعود علاقتنا إلى سابق عهدها..
- نعم، نعم!! أجل، لقد قالت لي ذلك رغم إنها لم تكن سعيدةً في قرارة نفسها... إنها تحتاج لمن يبقى معها!!
- فروحة معها دوماً!!

هتف (فؤاد) بدهشة ثم أمسك ردائي ليبعده عن كتفيّ..

- حبيبتي، قولي لي ما خطبك...

وما أنّ فعل ذلك وظهرت ذراعاي العاريتان (الاّ من شريطين رفيعين من القماش كانا يمسكان ثوب النوم ذي اللون الأحمر)، حتى انكشف الأنبوب والعلبة بسرعة اسفل منه، حيث سقطت نظرات (فؤاد) الفزعة فصاح:

- ما هذا يا فاتن!

قرأ بسرعة عنوان الغلاف، أدرك الأمر بلمح البصر، نظر إليّ وكأنه غريق يستجدي الرحمة، فشعرت بالعطف عليه، كانت نظراته متوسلة حائرة..

- حبيبي... نعم! نعم!
- حقا! فعلاً! أنا لا أصدق! رحماك يا رب!

- رفع يديّ نحو شفتيه وأخذ يقبلهما بجنون..
- كم أنا سعيد بهذا الخبر! شكراً لك يا فاتنتي! أنا اسعد إنسانٍ في الوجود... شكراً لك يا الله، لن أفشل في هذا الاختبار مرةً أخرى حتى لو تقطعت أوصالي..

قال ذلك ثم توقف ليتمتم مع نفسه وكأنه يحدّث الفراغ..

- لقد تعلمتُ الدرس ياربي... أرجوك ان لا تعاقبها بسببي... وضمني بين ذراعيه وهو يتكلم كالطفل الذي عثر على لعبته...
- أنتِ لا تعرفين كم عانيت!! لقد عاقبني الله لسوء خلقي وفشلي في استيعاب ابتلائه لي... لقد كفرتُ نعمته... كلّ ذلك مرّ عليّ كشريط سينمائي وأنا احمل طفلي الصغير عندما نظفت الدماء يوم سقطتِ بسببي و أجهضتِ طفلنا... أنتِ لم تريه! كنتِ قد غبتِ عن الوعي... ولقد أحبك الله إذ لم تشهدي ذلك المنظر...

أدمعت عيناه فبكيتُ معه... تابع هو بألم شديد... كنتُ أناديكِ وأنا ألملم أشلاء طفلي... فهذه الدماء كانت غذاءه، كم أنا مجرم سفّاح، وهذا جسده الصغير، قطعة لحم قد تكونت... سبحان الله يا فاتن! كان ولداً كامل الخلقة، جميل الهيئة... ولعله كان سيشبهني، لا اعلم... ذلك كلام والدتي التي بكت عندما وضعته أمامها... قالت لي أن أدفنه في حديقة المنزل... وكذلك فعلت، كي أتذّكر دوماً سوء فعلتي وعملي القبيح.... رحماك يارب... شكراً لجزيل عطائك..

قال ذلك وبكى وهو يدفن رأسه فوق صدري فضممته إليّ وبكيتُ معه وأنا أتمتم بسعادة..

- شكراً لله... سيعوضنا الله بابنٍ آخر، أنا على يقين..
- كنتُ أناديكِ يا فاتن وأنتِ لا تجيبين! لقد شعرتُ أنّ القيامةَ قد قامت وأنني سأبعثُ للحساب من هول صدمتي لما جرى... كيف لي، بعد كلّ ما رأيت، أن أكلمك... أو أن ارسل لك رسالةً ما، ماذا أقول لكِ فيها: آسف يا فاتن لأني قتلتُ طفلنا!! آسف يا فاتن لأني أسقطتك وضربتك وأنتِ تطعمينني!!... سامحيني حبيبتي...
- كلا يا فؤاد! كلنا يُخطئ! وأنا أيضاً أخطأتُ بحقك كثيراً ولم أرعَ حرمة زواجنا بسفري بمفردي وعدم قدومي لمنزل خالتي لرؤيتها والتفاهم في أمرنا... لا بأس... لقد انتهى الأمر... ولله حكمةٌ في كل ذلك...

- كم أنتِ رائعة يا حبيبتي الغالية...

قال ذلك وهو يقبلني من جبيني ففعلت نفس الشيء معه..

- فليحفظك الله لي يا أبا (فروحة) وحبيبي وكلّ ما لي في هذه الدنيا... أحبك يا (بابا فؤاد)..

قلتها بدلال فضحكنا سويةً وذابت روحانا مع بعضهما البعض فلم يعد يفرقهما شيء أبداً..

عدتُ إلى منزل خالتي بقرارٍ شخصي مني، ذاك أنني لم أحتمل ترك خالتي تحيا بمفردها وذهبتُ لزيارتها بادئ ذي بدء مع (فؤاد) عندما أعلنتُ لها عن خبر حملي الجديد، وعن خبر عودتي إليها، فأخبرتني أنّ عليّ هجر غرفتي في الطابق العلوي خوفاً عليّ من الإجهاض بعد التعب...

وحضّرت لي غرفة هاني كي ننام فيها أنا وفؤاد بينما نقلتُ غرفة (فرح) قربنا، مكان غرفة (أمير) وكانت في غاية السعادة بذينك الخبرين...

الفصل الثاني والعشرون

عندما وضعوا ذلك الطفل الصغير حديث الولادة بين ذراعيّ، وفتح عينيه الزرقاوين لينظر إليّ، لا أستطيع وصف تلك المشاعر الجميلةِ التي انتابتني... فكأنّ الدنيا كلها أصبحت ملكي، أو أنني أصبحتُ أسعد امرأةٍ في الكون... أسرعت خالتي بتلقفّه من بين يديّ لتعطيه لوالده الذي كان في حالةٍ من الذهول وعدم التصديق فأخذ يناغيه وهو يقول: ((مرحباً يا صغيري! ماذا نسميك يا ترى!؟ أنتَ وسيم جداً يا حبيبي... تعال معي، فأنتَ على سرّ أبيك!! سأسميك (فارساً) على اسم خالك المتوفي رحمه الله!! ما رأيك يا فاتن؟!))

قال ذلك وهو ينظر إليّ بعينين دامعتين من فرط السعادة، فقفزت الدموع من مقلتي وقلتُ بحماس:

- نعم يا حبيبي! نعم الرأي رأيك! إنه أسمٌ رائع!

وما أن قلت كلماتي تلك حتى دلف غرفتي ((أمير)) و ((هاني)) وهما يحملان أكاليل الورد بين يديهما وأخذا الطفل الصغير يحملانه بينهما وهما يضحكان...

- أنه يشبهك يا (فؤاد)!

قال (هاني) ضاحكاً...

- هكذا يفعل الحبّ يا هاني!!

هتف (أمير) غامزاً أخاه (فؤاد) الذي انفجر ضاحكاً وهو ينظر إليّ بسعادة..

كانت خالتي بجواري، تناولني الطعام وهو تقول:

- عليكِ أن تأكلي الآن! يجب أن تتقويّ يا صغيرتي...
- - لا أستطيع الآن يا خالتي..
- كلا! كلا... عليكِ ذلك... سيأتي الطبيب ليقرر إن كانت حالتك الصحية مستقرة ليكتب لك (الخروج) من المستشفى، ولذلك سرّعي بخروجك، بتقوية جسدك... بيتكِ مشتاقٌ اليكِ... حبيبتي...
- آه! خالتي الغالية... كم احبك... شكراً لك...

شدّت على يديّ وقبلّت جبيني...

- بل أنا التي أشكرك، فأنتِ من جلبتِ الفرح لمنزلي، ولولدي البكر، وجلبتِ لي اجمل فرحةٍ في الكون، حفيدتي!

مرّت الأيام والأشهر وكبر (فارس) الصغير، وكذلك (فرح)، وكبرتْ معهما أمنياتنا (أنا) و (فؤاد)... كانت خالتي سعيدةً جداً بحفيديها اللذين أخذا يعيدان ذكريات أطفالها عندما كانوا صغاراً يملؤون المنزل بصراخهم وضحكاتهم...

جلستُ في احدى الأمسيات، عندما زارنا (هاني) مع زوجته (كاثرين) وطفلهما، مع خالتي ننظر في البوم الصور عندما كان أبناء خالتي صغاراً... نظرتُ معها إلى هاني وهو بعمر الأحد عشر عاماً يلعبُ في الحديقة عندما التقط (فؤاد) صورةً له مع قطةٍ صغيرة احبّها في طفولته..

استذكرت القطة كحلمٍ قصير مرّ مرور الكرام في ليلة صيف قصيرة كتلك الليالي القصيرة في صيف العراق!

- خالتي! إنها تلك القطة! لقد تذكرتها! ياالهي؟ ماذا حلّ بها...
- لقد ماتت! مع الأسف! (لاسي) الصغيرة...

هتف (هاني) وهو يستمع لحديثي وجلس بقربنا ينظر إلى البوم الصور...

- انظري يا فاتن! هذه أنتِ قربي بعدما جَلَبَتْكِ (والدتي) من منزل عمكِ.. أتذكرين هذه الصورة! يا الله! لقد التقطها والدي لنا جميعاً... انظري كيف كان (فؤاد) صغيراً يافعاً... كنتِ صغيرةً جداً أنتِ يا فاتن! كم كان عمرك..
- عشرة أعوام!!

قلتُ وأنا ادفع دمعةً صغيرة قفزت من مقلتي..

- أهاً! هنا، هنا يا فاتن! هذا فؤاد يحملك فوق ذراعيه وكأنكِ ابنته فعلاً!! يا للذكريات!

تمعنتُ بتلك الصورة القديمة، كم مرّ عليها... ابتسامةٌ كبيرة ارتسمت فوق محيا (فؤاد) في تلك الصورة النادرة.. كان يحملني وكأنني ابنته فعلاً كما قال (هاني) والسعادةُ تشعّ من عينيّ... قلبتُ صفحةً أخرى وجدتُ فيها صورةً لأبناء خالتي ثلاثتهم وهم جالسون قرب موقد النار حيث كنا جالسين على الأرائك أنا وخالتي

وهاني وزوجته و (فؤاد) والأطفال يلعبون حولنا بينما (أمير) كان يعدّ لنفسه قدحاً من الشاي على مقربةٍ منا في المطبخ المفتوح على صالة المنزل... رفعت رأسي لأنظر إلى فؤاد الذي بادلني نظرات مستفهمةً فناولته البوم الصور وأنا أقول له بسعادة...

- انظر هنا كيف تحملني يا فؤاد وكأنني طفلةٌ صغيرة..
- لقد كنتِ طفلةً صغيرةً عندها يا حبيبتي! يا الله! كم مرّ على هذه الصورة... كنتُ شاباً حينها...
- لاتزال كذلك يا حبيبي!... (قلت له ذلك وأنا أجلس قربه عندما ناوله أمير قدحاً من الشاي)...
- تفضل! لقد صنعتُ الشاي بنفسي وصببتُ لك بعضاً منه لتشرب معي...
- شكراً يا أمير... (جلس أمير قبالتنا أنا وفؤاد)
- متى سنفرح بك يا أمير! (هتفتُ بسعادة)...
- لا أدري! أنا لا اثبتُ على علاقةٍ واحدة... أنا في ترحال دائم وتجوال... من هذه الزهرةِ وإلى تلك الوردة!

نظرتُ إلى (فؤاد) بدهشة، بينما ابتسم هو لي وقال:

- هذه العلاقات العابرة، لا تفيدك في شيء يا أخي... إبحث عن زوجة تسعدك، عن شريكة حياتك...
- لم أجدها لحدّ الآن مع كل الأسف... كلهنّ، أعني، الأميركيات، متشابهات...

قال ذلك وهو يهمس نوعاً ما فضحكنا أنا وفؤاد وتابع..

- لا أدري كيف وافق (هاني) على الزواج بامرأةٍ أميركية! أنا لن أتزوج إلا مسلمة... تكون ذات دين... تحافظ على تقاليد أسرتنا كما تفعل (فاتن)... انّ (فؤاد) يفهمني... صحيح أنّ فارق العمر بيننا كبير نسبياً لكنني وإياه كنا مقربين لبعضنا أكثر من (هاني)... اسمعيني يا فاتن! هل ذهبتِ لحدّ الآن إلى حفلةٍ من تلك التي يقيمها هؤلاء!

قال (أمير) جملته الأخيرة وهو يشير بشكل مستهزئ إلى زوجة (هاني)...

- مالنا ولهم يا أمير!!

هتفتُ بدهشة... اتسعت عينا (أمير) بذهول...

- من حقكِ قول هذا... هل حضرتِ احدى الحفلات في الجامعة أو في منزل إحدى زميلاتك عندما كنتِ طالبة أو الآن وأنتِ أستاذة؟
- في الحقيقة! لا!؟
- اذاً! كلميني عندما تحضرين أحدها!

قال ذلك وهو يرتشف الشاي، نظرتُ إلى (فؤاد) لأرى ردّة فعله، فنظر إلى (أمير) وهو يقول:

- انت على حق يا أخي... أبحث عن عراقية مغتربة أو عربيةٍ مسلمة... ستفهم طباعك أكثر...
- كل من التقي بها، ليست كما رسمتُ لها في خيالي..
- أنا أتمنى لك من كل قلبي يا أمير أن تعثر على زوجة المستقبل وشريكة حياتك، كي تفرح قلب خالتي على الأقل... ما رأيك يا خالتي...

هتفتُ بمرح لأغيرّ الموضوع، فإذا بخالتي نائمة... ذهبت إليها لأوقضها وأنا ابتسم مازحةً..

- هل سمعتِ ما قاله (أمير) يا خالتي! إنه مضربٌ عن الزواج...

نكزتها بيدي بينما كان رأسها مستنداً إلى وسادة الأريكة، فلم تتحرك... حركتها بيدي مرتين... لا يوجد رد... أخذتُ أهزها بكلتي يديّ...

- خاله! خالتي! ردّي عليّ... خالة...

قفز الأخوة نحو أمهم... ينادونها، ولكن... لا جواب... أخذ (فؤاد) يجس نبضها بوضع يده فوق عنقها تارةً وتارةً أخرى فوق رسغها... قفزت الدموع من عينيه..

- أماه! ردّي عليّ... ماما! مالذي جرى يا أماه!
- لا اله الا الله!

صرخ (أمير) واحتضن (هاني) وهمايِبكيان بينما وقفت أنا غير مصّدقة ما يجري..

- فؤاد! قل لي إنها مزحة... هيا نذهب بها إلى المستشفى... إنها لا تزال حيةً، أنا على يقين..

رفع فؤاد عينيه الزرقاوين إليّ وهما ملآى بالدموع...

- البقاء بحياتك يا فاتن! ماتت امك الثانية...
- رباه! لا... لا!!

وأنهاريتُ صريعة الصدمة على الأرض جاثيةٍ قرب قدمي خالتي، غير مصدقةٍ ما يجري لي وحولي... اقتربت (كاثرين) مني ووضعت يدها على كتفي لتواسيني، لكنني كنتُ اقبّلُ قدمي خالتي والدموع تنهمر من مقلتي...

- لا! لا تتركيني يا خالة... لماذا... كل من احبهم يرحلون مبكراً... لا يا خالتي.. لا تزالين صغيرة... لماذا رحلتِ فجأة... أرجوك ارجعي إليّ... ارجعي... أنتِ أمي... أنتِ حبيبتي... لقد تحملتِ تفاهاتي وحماقاتي، ولم تؤذيني يوماً... حبيبة قلبي... خالتي الغالية... لا...لا...

أخذ فؤاد يشدني نحوه كي يبعدني عن قدمي خالتي...

- انهضي يا فاتن! كفى! لقد جاءت الإسعاف! كفى.. انهضي... أرجوكِ يا فاتن...

كانت كاترين قد أخذت الأطفال بعيداً كي لا يروا تلك المشاهد، وتصرفها ذاك زاد من احترامي و تقديري لها، لأنني كنتُ في حالة صدمة وأخذتُ بنكث شعري دون شعور واللطم على صدري، إذ أعاد موت خالتي ذكريات موت والديّ وشقيقي... لم اكن واعيةً لتصرفاتي ولم أشعر بنفسي الا وأنا على سريري بعد أن أغمي عليّ وحملني آبنا خالتي إلى غرفتي، لانّ فؤاد كان قد ذهب بسرعة مع سيارة الإسعاف التي حملت والدته...

فتحتُ عينيّ لأجد (فرح) بقربي... لقد أصبحت فتاة جميلة تشبه خالتي في جمالها... عيناها الزرقاوين كعيني والدها، أما شعرها فهو كخيوط ذهبية، أو لأقل، أنه كأشعة الشمس الصفراء، وبياضها الناصع، كأنه ثلج يتساقط في عمق الشتاء...

- أماه! هل أنتِ بخير!

هتفت بارتباك ووجل وهي تمسك بيدي...

- حبيبتي (فروحة)! الحمد لله... أين (بابا)...
- لقد عاد للتو من الجنازة وهو مع عمي (أمير)و (هاني) في الطابق السفلي... لقد قال (بابا) لي ان اصعد اليكِ كي أطمئن عليكِ... شكراً لله انك فتحتِ عينيكِ، سأنزل لأخبر ابي...
- حبيبتي! إبقي معي قليلاً...

قلت ذلك وأنا أشدّ على يديها الممسكتين بيدي...

- أين (فارس) اذاً...
- إنه في الأسفل مع والدي... لا تخافي... لم يرَ (فارس) ما جرى، فلقد أخذتنا خالة (كاثرين) إلى غرفة جدتي وجلست معنا وأغلقت الباب، أنا فهمتُ كل ما جرى وسمعت صراخك يا أمي... كنت قلقةً عليكِ للغاية...كلنا قلقون عليكِ...
- حبيبتي! فروحة!

انهمرت الدموع من عينيّ...

- كانت جدتك تريد الاحتفال بعيد ميلادك الرابع عشر بعد أسبوع من الآن... وأخذت تحدثني عن الاستعدادات، لأنها أرادت ان تكون حفلةً كبيرة تجعلك سعيدة جداً..

بكت (فرح) معي ووضعت رأسها فوق صدري فضممتها بذراعي وأنا ابكي معها...

- حبيبتي... آه! كم أحببتها! إنها أمي الثانية... لم تُسمعني يوماً ما أية كلمةٍ جارحة حتى عندما غادرتُ المنزل وتركتها هنا مع والدك... حتى بنظراتها، لم أرَ الاّ الحنان والحبّ والعطف... رحمك الله يا خالتي...
- فرح! هل أمك بخير! لماذا تأخرتِ...

صاح (فؤاد) فجأةً وهو يفتح الباب فزعاً... رفعت (فرح) رأسها من فوق صدري وهتفت معتذرة...

- لقد أردتُ النزول اليك يا أبي! لكننا تذكرنا جدتي!

نظر إلينا والدموع تملأ وجهينا فأطرق بألم و شدّ على قبضتيه... تقدم نحوي وقبلني من جبيني...

- حمداً لله على سلامتك يا فاتن!
- حبيبي الغالي...

أمسكت بيده وقبلتها وأنا أبكي...

- البقية بحياتك يا حبيبي وآبن خالتي...

احتضنت فرح أباها بينما ضمني فؤاد بين ذراعيه والدموع تنهمر من عينيه وبكينا كلنا سوياً، عندما قفز (فارس) نحونا هاتفاً وهو يركض قادماً من الطابق السفلي...

- ما بكم! انّ عميّ ينتظرانك يا بابا في الصالة في الأسفل! لقد جاءنا ضيوف للعزاء، من معارفك في الجامعة...
- نعم يا حبيبي! إذهب وقل لهما اني قادم...

انتفض (فؤاد) واقفاً ونظر إلى فرح وقبلها من رأسها...

- انتبهي لامك جيداً وارعيها...
- حاضر يا بابا...

قال ذلك ثم اختفى خلف الباب...

ناديتُ (فارساً) ليأتي إليّ فاحتضنته... كان في السابعة من العمر آنذاك...

- أمي! كيف أصبحتِ... لقد خفتُ عليك كثيراً يا ماما...
- حبيب ماما! كيف انتَ ا لآن... هل تسمع كلام بابا وتطيعه ام كنتَ ولداً شقياً أثناء رقادي على السرير...
- ماما! إنها ليلة واحدة رقدتِ فيها واليوم فقط! أنا لستُ مشاكساً هكذا!! اسألي بابا!!

الفصل الثالث

والعشرون

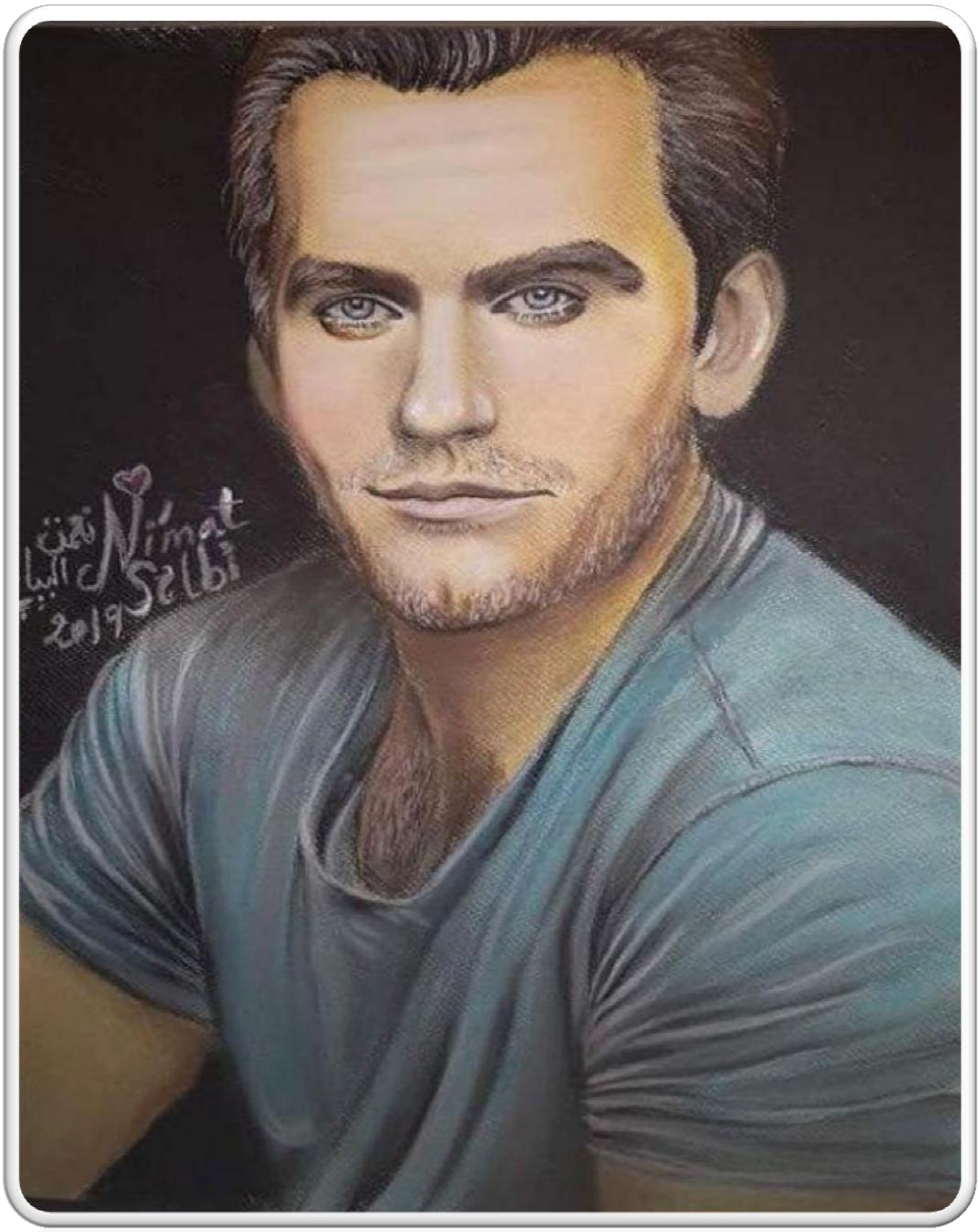
Nimat
Salbi
2019

مرت أيام العزاء ثقيلةً سوداء كسواد الليل، كنتُ فيها ابكي خالتي كلّ ليلة... معارف زوج خالتي من الجالية العراقية كانوا يأتون لزيارة (فؤاد) وتعزيته، ممّن لم يحضروا في مجلس العزاء الذي نصبه أبناء خالتي على روحها الطيبة... كذلك أخذ معارف (فؤاد) و(أمير) وهاني يتوافدون إلى منزل خالتي، ممّن سمعوا بالخبر بعد فترة ولم يكونوا يعرفون بالأمر، فتذكرتُ ذكريات موت زوج خالتي وربطتها بذكيات موت والديّ واخي...

لاحظتُ من بين أولئك المعزيّن امرأة سمراء البشرة طويلة القامة ترتدي خماراً اسود شفاف تحت قبعة مزركشة بنفس اللون، وثوباً ضيقاً يكشف عن اعلى ذراعيها واسفل ركبتيها... كانت تلك المرأة تتردد بشكل مستمر مع المعزيّن وتتعمد الجلوس بقرب (فؤاد) أو التحدث معه، أو تعديل ياقة قميصه مقتربةً بشكل لافت (لي)، منه، أو أنها كانت تتعمد تعديل سترته السوداء بيديها، وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد، أكثر من (معرفة) سطحية...

اقتربتُ ذات يوم منها بينما هي تتحدث مع (فؤاد) ممسكةً سيجارة فاخرةً بين أنامل يدها اليسرى..

- (فؤاد)!! عن إذنك... آه! هل قاطعتكما!
- كلا! ابداً!... نعم يا فاتن!
- هل لك ان تعرفنا ببعض!؟ هتفت باحتجاج..
- آه! هذه زوجتي (فاتن) وابنة خالتي... هذه زميلة دراسة جامعية قديمة منذ أيام الكلية...
- تشرفت عزيزتي...

قالت بالأميركية وهي تمدّ يدها نحوي... تفرستُ في وجهها الذي رفعت عنه ذلك الخمار المخرّم... ملامحها عربية عراقية بلا شك، ولكنّ لكنتها أميركية بامتياز..

صافحتها وأنا أتفرس فيها لأعلم ما سرُّ حديثها مع زوجي...

- حسنٌ! تشرفت بمعرفتك...
- فؤاد عزيزي! هل سأراك غداً اذا... شكراً عزيزتي..

قالت جملتها الأخيرة وهي تنظر إليّ من طرفٍ خفي...

- فؤاد!! ماذا هناك غداً!
- آه! كلا!! انه امرٌ خاص بزملاء الجامعة القدامى...
- ماذا؟! ماذا تعني يا فؤاد!

قلتُ بصوت غاضب فالتفت (فؤاد) إليّ متداركاً...

- كلا! إنها تعني بقولها، انه امرٌ خاص بزملاء وزميلات الجامعة، لقد توفي والدها ومع ذلك، حضرتْ مجلس عزاء والدتي لمّا سمعت بالأمر، وهي تطلب قدومي غداً لحضور مراسم عزاء مرور أربعين يوماً على وفاة والدها...

رفعت المرأة منديلاً وتظاهرت بمسح دموع وهمية لم أرَ أثراً لها..

- حسنٌ! يمكنك المجيء لو أردتِ عزيزتي... عن إذنكما!
- يمكنكِ الحضور لو أردتِ!

قلدتُ صوتها بتهكم لما ابتعدتْ وأنا انظر بغضب إلى (فؤاد) الذي تدارك نظراتي الغاضبة بنظرةٍ منه معاتبه..

- هل هذا وقتُ الغيرة يا فاتن! أرجوكِ...
- كم أنا حمقاء! سآتي معك فعلاً!
- افعلي ما ترين! لم يعد لي مزاجٌ لأساير غيرتك!!
- حقاً! فعلاً انت محق!

نظر (فؤاد) إليّ بضجر ثم تركني بسرعة...

في تلك الليلة... تأخر (فؤاد) في العودة إلى المنزل... ورغم أني قلتُ أنني سوف اذهب معه إلى مجلس عزاء والد تلك المرأة، الاّ أنني لم افعل ذلك، لخوفي من الاجتماع بأناسٍ لا أعرف عنهم شيئاً...هم من جيل غير جيلي وطباع تختلف عني... علاوةً على انّ المرأة قالت لي ذلك من باب المجاملة لا اكثر، ولم تكن تحبّ فعلاً ذهابي..

عاد فؤاد أخيراً من خارج المنزل فصعد بسرعة إلى الغرفة وهو يتعذر مني لعدم قدرته على تناول العشاء معي، رغم أني انتظرتُ قدومه كثيراً حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل...

عندما صعدتُ إلى غرفتنا، وجدته نائماً بملابس الخروج وقد فك أزرار ياقة قميصه، وكان يشخر من كثرة التعب...

أخذت سترته المرمّية على الكرسي لأعلقها عندما سقط هاتفه المحمول منها، ورنّ الهاتف رنةً صغيرة دلالة وصول رسالة...

جلستُ على الكرسي قبالة سريرنا لأفتح الجهاز وأقرأ الرسالة:

- حبيبي (فؤاد)! لقد أعدتَ إليّ تلك المغامرة الجميلة... يا ليتها تتكرر... اعد زيارتك لي لو سمحت...

شعرتُ انّ السماء سقطت على رأسي... لم اصدق ما قرأت.. فتحتُ صندوق الرسائل، فوجدتُ عدة رسائل قديمة منها... شهقتُ بذعر... فجأةً وجدتُ عيني فؤاد الزرقاويتين تنظران إليّ بغضب...

- أعطني الهاتف! من سمح لك بقراءة رسائلي!
- اعتقد انّ هذا الحق مشترك بيني وبينك!
- لا اعتقد هذا! ثم لماذا تعبثين بخصوصياتي!
- والله لم اكن اعلم ان رسالة من امرأة تدّعي إنها زميلتك مسبقاً، يُذكر فيها اسم الحبيب واللقاء والمغامرة؟ هي خصوصية لك!
- فاتن! لقد تجاوزتِ حدودك!
- حقاً! أنا من تجاوزت!
- إنها امرأة محتشمة! تناديني بالأميركية بـ (حبيبي) لكنّ قصدها شيئاً اخر... ثم إنّ والدها قد توفي منذ أربعين يوماً!!
- حقاً! أنا أريد أن أعرف ما هو قصدها وما هو الشيء الآخر...
- فاتن! أريد ان أنام... أنا متعب؟
- لماذا؟ هل مجلس الأربعين متعبٌ هكذا...

صرختُ بغضب فانتفض فؤاد وأخذ وسادته وخرج من الغرفة حانقاً وهو يهتف بصوت عالٍ...

- أصبحتِ لا تطاقين يا فاتن بسبب غيرتك!
- حقاً! أصبحتُ هكذا!

تركني بسرعة بينما انفجرتُ أنا بالبكاء...

لم نتحدث بعد تلك الليلة بأيّ شيء، لا أنا ولا فؤاد وكنا نتجنبّ بعضنا قدر الإمكان... وفي احدى الليالي، وبينما أنا افتش في أغراض (فؤاد) وأوراقه... اذا بي اجدُ بطاقة دعوة لحضور ما يمكن تسميته حفلة (لمّ شمل الجامعيين).. وضعت البطاقة بشكل صحيح وأعدتها إلى ظرفها وقلبي يخفق بسرعة.. دّبت الغيرة في قلبي من جديد حتى شعرتُ انه يحترق عن آخره...

((لكن! هل يمكنك يا فؤاد فعل هذا؟))

ارتديتُ افضل جلبابٍ إسلامي عندي وأيضاً بحثتُ عن الموقع المكتوب على الظرف على عجلةٍ خوفاً من أن يدخل (فؤاد) فيرى أنيّ اقلّب في أغراضه... أسرعتُ بالخروج من المنزل بعد أن أوصيتُ فرح ان تعتني بفارس الصغير... كان (فؤاد) خارج المنزل، وكما توقعت، في الحفلة!!

دلفتُ إلى ذلك المنزل بعد أن أخرجتُ البطاقة من حقيبتي لأريها لذلك الشخص الذي فتح الباب لي.. كانت روائح غريبة وهالة كبيرة من الدخان تمنع الرؤية حال دخول الشخص تنتشر في كل مكان... غذيّت السير دون علمٍ مني إلى أين اذهب حتى انقشعت تلك الغمامة فانفرجت عن مكانٍ يشبه البار وُضعت عليه أنواع من زجاجات النبيذ والويسكي وكؤوس الشراب، أمام ذلك البار جلس رجال ونساء، استطعت تمييز فؤاد وهو يجلس قرب تلك (الثعبان)، لأنني استطيع تمييزه من بين الف من الناس...

كانت تلك المرأة التي تدعي أنها زميلة (فؤاد) منذ أيام الجامعة، ترتدي ثوباً أسود كما توقعت لأنها (حزينةٌ على فقد والدها)... ولكنّ ذلك الثوب الحزين قد كشف عن ذراعيها واعلى صدرها وساقيها وقلت في نفسي ((هذه هي من يسميها (فؤاد) امرأة محتشمة)) ولم افهم على أي أساسٍ ذهب (فؤاد) إلى منزل تلك المرأة دون أن يخبرني... كان هناك العديد من الرجال والنساء من مختلف الجنسيات، لكنهم على الأغلب كانوا أميركيين... هنالك بعض الوجوه العربية الملامح.. اقترب رجلٌ مني وقال مبتسماً..

- أهلا بك... هل أنتِ صديقةٌ لـ (زينه)... وأشار بعينيه إلى صاحبة المنزل التي لم تنتبه الاّ على حديث طويل كان يجري بينها وبين (فؤاد).. اشتعلت النار في قلبي واضطرمت أكثر... نظرتُ إلى الرجل بلا مبالاة وقلت بنوع من العصبية..
- تستطيع أن تقول ذلك!!
- هل اقدّم لك كأساً من المشروب!
- معاذ الله! أنا لا أشرب!
- ماذا؟! (ضحك بصوتٍ عال)... هنا فتاةٌ متدينة! اذاً لماذا جئتِ...

حاولتُ التملص من أسئلته فانسحبتُ من أمامه وَضِعْتُ بين زحام الراقصين والراقصات على انغام أجنبية ولم أشعر الاّ بذراع تضمني ويد تقرص فخذي فصحت بصوت غاضب..

- ابتعد أيها القذر!!

وأخذت أسعى لاهثةً للخروج من بين الزحام وقلبي يعتصر ألماً، إذ لم يسبق لي أن سمحت لرجل غير زوجي أنْ يلمس شعرةً مني... شعرتُ بالتقزز من رائحة المشروب وتضرج وجهي بالدماء...

جلستُ على مقعد منزوٍ في احدى الزوايا لأتخلص من كل ذلك وصداع رهيب قد ألمّ بي، فإذا برجل ما يجلس قربي وبيده زجاجة خمر كبيرة كان يحتسي منها وما ان جلس حتى ارتمى عليّ يحاول تقبيلي وأنا أُدافع عن نفسي واصرخ دون جدوى، فجأةً شعرتُ باختناق أنفاسي عندما سمعت صوت ضربٍ وصراخ وسقوط شيء ما على الأرض... كان احدٌ ما قد حملني قبل أن أفقد وعيي في ذلك العالم المقزز... وأخرجني من ذلك المستنقع...

فتحتُ عينيّ... كنتُ في سيارة فؤاد... التفتُّ فإذا بي أراه يسوق إلى جواري... انتبه إليّ وقد عدتُ إلى وعيي...

كشرّ عن أسنانه وصرّ عليها وهو يقول بغضب مزمجراً...

- هل ارتحتِ الآن... هه! هل انتِ سعيدة!

شعرتُ بغضب عارم يجتاحني.. هتفتُ بغضب بينما كان هو حانقاً، غاضباً، مقطباً حاجبيه، التفت وعيناه تلتهبان بشرر ازرق لاهب...

- أو حقاً ما تقول! هه! هل أنا التي ارتحت أم انت الذي لم يمرّ اكثر من أسبوعين على وفاة والدته، ويحضر حفلاً لتجمع (طلاب الجامعة في سنوات الأكاديمية)!! أولا تخجل من تصرفك هذا! ومن هي هذه المرأة التي ترسل الرسائل لجوالك وتطلب منك حضور حفلات وتحضر في مجالس التعزية في منزلك مع المعزيّن وبشكل مستمر، بدأت تظهر في حياتك! من هي! ها!!
- إنها صديقتي السابقة منذ أيام الجامعة! كانت صديقتي!

هتف فؤاد بغضب ثم أضاف وهو يوقف السيارة على جانب الطريق ليقول بصوتٍ حازم ونظراته الزرقاء تخترق روحي...

- كانت خليلتي! هل ارتحتِ الآن!! هه! هل ارتحتِ!
- أيها الجبان الحقير!

أخذتُ أضربه على كتفيه بجنون وأنا أصرخ بغضب عندما أمسكني فجأة وثبت ذراعيّ وصفعني على فمي فارتطم رأسي بزجاج النافذة وفقدتُ الوعي مرةً أخرى..

عندما استيقظتُ في المستشفى، وجدتُ هاني وكاترين قربي بينما (أمير) ينظر بحنانٍ إليّ وشفقه...

- أخيراً استفقتِ يا فاتن! حمداً لله على سلامتك...
- آه! الجبان الحقير!

هتفت بغضب وأنا أتلمس رأسي بأناملي... هتفت كاترين..

- لا تخافي! لقد كان هناك دمٌ قليل فوق شفتيك وقد أخذ الطبيب أشعةً لرأسك، لا أثر لرضةٍ في الدماغ لا سامح الله، ولا شيء خطر... مجرد صدمةٍ خفيفة وقد نجوتِ من حادث سيارةٍ مروع... حمداً لله على سلامتكِ انتِ وفؤاد...
- لقد دفع الله ما كان أعظم...

هتف هاني وهو يقترب منيّ ويقبل رأسي من فوق حجابي..

- اختنا الغالية، حفظك الله لنا...
- فعلاً حفظك الله لنا، انتِ من بقي لنا من بعد والدتنا...

هتف (أمير) وهو ينظر إليّ بحزن... نظرتُ إليهما بألم... لم أعرف ماذا أقول... عرفتُ انّ (فؤاد) قد برّر فعلته تلك، بأنّ حادثاً ما قد وقع لنا على الطريق، تمنيتُ ان أراه في تلك اللحظة لأصرخ عليه وأكيل له الاتهامات واطلب منه الطلاق، لأني شعرتُ بألم يخترق قلبي وأحشائي... شعرتُ أن كل ما فعلته وكل سنوات عمري ذهبت هباء...

عندما رحل الجميع من الغرفة وجاءت الممرضة لترى قراءاتي الحيوية على الشاشة الموضوعة فوق الأجهزة، انهمرت الدموع من مقلتيّ وشعرتُ أني ضائعةٌ في عالم ليس لي مكان فيه، وتذكرتُ كلام (أمير) عن الحفلات وعن النساء... تذكرتُ بحزنٍ وألم وبامتنان وفرح في آن، إنني بفضل الله الذي جعلني أحيا في منزل خالتي تحت حماية أولاد خالتي وبالأخص (فؤاد)، قد نجوتُ من تجارب مُرّه كانت من الممكن جداً أن تجعلني مريضةً نفسياً أو تحت العلاج النفسي لمدةٍ طويلة...

- فاتن ! لا تغضبي ولا تنفعلي أرجوك!

هتف صوتٌ ما بقربي بينما كنتُ ابكي ونظراتي معلقةٌ بالجدار...

خرج (فؤاد) من خلف الستارة التي أمسك بها بيده كي يجعل منها حصناً حولي وحوله يمنع الآخرين من التلصص علينا أو معرفة ما يحدث بيننا، اذ لم اكن بمفردي في تلك الغرفة وكان هناك العديد من المرضى على أسرّتهم...

- ماذا تفعل هنا! لا أريدك...

أغمضتُ عينيّ وأنا أبكي... امسك بيدي وهو يجلس بقربي فوق كرسي صغير فسحبتُ يدي بسرعة وأنا حانقةٌ عليه...

- يجب أن تفهمي... صحيح إنها كانت صديقتي من قبل، لكنني اقسمُ لك بروح والدتي، أقسم لكِ أنني لستُ على علاقةٍ بها، وأني لم أعرف أحداً بعدكِ ولم أقم علاقةً مع أية امرأة أو فتاة في الدنيا منذ عرفتك ومنذ عدتِ إلينا من العراق! ماذا بكِ، لقد أعمتكِ الغيرةُ يا فاتن! صدقيني! حتى في فترة مخاصمتك لي قرابة العام الكامل بسبب إجهاضكِ أنا لم أقم أية علاقة مطلقاً! لأني، لأني احبك من كل قلبي يا فاتن، وأنتِ تعلمين.. لكنكِ أغضبتني جداً بقدومك لذلك الحفل الماجن

دون علمي... ماذا كنتُ لأفعل لو انّ ذلك السكير قد تمكّن من أخذ شرفك، هه! ردّي عليّ الآن!

- وما الذي كنتَ تفعله انتَ في حفلةٍ كتلك! ردّ انت!

قلت بألم وحنق، فأمسك يدي من جديد وقال بنبرةٍ صادقة..

- لقد جاءتْ إليّ اكثر من مرّة ترجوني فيها لأجلِ الأيام الخوالي حسب تعبيرها، أن أساعدها لأنها لا تثق بأحدٍ هنا سواي في هذه الولاية وقد أعيتها الوسائل والطرق في سبيل استرجاع طفلها من أهل زوجها السابق (طليقها)، وأهل زوجها من المغتربين العراقيين وقد هددوها بالقتل إن حاولت رؤية ابنها أو أخذه وقد جاءت إليّ اكثر من مرّة وقلتُ لها ان لا تأتي إلى منزلي لأنني أتحرّج من ذلك، وخصوصاً لأجلكِ أنتِ، فارتأتْ أن تتحدث معي في منزلها... ومنزلها مشهورٌ بهذه الحفلات منذ أيام الجامعة... فاتن! أنا معتادٌ على هذه الأجواء وأنا رجلٌ أستطيع الدفاع عن نفسي، أمّا انتِ، فلا ولن أرضى لكِ أن تتدنّسي بدخول هكذا أماكن!! لا اعلم كيف أحسستُ أني رأيتكِ وقمت من مقعدي أبحث عنك... أنا اسفٌ جداً لأني رفعتُ يدي عليكِ... لم افعلها ابداً و لن أفعلها مطلقاً، لكنّ غضبي عليكِ ولأجلكِ دفعني لذلك...

أغمضتُ عينيّ كي لا انظر إلى عينيه فأسامحه...

- لن أسامحك هذه المرة... كان لابدّ لك من ان تشرح لي كل شيء... لو كان الأمر معكوساً عليّ لأسأتَ الظن بي الف مرة... والف مرة... لماذا يجب ان تكون محقاً في كل شيء..
- حبيبتي...

همس وهو يشدّ على يدي فسحبتها مرةً ثالثة...

- انتِ ساذجةٌ وطيبة وقليلة خبرةٍ في دنيانا هذه... لذلك أخاف عليكِ ولذلك أنا دوماً محق... انتِ خيالية...
- وكيف لي ان أعرف انّ ما تقوله صحيح الآن وانها أرادت مساعدتك وأنها وانها!... ثم كيف لي ان اعرف انّ صديقةً أو عشيقةً أخرى ستظهر فجأةً أمامي!!

- لكِ كل الحق في تركي وهجري، وان شئتِ الطلاق فأنتِ حرةٌ أيضاً! أنا لن أعيش معكِ رغماً عنكِ وقد قلتها لكِ من قبل... طلباتك أوامر عندي...
- يا الهي! ماذا أقول...

رفع يدي رغماً عني وقبلها بشغف...

- من ستأتي لعجوز ناهز الخمسين الآن... كان لابدّ لك من الاعتراض مسبقاً عندما كنتُ شاباً! أنتِ التي يجب أن أغار عليها الآن، امرأةٌ كاملة الأنوثة لم تبلغ الأربعين بعد بل في قمة النضوج والجمال... كيف لي ان ادعها تهرب من بين يدي...

نظرتُ إليه وأنا افتح عينيّ رغماً عني... كانت نظراته صادقةً، وتلك الأشعة الزرقاء تخترق قلبي من جديد..

- انت أيها المراوغ! تعرفُ كيف تتكلم بكلام يذيب القلوب!
- حبيبتي! هل هناك احبّ إليّ من (فاتن) في هذا الكون! هل تطلب (فاتن) فراق (بابا فؤاد)... سوف يتوقف اذاً هذا (ووضع يدي فوق قلبه) عن الخفقان وأموت...
- كلا! سلامتك...
- هل سامحتني...
- كلا! ليس بعد...

أشحتُ بوجهي بعيداً وسحبت يدي بسرعة...

- حسنٌ اذاً! سأدعك لترتاحي.. خذي وقتك يا حبيبتي..

الفصل الرابع
والعشرون

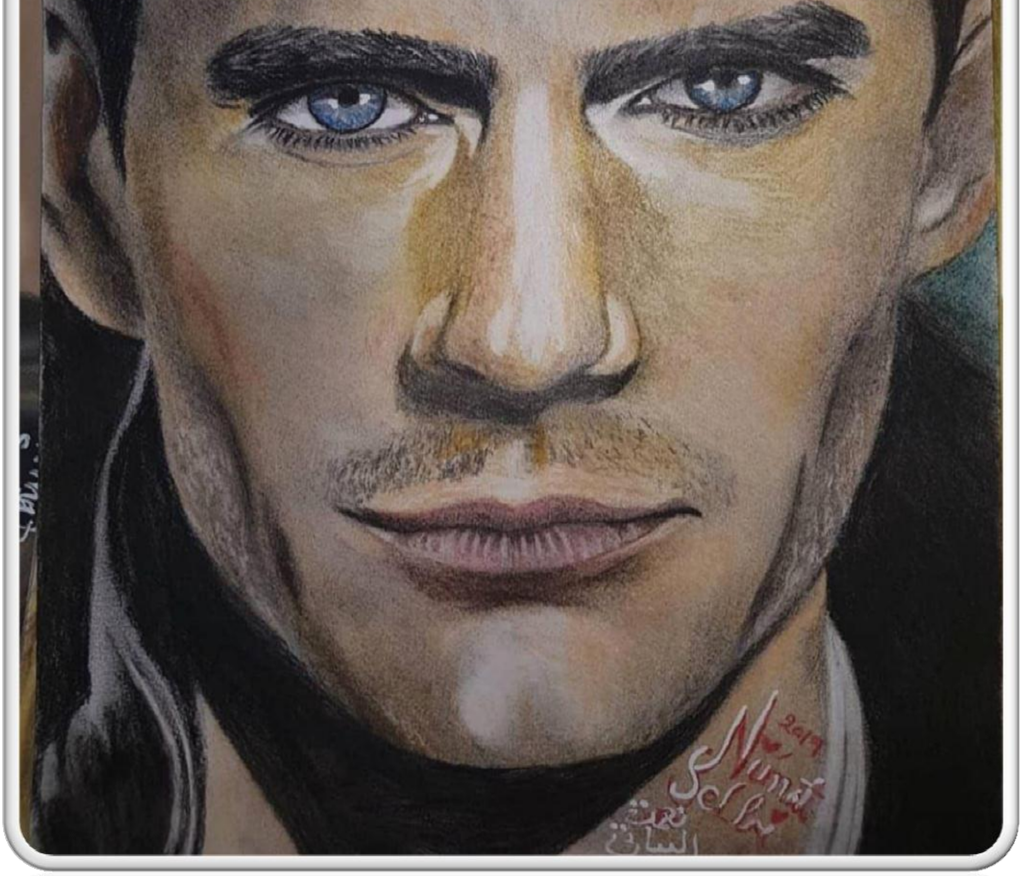

كان الشيخ جالساً عندما ذهبنا اليه أنا و (فؤاد)... في نفس الجامع ونفس المسجد... لم اصدّق انْ أراه (نفسه)! لقد اصبح كهلاً وعندما نظر إليّ عرفني رغم مرور تلك السنين الطويلة..

- آه! انتِ العراقية التي زوجّها عمها من ابنه رغماً عنها...

لقد مرّت سنوات طويلة..

- نعم يا مولانا الشيخ... وأنا الآن..

أطرقت بحياء بينما كان (فؤاد) ينظر بعيداً ولا يدع نظراته تلتقي بنظراتي ابداً... هتف الشيخ..

- ما الأمر الآن يا ابنتي..

تململتُ في جلستي... كنتُ قد قضيتُ وقتاً طويلاً مع نفسي قبل أن أقرر وبشكل حاسم، أن أترك (فؤاد)!! لم أحتمل ان أعيش سنوات حياتي القادمة وأنا في خوفٍ من المجهول.. اخشى عليه من معجبةٍ ما، أو عشيقةٍ تخرج على حين غفلة تدفعني إلى الجنون... أعلنتُ له ذلك فجأةً لما كنا فوق السرير سويةً ولكنّ كل شخص على جهةٍ منفصلة، إذ لم أسامحه على فعلته الأخيرة ولم اكلمه الا قليلاً وللضرورة..

ظنّ (فؤاد) أنني سآخذ وقتي وارجع لمسامحته... أعلنتُ له فجأةً بعد مرور أسبوع كامل من عودتي من المستشفى وقد نهضتُ من فوق السرير جالسة القرفصاء فوقه..

- فؤاد!
- عينا فؤاد!

التفت إليّ بكلّيته ظناً منه أنني أريد العودة إليه وإلى أحضانه... هتفت..

- لقد قررت قراري.. أنا أريد الطلاق!

صمتَ (فؤاد) طويلاً ولم يكلمني، بل انكفأ على نفسه و أدار ظهره لي... وفي صباح اليوم التالي ذهبنا سويةً إلى دوامنا كالمعتاد، وبعد انتهاء المحاضرات، ركبنا سويةً السيارة، ولم اقل شيئاً عندما توقفت السيارة أمام الجامع...

نزل فؤاد من السيارة وتبعته أنا، وكأن السنوات عادتْ بي إلى تلك المرّة التي سحبني فيها من يدي عنوةً كي اسأل الشيخ عن مسألتي، فخرجنا متزوّجَيْن... في هذه المرّة... خرجنا من المسجد وكل شخص ينظر بعيداً عن الآخر، اصبحنا غريبين... مجرد أبناء خالة وحسب...

ركبنا في السيارة من جديد، احدنا لا يكلم الآخر.. شعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في البكاء، سنوات عمري قد ضاعتْ سدىً... لماذا اصبح (فؤاد) هكذا... أوَ أصبحتُ رخيصةً عنده... ضربني مرةً واجهضني ومرةً أخرى ضربني وأفقدني وعيي ومن يدري ماذا سيفعل بعدها... لقد شعرتُ أنه قد تخلى عني بسرعة..

حدثتُ نفسي ((أوَ من الصواب ان يسرع في تطليقي ما ان قلتُ له ذلك))... اندفعتْ الدموع من عينيّ بدون إرادتي وانا انظر عبر النافذة إلى الشوارع أمامي، أبعدتُ وجهي إلى الجهة الأخرى قدر الإمكان كي لا يرى دموعي ويعرف بضعفي... هل كان حبه لي وتحقيقه رغباتي بسرعة على حدّ قوله، نعمةً ام نقمةً لي...

عندما عدتُ إلى المنزل، قفز (فارس) إليّ وهو يهتف:

- ماما! ماما! انظري إلى درجتي... لقد جلبتُ لكِ تقييمي في مادة الرياضيات، درجة امتياز! انظري يا ماما!
- الله! حقا! أحسنتَ يا حبيبي...
- بابا! كيف حالك..

هتفت (فرح) وهي تتقدم نحونا بعد أن قبلتني... نظرتْ إلى عيني والدها ففهمتْ أنّ في الأمر سوءاً...

كنا سويةً على مائدة الطعام، صببتُ الطعام الذي طبخته في الليل لأجل (أسرتي)، ولم أكن أعلم أنني سأكون غريبة عن (زوجي) في اليوم التالي، لقد قررتُ ان لا أغادر المنزل لأجل طفليّ حتى لا يشعرا بالغربة وبالتفكك الأسري.. صحيحٌ أنّ (أمير) كان لا يزال يسكن معنا، لكنّ ذلك لا يعوّض ابنتي وولدي عن حنان الأم أو الأب... قررّت أن لا أقول لطفليّ أي شيء، لأنّ ذلك سيؤثر في نفسيتهما، كل تلك القرارات اتخذتها وأنا أجلس قربهما وهما يضحكان ويتحدثان مع والدهما عن يومهما المدرسي و يقصّان عليّ أحداث اليوم وتلك

الضحكات تملأ دنياي وقلبي بالسعادة، لتنسيني بعضاً من همومي التي شعرتُ أنها كجبل يرزح كتفاي تحت ثقله...

تعودتُ على التحدث بالعراقية مع أمير وهاني وخالتي و (فؤاد) منذ وطأت قدماي منزل خالتي، وكان منزلها بمثابة (ملاذ) آمن، يذكرني بأصلي وجذوري وبالأخص عندما نتكلم بلهجتنا الأم... كنا أنا و فؤاد نتحدث أحياناً بالفرنسية بيننا كي لا يفهم الآخرون لغتنا، لكنّ ما اذهلني، هو (فارس) الصغير الذي لم يكن يتحدث الا الأميركية في المنزل، إذ كانت عراقيته ضعيفة جداً... لا أعلم لماذا؟ ولطالما سألت نفسي وعزوت الأمر لكثرة انشغالنا أنا وأبوه بالعمل، ولكونه يقضي معظم وقته في المدرسة، فكان ذلك سبباً رئيسياً لتعلمه اللكنة الأميركية كلغةٍ أولى وأصلية، ثم اللهجة العراقية كلغةٍ ثانية غير (أم)!!!... أما (فرح) فلقد تحدثت دوماً بالعراقية معنا أنا وأبوها وعمها،،، وذلك بسبب (خالتي) رحمها الله، التي تربتْ (فرح) تحت كنفها، عندما كنتُ قد هجرتُ المنزل وعندما كنتُ أداوم في الجامعة... فأصبحت اللغة العربية لغتها الأم ثم الأميركية...

وعندما حلّ الليل، فتحتُ باب غرفتي القديمة التي أغلقتها عندما تزوجتُ (فؤاداً) وكنت أنظفها بين فترات متباعدة ولذلك فقد كان التراب يغطي أثاثها و ناديتُ (فرح) كي تساعدني في ترتيب الغرفة ونفض الغبار والأتربة عنها... تساءلت (فرح) وهي تقوم بكنس الغرفة..

- لماذا فتحتِ هذه الغرفةَ يا أماه!... غرفتي في الأسفل، وغرفة (فارس) بجواري!
- أنا سأنام فيها من الآن فصاعداً..

نظرت (فرح) بدهشة إليّ وصرخت بألم...

- ماذا حدث مع بابا يا أماه!

نظرتُ إليها شزراً وقلتُ غاضبة...

- لم يحدثْ شيء ما!!!! ابداً!!... والدك أخذ يتضايق من شخيري في الليل، ذلك كل ما في الأمر!؟

لاذت (فرح) بالصمت رغم عدم اقتناعها بتبريري...

تابعنا تنظيف الغرفة، وعدتُ في الليل لأنام فيها بمفردي.. لم يتكلم (فؤاد) معي ولا كلمة، ولا حتى عندما رآني ادخل غرفتي القديمة بعد أن صعدنا سويةً إلى الطابق العلوي، عقب تناولنا طعام العشاء وفضِّ اجتماع أسرتنا مع (أمير) الذي ذهب إلى غرفته... اغلق كل واحدٍ منا بابه بصمت بينما قلبانا يصرخان بألم...

احتضنتُ وسادتي وبكيت وأنا افكر في (فؤاد)...

((أو حقاً تهون عليك سنوات عشرتنا سويةً... كيف لك أن لا تتخذ أي موقف وأن لا تتكلم بأي كلمة لتعيدني اليك!!!! هل أنا رخيصةٌ عليك إلى هذا الحد يا (فؤاد)!!))...

تذكرتُ في تلك اللحظات كيف اتصل بي على هاتفي المحمول ذات ليلة وكنتُ لا أزال طالبةً عنده... لا أدري لماذا عادتْ إليّ تلك الذكرى، ولكنّ قلبي خفق بسرعة وأنا أستذكرها..

- فاتن! انتِ نائمة!
- كلا! ماذا هناك؟!
- أرجوك فاتن! أنا مريض جداً!!!! هلاّ أتيتِ إلى غرفتي لتريني!
- كلا! أنا لا أستطيع وانت تعرف هذا جيداً!!!!

كانت أنفاسه لاهثة متقطعة عبر الهاتف رغم أنه لا يفصلنا سوى جدار واحد فسريري كان مقابل سريره في الغرفة الأخرى، إلاّ انّ جداراً أصماً ضُرب بيننا قبل أن أكون زوجته...

- فاتن! إلى متى تبقين صامته! متى تردّين على سؤالي!
- أي سؤال يا (فؤاد)!
- عينا (فؤاد) وقلبُهُ انتِ! أو تدرين!
- ماذا!
- عندما تنطقين اسمي يرقص قلبي فرحاً... وكأنه اجمل اسمٍ في الوجود، لأنك أنتِ من تنطقينه من بين شفتيكِ اللتين هما وَردة جوري حمراء...
- (فؤاد)! تصبح على خير! سأُغلق الهاتف الآن!..
- كلا، كلا! أولاً، ردي على سؤالي..
- ما هو؟!

- عندما ذهبنا إلى المطعم للمرة الأولى والأخيرة، لمّا طلبتُ يدك.. مرّ عامٌ حتى الآن وأنا أنتظر... هل يوجد شخص في العالم كله اكثر صبراً مني... أنا لم أكلمكِ ولم اقل لك بعدها شيئاً..
- ...(.....)
- ماذا! لمَ لا تجيبين!
- فؤاد! تصبح على خير! غداً عندي دوام...
- حسنٌ، حسنٌ! طلب أخير!
- ماذا!
- انظري إلى نافذة غرفتك، فقط، اطلب منكِ ان تذهبي إلى الشرفة وتنظري إلى منظر القمر وهو (بدر) في تمامه!
- لماذا!؟
- لأنني سأنظر معك عبر نافذة غرفتي... سأتخيل وجهك في البدر وأنام بعدها! هلاّ فعلتِ هذا لأجلي...
- أحقاً ما تقول! هل فعلاً تطلب هذا؟
- (لخاطري)! أرجوكِ... افتحي نافذة غرفتكِ واذهبي إلى الشرفة... أرجوكِ... هل اطلب الكثير!
- أووه! حسنٌ! وبعدها تتركني لأنام..
- نعم! أعدك...

تذكرتُ كل تلك المحادثة بالتفصيل وكأنها بالأمس فابتسمتُ في سّري... كم مرّ من السنوات... ياالهي... لقد خبا ذلك الحب المستعر...

فتحت نافذة الغرفة.. خرجتُ أنظر إلى القمر كما قال لي، كان الهاتف معي وهو يحدثني لحدّ تلك اللحظة عندما قلت..

- أنا خارج غرفتي وقد وقفتُ في الشرفة! هل يرضيك هذا الآن...
- أجل! أنا جدّ شاكر لك...

كان صوته قريباً جداً... التفتّ فرأيته خلفي، أطلقتُ صرخة مكتومة لكنه وضع يده على فمي بسرعة وضمني إليه بقوة...

- أحبك يا فاتن!

وضع رأسي فوق صدره وهو يشد جذعي بذراعيه القويتين..

- أيتها البريئة الساذجة! أحبك... أحبك... ما أجمل شعرك الطويل!
- اتركني أرجوك! فؤاد! هذا حرام!
- حرامٌ عليكِ أن تحرميني من كلّ هذا الجمال الإلهي، يا غزالي البري..لكنني احب هذه الكلمة من بين شفتيكِ... (حرام عليك)!!

قال ذلك مقرباً وجهه مني وأنفاسه اللاّهبَة تكاد تكوي وجهي ورقبتي بينما نظراته الزرقاء قد اخترقت قلبي... حاول أن يضمني مرةً أخرى لكنني أبعدته بسرعة... حاولتُ الهروب ولكن عبثاً...

- لن أتركك حتى توافقين على الزواج مني...

لفّني بذراعيه اسفل صدري بينما اصبح هو خلفي وقال لي وهو يحرك ذقني إلى اعلى ويشير إلى القمر...

- انظري!! هذا البدر يذكرني بك... أتعلمين لماذا؟

لم أجب بينما تابع هو وأنفاسه اللاهثة تهمس في أذني عن قرب..

- كانت ليلة كهذه عندما سكنت هذه الغرفة وسكنتِ قلبي لحظة حملتك فوق ذراعيّ لمَّا سقطتِ مغشياً عليك أمام والدتي... لمَ العنادَ يا فاتن، ما الذي يفرقنا...

وتابع ..

- مجرد جدار غرفة حمقاء، بينما شرفة غرفتي مطلةٌ على شرفتك... أنا استطيع دخول غرفتك دون علمك لو تعلمين... وكل ليلةٍ لو أردتُ ذلك...

قال ذلك بنوع من الوعيد فارتعدتْ أوصالي خوفاً.. أرخى قبضته قليلاً كي يجعلني اطمئنّ ثم قال...

- لكنك ابنه خالتي، وعرضي وشرفي، وحبيبتي... لن اسمح لمخلوق بإيذائك حتى لو كنت أنا... سأقتل نفسي عندها... صدقيني... لا تخافي يا حبيبتي... لا تخافي مني...
- فؤاد أرجوك! دعني الآن... أرجوك دعني...

وتركني فعلاً... كنت أبكي...

- اذاً... لن احصل على جواب ابداً...

تركني وهو مطرق الرأس ثم وثب بسرعة إلى شرفة غرفته ونظر إليّ من خلف الظلال بينما لا أزال مسمرّة في مكاني من هول الصدمة...

- تصبحين على خير يا فاتن... أنا أعتذر لك... لن أكررها..

وفعلاً لم يكرر فعلته أبداً... تذكرتُ تلك الحادثة فقفزت الدموع من مقلتيّ وعضضتُ على شفتيّ بينما وسادتي بين ذراعي حيث غفوت فوقها ودموعي لا تزال فوق وجنتي.

الفصل الخامس والعشرون

- اذاً!! فأنتِ وفؤاد قد تطلقتما هذه المرة شرعاً!

هتف (أمير) أمامي فجأةً بينما كنتُ أصبّ له طعام العشاء، إذ جاء متأخراً إلى المنزل بعد أن اكمل فؤاد وفرح وفراس طعامهم وذهب كلٌ منهم إلى غرفته..

كدتُ أن أسقط صحن الطعام من يديّ لكنّ أمير هبّ لإمساكه مني وأمسك يدي (عمداً)...

- لقد مرّت خمسة اشهر منذ تركتِ غرفة (فؤاد)، ولا أعتقد أنّ الأمر مجرد شخير كما قلتِ لفرح!
- يا الهي! وهل هي من قالت لك ذلك!
- إنها قلقةٌ عليكما!
- ماذا تريد يا (أمير)!

قلتُ بعصبية وأنا أواصل صبّ الطعام بينما كان (أمير) يتناول الصحون مني...

- أنا!! أنا لا أريد شيئاً! أنا قلقٌ عليكِ يا (فاتن)!
- لماذا! ما الذي تغيرّ الآن! الستُ معكما في منزل واحد... أنا لن أغادر منزل خالتي ولن أترك ابني وابنتي...
- أعلم هذا... لكنكِ لم تعودي تركبين مع (فؤاد) في سيارته، وبدأ (فارس) يستفهم عن الأمر، وكذلك (فرح) تتساءل عن سبب تركك لغرفة والدها دون مقدمات... وأنا أيضاً أتساءل، ما الذي جرى لكما!!
- لا شيء! لم يحدث شيء... قررنا انّ هذا أفضل لنا...
- حسنٌ يا فاتن! أنا آسف، فأنتِ لا تريدين خوض هذا الموضوع...

قال أمير وهو يجلس إلى المائدة ليتناول طعامه... رفع رأسه نحوي وقال بلطف..

- هلا جلستِ معي على المائدة، لا أحب تناول الطعام بمفردي..
- حسنٌ... لمَ لا...
- عاشت يداك... طعامٌ لذيذ جداً! لقد أخذتِ طريقة والدتي بطبخ الطعام بامتياز فلم نعد نفرق بين طبخها وطبخك... ووجودك هنا بالمطبخ يذكرني بها دوماً...
- رحمها الله... ألف رحمة على روحها!

قلتُ بحزن وأنا أجلس إلى المائدة قبالة (أمير) الذي بدأ يتناول طعامه... كان ينظر إليّ بين الفينه والأخرى، وشعرتُ بالاستغراب لتلك النظرات، لكننيّ لم انتظر طويلاً، إذ قال لي فجأة ونظراته مسمرّةٌ عليّ...

- فاتن! هل لي سؤالك شيئاً ما...
- نعم! بالطبع... تفضل...

نظر إليّ بارتباك ثم قال:

- حسنٌ! بالنسبة لشركتنا التي بدأت تكبر وتتوسع، وقد وكلّتِ جميع أعمالك إليّ كمدير عام تنفيذي وذلك لانشغالك بدوامك والبيت والأطفال... (تلعثم)... كنتُ أريد أن أقول لك أنّ أحوال الشركة في ازدهار وأنّ نسبة الأرباح تذهب مباشرةً كل شهر إلى حسابك المصرفي كما هو متفقٌ عليه في العقد، لكنني أريدُك أن تراجعي هذه الحسابات وتنظري في أعمالي وذلك كي تتأكدي من نزاهة موقفي تجاهك...
- أنا على يقين يا (أمير)... وإلاّ لما وكّلّتُك بدلا عني...وفوّضتُ اليك أعمال الشركة...
- أعلم هذا يا فاتن! لكنني يجب أن أعرض عليكِ عملي كي تطمئني وتكوني على دراية بأمور شركتك... يجب عليكِ ذلك...
- حسنٌ... أين هي الملفات؟؟؟
- لقد وضعتها في حقيبتي... أنها على الأريكة هناك... سأجلبها لك بعد ان أتمّ عشائي..
- حسنٌ اذاً... سأراجعها ما أن أذهب إلى غرفتي حتى أنام...
- وعليكِ أيضاً زيارة الشركة غداً لأنّ مندوبين من شركة معروفة لتجارة الحجابات الإسلامية والجلابيب يريدون القدوم للتعاقد معنا... وجودك ضروري...
- حسنٌ اذا... سأطلب إجازة من الدوام في الغد...
- اتفقنا اذاً...
- إنشاء الله يا (أمير)... هل تريد أنْ اعدّ لك بعضاً من الشاي..
- أتمنى لو تفعلين، أخشى أن أكون قد أثقلتُ عليكِ...
- كلا! على الأطلاق...

- أنا حزينٌ جداً على ما جرى بينكما...

اعلن فجأة وهو يحمل صحن طعامه الفارغ ليضعه في مغسلة الصحون بينما كنتُ أضع إبريق الشاي على النار... جلب صحونه الباقية وشمرّ عن ساعديه ليغسل أطباقه، فقلتُ له معترضة..

- كلا! اتركها... سأغسلها أنا...
- كلا يا فاتن! لا عليكِ... انتِ متعبة...

وقفت بالقرب منه انتظر غليان الماء بالأبريق بينما فتح هو صنبور الماء بعد أن غسل الصحون القليلة..

- لماذا حدث هذا يا فاتن! ما الذي جرى لكما! كنتما أروع زوجين في الكون كله!
- أمير! هل يمكن ان لا تذكر الأمر رجاءً... إنه امرٌ شخصي.. أرجوك، لا أريد خوض هذا الموضوع أو التحدث فيه لأنه يؤلمني..
- اعتذر حقاً!

قال ملتفتاً إليّ ونظر إليّ طويلاً بعينيه السوداوين فقلت له بذهول وأنا أضع الشاي في الأبريق الخزفي بينما اصبّ الماء الساخن فوقه...

- ماذا هناك يا أمير! لماذا تنظر إليّ هكذا!...

انطلقت مني ضحكةٌ عفوية... اقترب (أمير) مني بينما وضعتُ الأبريق على النار...

- فاتن! أنت حلم كلّ رجل في هذه الدنيا...
- ماذا؟!

أطلقت صرخةً كتمتها بسرعة في صدري بينما ماتت على شفتي لمّا وجدتُ (أمير) قد وضع أمامي علبةً صغيرة، فتحها بيده الأخرى ليظهر داخلها خاتم (الماس) رائع الجمال...

- أتمنى ان تقبلي الزواج مني يا فاتن!! لطالما أحببتكِ بصمتٍ دون أن أتكلم... لأن (فؤاد) قد حظى بكل حبكِ واهتمامك ولم تكوني تنظرين لأحدٍ سواه... مذ كنا مراهقين، ومنذ مجيئكِ إلينا وانتِ في الثامنة عشر من العمر... لم أستطع يوماً

ان اعبرّ لكِ عن مشاعري ونظراتي المسكينة لم تقابل إلا بالضياع، لأنّ عينيكِ لم تستقبلا نظرةً واحدةً منها، وطوال عمري، لم اجدْ فتاةً أو امرأةً في مثل أدبك أو رقتكِ أو براءتك... لم أجد واحدةً تشبه طهرك وطيبة قلبكِ... أنتِ عندي (قطر الندى)... جميلةٌ كجمالها... رائعةٌ مثلها بل أكثر من ذلك... أنا أتعجب كيف لفؤاد أنْ يفرّط فيكِ هكذا، أو أنْ يتركَكِ دون سؤالٍ عنكِ أو اتصالٍ...

بحثت كثيراً في المغتربات العربيات والعراقيات عن واحدةٍ تشبهكِ... كنتُ أراك في كل فتاةٍ التقي بها فلم أجد أيّ واحدةٍ تستحق أن ترتقي لتكون ولو اظفراً من (قطر الندى)...

- رباه!! زفرتُ بألم بينما اخذ غطاء أبريق الشاي يتحرك بفعل البخار معلناً انّ الشاي قد جهز... أطفأت النار تحته بسرعة...
- دعيني اكمل... أرجوكِ... كانت تلك الشركة اقتراحاً مني وذلك كي احظى ولو بجزءٍ من اهتمامك أو بالأحرى لأكون أنا قريباً منك... لكنك، في كل خطوة وفي كل مكان تذهبين إليه وحتى لمّا كان (فؤاد) قد هجركِ بعد إجهاضك للطفل، فلم يتصل بكِ ولم يسأل عنكِ... كنتِ في كل شيءٍ ترين (فؤاد)... عيناكِ تفضحانكِ دوماً مذ كنا شباباً حتى وأنتِ مطرقةٌ لا تتكلمين على مائدة الطعام، كان الكلّ يعلم أنكّ تحبينه بشكل كبير...

لأنّ صمتك عند ذكر اسمه واضطرابك برؤيته، وإشاحة نظراتك عنه، نعم، نعم، راقبتك، كل الوقت، حتى حفظتُ حركاتك كلها... أقول لك انّ كل هذه السنوات وأصبحتِ أماً لطفلين، لكنْ، أنا لا أزال غير متزوج... وتسألينني في تلك المرة الأخيرة قبيل موت والدتي عن سبب عدم زواجي... أردتُ ان أقول لك وأنا اصرخ... (بسببك أنتِ)... لكنني لذتُ بالصمت... الا ترين أني حتى الآن وأنتِ أمٌ لطفلين مستعدٌ لمنحك عمري الباقي وان أكون زوجاً وفياً لك، ولن تَري معجباتٍ بي ولا صديقاتٍ ابداً، أعدك بهذا...

- رباه! أوَ تعلمُ بهذا الأمر أيضاً!

وأسقط في يدي فجلستُ على كرسي مائدة الطعام منهارةَ القوى العصبية... ذلك أنّ كل ما قاله أمير شكّل صدمةً كبيرة بالنسبة لي... (أمير)!! لم أنظر إليه يوماً ما إلاّ كأخٍ أكبر... لم أفكر فيه ابداً أكثر أو ابعد من هذا...

- حسنٌ! أتمنى ان تقبلي هذا الخاتم مني!

- لا يا أمير! لا أستطيع! أرجوك!؟

قلت وأنا أضع رأسي بين يديّ، جلس (أمير) قبالتي...

- حسنٌ! أنتِ لا تزالين تحبينه! أليس كذلك؟ أخبريني!
- أمير! ماذا تقول؟!

رفعت عيني باتجاهه... كانت خصلات شعره الشقراء تتدلّى فوق عينيه السوداوين بينما جدائل شعره الطويل تنسدل على كتفيه... شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، كنتُ للمرّةِ الأولى أرى الوسامة والجمال في تقاطيع وجهه، إذ لم أكنْ من قبل قد تنبهّتُ إليه أو أعرتُهُ اهتماماً أكثر من اهتمام أخويّ بحت...

- لماذا تسألني هذا السؤال الآن يا أمير! لم نعدْ صغاراً! رباه! إنّ ابنتي أصبحت مراهقة!! في بلدنا هناك، في عمرها، تتزوج الفتيات... كان من الممكن ان أكون جدّة الآن...
- هل تحبين (فؤاد)!! لحدّ هذه اللحظة!! أنا أسألك...

قال (أمير) مرةً أخرى وقد احتدّت نظراته فأصبحت تذكرني بنظرات (فؤاد) لمّا يغضب... نظرتُ إلى (أمير) بعطف وشفقه...

- أنا اعتذر منك يا (أمير)! تمنيت لو أنّ الأمر بيدي، ولكن، لكن، لطالما اعتبرتك أخاً لي... لا أستطيع ان أراك سوى أخٍ لي... دعني اصبّ لك الشاي...
- لم تجيبي سؤالي يا فاتن! أرجوكِ! أستحلفكِ بالله! التفتّ إليه لما قال جملته الأخيرة وأنا أضع قدح الشاي بين يديه، ثم زفرت بعمق وهو ينتظر جوابي... لم أردْ ان أجرحه..
- إنّ (فؤاد) هو عمري كله... عمري الذي راح وعمري الآن، حتى وإن تطلقتُ منه... يكفي إنني وإياه تحت سقفٍ واحد، ويكفي أن اشعر أنه يفكر فيّ كما افكرّ فيه... انه والد (فرح) و (فارس)... كيف لي أن لا أحبّه... مهما كابرتُ...

أطرق (أمير) بنظراته وابعدها عني لينظر إلى قدح الشاي أمامه وزفر بألم ودخان الشاي يتصاعد إلى وجهه...

- أتمنى لكِ كل السعادةِ يا (قطر الندى)...
- أمير... أتمنى لك ذلك أيضاً من كل قلبي... سامحني...

وضعتُ يدي على كتفه فرفع نظراته إليّ...

- أنه محظوظ بكِ يا فاتن!! أنتِ أروع إنسانةٍ قابلتها...
- أشكرك يا أمير على مجاملاتك الراقية وعلى كل شيء... تمنيتُ لو كنتُ أستطيع فعل شيء لك... لكنني لم ولنْ أستطيع ان أمنحك السعادة التي تنشدها عندي لأن قلبي ليس بيدي... كان ولا زال وسيظلّ بيديّ (فؤاد) أخيك...

أخذت عينا (أمير) تلمعان بشكل غريب وهو ينظر إليّ بينما كنت أحدثه بكلامي الأخير... نهض فجأةً ليقول لي..

- حسنٌ! هذه الملفات التي اتفقنا ان تدرسيها... تفضلي... تصبحين على خير...

قال ذلك وذهب إلى غرفته بعد ان اكمل شرب قدح الشاي...

حملت الملفات وذهبت نحو السلمّ... سمعتُ همهمةً وصوتاً ما لكنّ التعب أخذ مأخذه مني فأسرعتُ بصعود السلم لأنام...

الفصل السادس والعشرون

كان (فؤاد) جالساً في غرفته عندما سمع صوت أقدام (فاتن) وهي تسير نحو غرفتها... أطفأ الضوء بسرعة واضطجع على سريره... أخذت الأفكار تتلاطم في رأسه، واعتصر قلبه... لم يعدْ يعرفُ كيف يُرضي زوجته سابقاً - طليقته- بعدما حصل بينهما فقد شعر أنّ جداراً ضخماً قد ضُرب بينهما بسبب ما حدث في منزل صديقته أيام الجامعة... كانا يذهبان إلى الجامعة كلٌ في سيارته، ولا يتحادثان في الجامعة مطلقاً، بل ويتجنبان النظر إلى بعضهما بشكل متعمد...

جلس (فؤاد) فوق سريره وظل مرتبكاً متحيراً في أمره...

ماذا يفعل... كيف يُعيد (فاتن) إليه... شعر بقلبه يحترق شوقاً إليها، لم يعد يعرف ماذا يفعل... هرع نحو النافذة المطلة على الشرفة ففتحها على مصراعيها وذهب نحو الشرفة ليتنفس هواءً نقياً اذ شعر بالاختناق.. كان كل ليلة يمسك سماعة الهاتف ليتصل بها ثم يتردد آخر لحظة ويرمي بالهاتف مرةً أخرى مُعرضاً عن فكرته...

تمنى في سّره وهو عند الشرفة لو تعود الأيام به إلى شبابه حيث قام بعبور الشرفة إلى شرفة غرفة (فاتن) وضمّها بين ذراعيه... كان يشعر انّ الأمر لم يعد نافعاً، فقد خَبَا ذلك اللهيب المستعر... شعوره بكبر سنه وقد تجاوز الثانية والخمسين من العمر بينما (فاتن) لا تزال في السابعة والثلاثين منه، كان يمنعه دوماً من الاتصال بها أو محاولة استعادتها...

- أنا لا استحقك يا حبيبتي...

ردّد مع نفسه وهو ينظر إلى البدر في تمامه...

صحيحٌ أنه شخص رياضي قويّ البنية، ولم يكن عُمُره ذاك ذا أثر بالغ على وسامته ومظهره أو لياقته، لكنّه كلما نظر إلى التجاعيد التي بدأت تظهر في وجهه ورقبته وهوانِ قواه البدنية عن ذي قبل، خصوصاً بعد أن هاجمه مرض السكري، كان يشعر بالألم وبفارق كبير يفصله عن (فاتن) التي كانت في أوج أنوثتها وجمالها اذ ذاك...

ذهبت (فاتن) مع أمير في اليوم التالي إلى الشركة وقامت بتوقيع العقد الجديد بعد ان ظلت حتى ساعةٍ متأخرة من الليل تراجع الملفاتِ التي أعطاها (أمير) إياها...

لقد سمع (فؤاد) كلام (أمير) معها... إذ انه كان ينتظر صعودها السلم بعد غسل أطباق العشاء كل ليلة في ساعةٍ معينه، فلما أبطأت بالصعود نزل هو يستعلم عن أخبارها، خوفاً عليها، وقبل ان يدلف المطبخ، سمع أخاه وكلامه كله...

لم يتحدث مع (أمير) ولم يكلّمه عن أمره مع فاتن، بل لزم الصمت حتى حانت ساعة رحيله مع مبلغ محترم من أخيه الأكبر اشترى به حصته من منزل والديه...

لقد رحل (أمير) من تلقاء نفسه بأعذار واهيه فهمتها (فاتن) على الفور، وكذلك فعل فؤاد... عندما حانت ساعة رحيل (أمير) من المنزل، إحتضن (أمير) أخاه الذي ربّت على كتفه وهو ينظر إليه نظرةً فهمها (أمير) بسرعة... لقد ادرك أنّ أخاه عرف بأمر حبه (فاتن) ولذلك قام باستئجار شقة في مكانٍ بعيد عن (فؤاد) و (فاتن)...أخذت الغيرة تغزو قلب (فؤاد) وهو ينظر إلى (فاتن) بين مجاميع الطلاب من الشباب الذين يسألونها عن دروسهم أو لمّا تجلس مع مجموعة من الأساتذةِ الذين يبدون إعجابهم بأسلوبها الرائع في مناقشة المواضيع المطروحة بين الجالسين من أساتذة وأستاذات...

فلقد أصبحت (فاتن) اجتماعيةً جداً، لا تخشى الاختلاط مع الأخرين أو مشاركتهم أفكارها أو التحدث مع الناس بكل انفتاح ورحابةِ صدر، ما دامتْ لا تقوم بشيء (يُغضب الله) على حدِّ قناعتها... كان الجميع يحترمها ويودّها ويعجب بأسلوبها القصصي الجميل في تدريس طلابها وطالباتها إذ تجعل من الدرس متعةً لا توصف، حيث أخذ طلاب من مراحل أخرى يحضرون درسها لا لشيءٍ سوى للاستمتاع بأسلوب طرحها والانتفاع بمعلوماتها العلمية أو التاريخية بطريقةٍ مشوقة!!...

كان (فؤاد) قد أعطى أميراً مبلغاً كبيراً من المال وتعاقد معه فيما بعد ان يبيعه حصته من المنزل كما فعل مع (هاني)... لأن (فؤاد) خيرّ (هاني) وزوجته كاترين- قبل طلاق فاتن- ان كانا يريدان البقاء مع عائلته ام المغادرة واخذ الورث من المنزل بشراء حصة (هاني) كي يظلّ البيت باسم (فؤاد) ولا يذهب إلى شخص غريب... كان أمير قد جلَبَ (محامياً)، صادَقَ على هذا الموضوع وأتمّ العقد وتمّ التنازل عن حصة (أمير) في المنزل لفؤاد فأصبح المنزل كلّه ملكاً له...

الفصل السابع
والعشرون

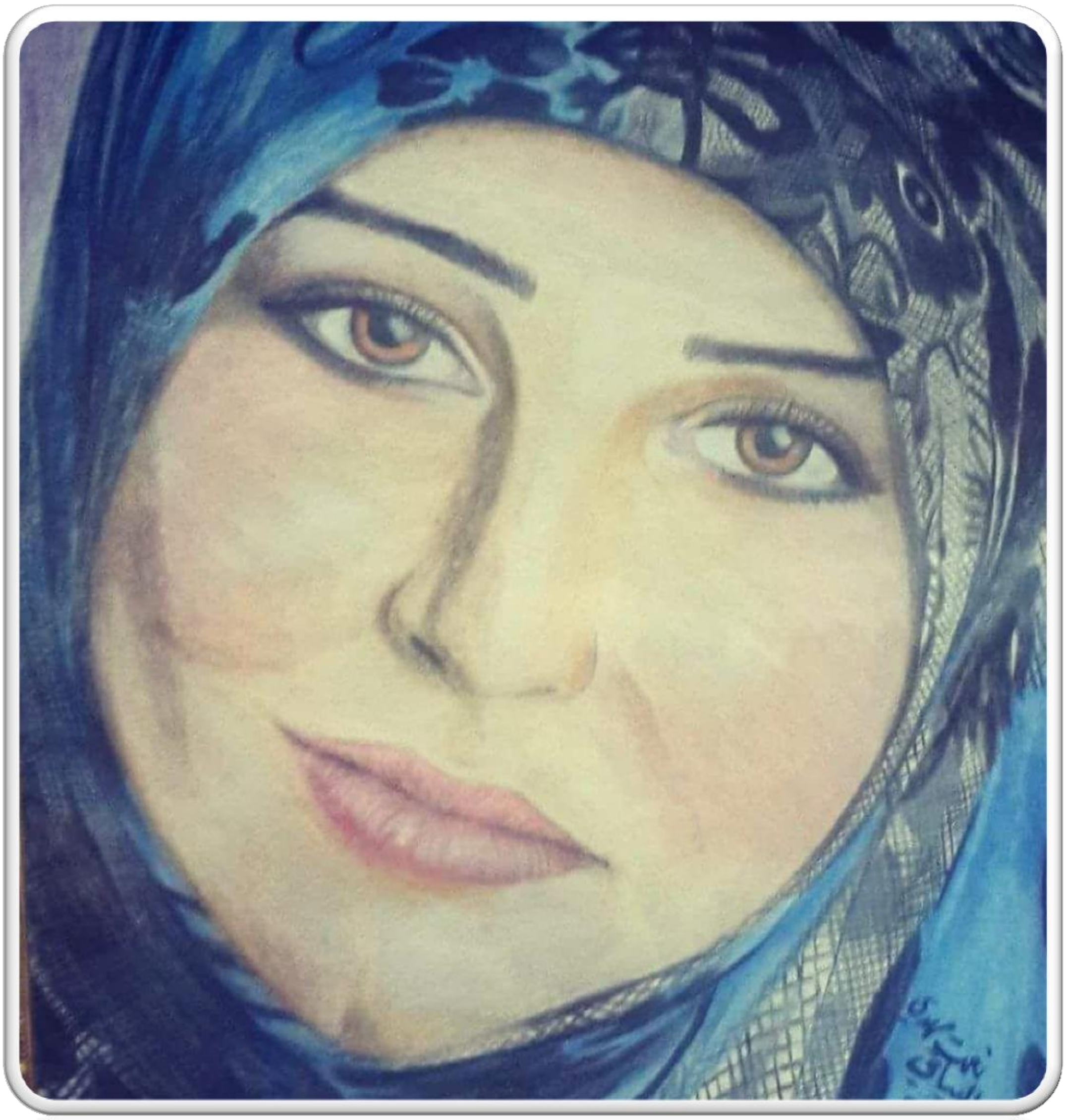

شعرتُ عندما باع (أمير) حصته لأخيه، إنني شبهُ غريبةٍ عن ذاك المنزل، لأنني كنتُ لا أبالي من قبل ببقائي فيه كونه منزلاً مشتركاً ولأنه لايزال باسم زوج خالتي (رحمها الله) فلما انتقلت الملكية لفؤاد واصبح المنزل رسمياً مسجلاً باسمه، شعرتُ انّ عليّ المغادرة ولذلك جلستُ مع (فرح) في احدى الأمسيات وكنتُ قد حضَّرّتُ حقيبة ملابسي ووضعتُ أموري الضرورية فيها وكلّ ما هو عزيزٌ عليّ من أغراضي وبالأخص كتب والدي التي أخذتها من منزل (جدي) عندما ذهبتُ مع فؤاد إلى كربلاء لتصفية ورثي...

نظرتُ إلى (فرح) بحبٍّ شديد، باشتياقٍ وولع، فبادلتني نظراتٍ حائرة مندهشة متسائلة فقلتُ لأقطع عنها حيرتها:

- حبيبتي! أنا ووالدكِ قد انفصلنا منذ مدة...

فَغَرتْ (فرح) فاهاً و صاحت بفزع...

- لماذا يا أميّ!!

(شعرتُ أنّ قراري بالخروج من المنزل كان خطأً على الفور، لكنني تابعتُ الكلام فلا مجال للتراجع)...

- حسنٌ! حصلت مشاكل عديدة، ولم نتوصَّل إلى اتفاقٍ سويةً!
- وماذا ستفعلين الآن!
- سأغادر المنزل يا (فرح)!

صرخت (فرح) بفزعْ...

- هل تتركيني!!

أمسكتُ بيديها... ذرفتُ الدموع، لم أتحمل منظرها وهي تتوسل إليّ أنْ ابقى معها..

- أماه! أنتِ لم تتركي بابا اليوم أو البارحة! أنا لستُ غبية!! لماذا تتركيننا الآن.. إبقي معنا كي ننعَمَ بوجودك.. والدي لن يعترض على ذلك... نحن أسرةٌ رغم كل شيء... كيف سأعيش بدونك... لا أستطيع الاستغناء عنك..
- يمكنكِ ان تأتي معي!!

- لكنني لا أستطيع ترك والدي أيضاُ! فهو مريض وبحاجة لي...

وأسقط ما في يديّ، فَحِرْتُ جواباً... نظرتُ إلى فرح ومسحتُ دموعها المتساقطة على وجنتيها بأناملي...

- أرجوكِ حبيبتي! كفى...
- اذاً، لن ترحلي؟!..
- لا أستطيع البقاء أكثر من هذا! أصبحتُ غريبةً عن هذا المكان.. لم يعد منزل خالتي، بل منزل والدك..

نهضتُ بحزم... لأنني عندما تذكرت أنّ المنزل أصبح ملكاً خالصاً لفؤاد، شعرتُ برغبةٍ حقيقية في مغادرته لأن كرامتي لا تسمح لي العيش من وعلى صَدَقاته... فلستُ بحاجةٍ إلى سكنٍ من طليقي وقد أنعم الله عليّ براتب ونقود كثيرة من عملي في الشركة... أو لنقل، نقود كثيرة، بجهود (أمير) في الشركة و استلامِهِ الأعمال كلها بدلاً عني... كنتُ قد كلّمتُ (أمير) مسبقاً قبل أن اخرج من المنزل وقد وعدني بإيجاد منزل مناسبٍ لي، يكون قريباً نوعاً ما إلى منزل خالتي، كي تستطيع (فرح) ويستطيع (فارس) القدوم إليّ دوماً..

صعدتُ السلم لأجلب حقيبتي، وتركتُ (فرح) تصرخ وتبكي، إنقبَض قلبي واعتصر بشدّه ولكن كان لابدّ من وجود نهاية... فكم فكرتُ في مصيري مع (فؤاد)... نحيا كطليقين تحت نفس السقف، إلى متى!؟ ولم يعد (أمير) معنا أيضاً وزيارة (هاني) وزوجته للمنزل نادرةٌ للغاية...

ذهبتُ إلى غرفتي لأجلب حقيبتي... عندما نزلتُ إلى الطابق السفلي، لم أجد فرحاً هناك، سحبتُ الحقيبة خلفي وأنا استذكرُ يوم جئتُ أسحبها قادمةً من العراق... أدمعت عيناي!!..

ناديتُ (فرح) لأسأل عن (فارس) الذي جاء إليّ متعجباً...

- إلى أين يا ماما!
- ستذهبُ ماما في سفرةٍ طويلة قليلاً وتعود بعدها اليك... كن مطيعاً في هذه الأثناء..
- خذيني معك!

نظرتُ إليه بدهشة وحزن في آن.. انهمرت الدموع من عينيّ..

- ليتني أستطيع!
- لمَ لا!
- حسنٌ... سأستقرّ أولاً ثم آتي لأخذك معي..
- خذيني الآن!
- لكنني لم احضر حقيبتك...
- هل احضرها له!

هتفت (فرح) فنظرت إليها بدهشة..

- لا يستطيع فارس العيش بدونك! انتِ امّه!؟
- حسنٌ! وماذا عن والدكِ... لربما لا يوافق!؟
- انه ابنكِ! ووالدي لا يوافق على خروجك أصلاً من هنا؟ خذيني معكِ أيضاً لما تستقرين يا أماه!
- يا الهي! وماذا عن أبيكِ! أنه مريض! من سيرعاه! من سيجلب له ابر الأنسولين.. أنتِ تعرفين مَرَضه...
- اذاً! أنتِ تخافين عليه!!
- طبعاً! أليس والدكما!؟
- ماما! لماذا تركتِهِ اذاً!؟...
- فرح!!

صحتُ بغضب، عندما دلف (فؤاد) إلى المنزل ورأى منظرنا... وقف مصعوقاً لا يلوي على شيء... رأى حقيبتي وفارس متعلقاً بساقيّ وفرح تمسكُ بيديّ... وما ان شاهدتْ فرح أباها حتى قفزت نحوه وصاحت مستنجدة..

- بابا! أوقفها! إنها تريد مغادرة البيت؟! أرجوك!

رفع (فؤاد) عينيه باتجاهي لأول مرةٍ منذ طلاقنا... نظر إليّ طويلاً فوقفتُ لا ألوي على شيء..

- بابا! قل لها أرجوكِ!
- لا أستطيع ان امنعها! انه قرارها!
- ماذا!

التفتت (فرح) نحوي وقد اختنقت العبارات في فمها وعيناها مليئتان بالدموع... شعرتُ بألم يخترق صدري حتى القلب..

((لماذا لا يمنعني! لماذا لا يفعل شيئاً!)) هتفتُ بغضب..

- لكن! سوف تأخذ (فارس)...

رمى فؤاد نفسه فوق الأريكة متهالك القوى... وفرح تصرخ..

- وأنا سأذهبُ معها أيضاً! ألن تفعل شيئاً! أنتَ لم تفعل شيئاً طيلة تلك الفترة التي بقيت أمي فيها هنا وأنتما منفصلان!

رفع (فؤاد) رأسه ونظر بدهشة إلى (فرح)... كنتُ أنا شديدة الدهشة لما سمعتُهُ منها أيضاً بينما تابعتْ هي..

- لماذا لا تتخذ خطوةً ما أو موقفاً تجاه أمي! لقد أعطتك فرصاً كثيرة لتصالحها! خمسة اشهر وأكثر من ذلك وأنتَ لا تبالي بها ولا تحاول ادنى محاولة للتحدث إليها..

قالت (فرح) وهي تبكي بحرقةٍ، بكيتُ لها أنا مباشرةً..

أطرق (فؤاد) برأسه إلى الأرض... رفعتُ حقيبة ثيابي وأمسكتُ بيد (فارس) وابتعدت عن الصالة وقبل أن اخرج طبعتُ قبلةً على جبين (فرح) وأنا أعطيها عنوان الفندق الذي سأبيت فيه مع أخيها، (بين أناملها)، وضعتُ البطاقة، وهمستُ بأذنها..

- حضّري ثياب أخيك وثيابك وتعالي لزيارتي...

نظرت (فرح) إليّ بسعادة و أومأت برأسها بسرعة دلالة الموافقة..

ذهبتُ مع (فارس) إلى الفندق المنشود، وكان اقرب فندقٍ موجود لمنزل خالتي... أخذتُ مفتاح غرفتي وأخذ الحمّال حقيبتي بينما صعدتُ إلى المصعد مع (فارس) وضغطتُ زر الطابق الثالث...

اتصّلتْ (فرح) بي قرابة العاشرة مساءاً تخبرني إنها قادمةٌ إليّ، فتحتُ الباب لها بعدما اتصل بي موظف الاستقبال وأخبرني بوجودها، فأعطيته تعليمات بالسماح لها بالصعود أولاً، ثم إرسال حقيبة الثياب التي كانت معها بيد الحمّال..

في تلك الليلة نمنا سوياً أنا وفرح وفارس على سرير واحد.. كانا يحتضناني بقوة، كل واحد يمسك ذراعاً، بينما انتثر شعري فوق الوسادة بينهما وعيناي معلقتان بالسقف، أفكرّ في (فؤاد)..

((رباه! كيف تشعر الآن يا ترى! سامحني... أنا لم أعد أستطيع البقاء! سامحني يا فؤاد))...

وذرفتُ الدموع بشكل لا إرادي ثم احتججتُ في سرّي..

((لكنْ!! أما كنتَ قادراً على فعل شيءٍ ما حقاً))..

((كل تلك الليالي، قضيتها قرب غرفتك، لا يفصلنا سوى جدارٍ واحد، أما كنت قادراً على هدمه! بكلمةٍ واحدةٍ منك أو لربما حتى إشارةٍ من عينيك! آه كم اشتقت لهما))

وعضضتُ على شفتي بينما انسكبت الدموع فوق وسادتي منحدرة من فوق وجنتيّ...

تذكرتُ ذكرياتي كشريط سينمائي، ذكريات تلك الأشهر الخمسة منذ تطلقتُ من (فؤاد)... كنّا نتزامن أحياناً في وقت ذهابنا إلى غرفتينا، (كلٌ إلى غرفته)، فنتعّمد عدم النظر إلى بعضنا و يطرق كلٌ واحدٍ منا رأسه ثم يذهب بسرعة نحو غرفته...

كنتُ كل ليلة، انظر إلى الهاتف الجوال وأنا أضعه قربي، عَليِّ أراه يرن باسمه المحبب إلى قلبي ولكنْ... مللتُ الانتظار... ليلةً بعد ليلة، لم اعد انظر إلى الهاتف، ولم أعد أخرجُ إلى الشرفة، ولم أعد انتظر منه كلمةً واحدة...

الفصل الثامن والعشرون

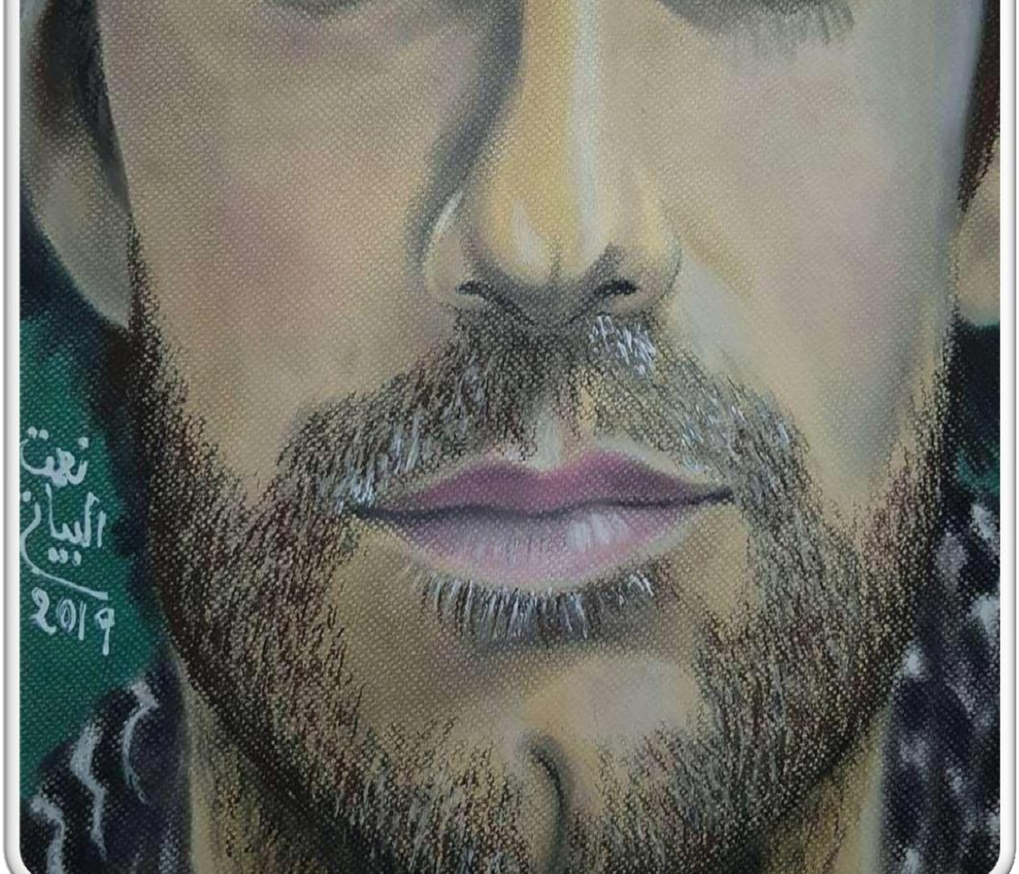
نعمت
البيان
٢٠١٩

انتقلتُ مع (فرح) و (فارس) للعيش في منزل جميل جداً، فيه حديقة رائعة الجمال ومسبح، اعجب الطفلان به كثيراً وظلّ فارس يركض في بهائِهِ الواسع وهو يقلدّ الطائرة عندما تريدُ الإقلاع... التفتّ إلى (أمير) لأشكره، بينما نظرتُ إلى (فرح) التي أخذتْ تتأمل غرف المنزل بعينٍ فاحصةٍ مدققة...

- أنا لا أعرفُ كيف أشكرك يا أمير!
- أنا تحت خدمتك يا فاتن!

قال (أمير) وهو ينظر إليّ نظرةً ذات معنى... خفق قلبي...

((هل أوافقُ على الزواج منه لأجل طفليّ!! لكنْ... مستحيل أن يكون في قلبي سوى (فؤاد)!! لا، لا... لا أستطيع))..

كانت فترة بقاء الطفلين معي جدّ متعبة لي مادياً ونفسياً...

أصبحتُ أنا فجأة (أماً) و (أباً)!! لم أطالب (فؤاد) بأي مصاريف، وكنتُ طيلة الوقت أعطي وأعطي كلما طلبا مني، علاوةً على مصاريف المدرسة ومتطلبات الثياب والأحذية والطعام والشراب...

لم يأتِ (فؤاد) لزيارتنا في الفندق ولا مرةً واحدة!! كان يكتفي بالاتصال (بفرح) هاتفياً والاستماع لصوت (فارس) عبره..

لقد ذهب مرتين أو أكثر لزيارة (فرح) في المدرسة وكذلك فعل مع (فارس)، لكنّه لم يقل لهما ان يذهبا للمكوث معه يوماً أو يومين!... نظر (أمير) إليّ ثانيةً وهو يشير إلى الأثاث الذي جلبته عربة النقل..

- اشتريتُ لك افخم أنواع الأثاث على ذوقي.. أرجو أن لا تمانعي ذلك، فأنتِ لما طلبتي مني أن أتكفل بكل شيء، قمتُ باختيار كل شيء خصيصاً لينال إعجابك! هه، ما رأيك!
- أنه رائع جداً! صحت بدهشة... أردفت بسرعة..
- لا أعرف كيفَ اكافؤك يا أمير!! إنه أثاث رائع...

قلتُ ذلك وأنا أنظر إلى العمال وهم ينقلون الأثاث إلى الداخل بينما نحن واقفان قرب الحديقة نشرف على عملهم.. قال (أمير):

- مكافأتي هي (أنتِ)!!

هتف فجأةً... أطرقتُ بصمت وكان قلبي يخفق بسرعة...

- أرجوك يا أمير... فلنؤجل هذا الموضوع حتى استقر في وضعي وأطمئنّ على أطفالي..
- حسنٌ! كما تشائين..

ردّ عليّ بخيبة امل... ثم قال متداركاً مخفياً خيبته بين طيات حباله الصوتية...

- اذاً! سأكون ممتناً لو وقعتِ لي على هذا المستند...
- حسنٌ! الآن!؟
- لم لا يا فاتن... نظر إليّ وتابع قائلاً..
- أرى انه مكانٌ جيد جداً كي تراجعي حِسابات الشركة... أتمنى لك التوفيق وإلى اللقاء لاحقاً... عديني انك ستفكرين في عرضي لكِ...
- سأفكر يا أمير! أعدك بهذا! (قلتُ على مضض)...

شعرتُ بالاستياء من نفسي... لكنني ولما رفعتُ رأسي ونظرتُ إلى طفليّ يلعبان قرب الأثاث الموضوع في الصالة الكبيرة... فجأة، شعرتُ بسعادةٍ خفية.. ((يجب أن يكون لهما أب يخاف ويخشى عليهما ويتكفل بمصاريفهما... أبٌ يراهما كل يوم ويحرص عليهما... لم ولنْ أجدَ افضل من (أمير)! لأنه عمهما!! لكنّ (فؤاد) أروع أب! كلّ ما حصل بسببي! لو إنني لم أطلب الطلاق))..

بقيتُ اقرعّ ضميري عندما سمعت صوت (أمير) وهو يغادر ملقياً التحية عليّ وعلى (فرح) و (فارس)...

و بعد أن رتّبنا أثاث منزلنا الجديد- الذي كان باسمي- أنا وفرح إذ قمنا ببعض التعديلات البسيطة حينما غادر العمال واكملوا ترتيب الأثاث كما أشرتُ اليهم أنْ يفعلوا، وقمتُ أنا وفرح بتعليق اللوحات ووضع التحفيات الصغيرة التي اشتريناها خصيصاً لمنزلنا الجديد... جلسنا على الأريكة أنا و (فرح) و قفز (فارس) فوق حضني مستوياً وهو يضحك بسعادة..

قلتُ لـ (فرح) فجأة وأنا أتكلم معها كصديقةٍ وأختٍ لي..

- ما رأيك يا حبيبتي بفكرةٍ سأطرحها لكِ...
- ماذا يا أماه!! قولي...

أطرقتُ بخجل أول الأمر، ثم قررتُ ان أقول المسألة لها..

- الأمر يتعلقُ بعمك (أمير)... إنه يصرّ على... يصرّ...
- على الزواج منك! صحيح؟!

قالت (فرح) بسرعة فرفعتُ عينيّ نحو عينيها الزرقاوين..

- كيفَ عرفتِ بالأمر!؟
- حسنٌ! أنا لستُ غبيةً يا أماه!؟ انه يهتمّ بك، ويرعى مصالح شركتك، وينفّذ كل ما تقولين!!
- اذاً! ما رأيك!؟ بماذا تنصحينني! أنا دوماً أشاورك.. (فروحة)! لم أعد أستطيع تحمل كل الأعباء وحدي...

لقد مرّت سته أشهر وأنا أرعاكما بمفردي!!

- حسنٌ اذاً! هل نعود لأبي!؟
- كلا! أنتِ لا تفهمين!! إسمعي يا فروحتي!

قاطعتني فجأة...

- ماما! هل لا تزالين تحبّين (أبي)! لطالما أردتُ سؤالكِ...
- ماذا؟! حسنٌ!

ترددتُ لدقيقة ونظرت اليها...

- لقد جعلني إهماله المستمر لمشاعري لا أعرف كيف أشعر حقاً! لم يَعد (فؤاد) القديم الذي أحبّني... لقد اهمل مشاعري كلياً...

انسكبت الدموع من مقلتّي... وضع (فارس) يده فوق عيني..

- لا تبكي يا ماما!! بابا إنسانٌ سيء!
- يا الهي! انك تستمع إليّ... كلا! بابا إنسانٌ رائع ونحن نحبّ بعضنا! اذهب لتلعب يا فارس هناك، أريد أن اكلم أختك...

- حسنٌ يا أماه! لم تجيبيني... اسألي قلبكِ!
- نعم! نعم! أحبّه طبعاً! مشتاقةٌ إليه جداً! لكنّه لم يعد يسأل وطال إهماله لي... أنه يخطأ بحقيّ ثم، يعتذر، وعندما أحاول أن أبتعدَ عنه، كي لا يُعيد كرّته، أجدني أعاقب نفسي قبل ان أعاقبه، لأنه لا يسأل عني ويهملني كلياً...

ودفنتُ وجهي بين يديّ بينما قفزت فرح لتجلس بجواري وتقبلني بحبٍ وسعادة..

- ماما، أنا أحبك! وسأظل احبك إلى الأبد...
- أعلم هذا يا عزيزتي، ولذلك فكرت بالارتباط بعمكِ... لأنني أريد لكما حياةً طبيعية... أتمنى ان يكون (أمير) شخصاً حنوناً، لا يهملني ولا يذهب إلى لقاءات (.....). ولم استطع ان أكمل كلامي فلذُتُ بالصمت بينما هتفت (فرح)...
- أماه! أنا اعرف كل شيء! لقد كان والدي يخونك، وذلك سبب انفصالكما!
- كلا! صه! (قلت بغضب) وأنا أتلفّت يميناً ويساراً..
- من أين جئتِ بهذه الفكرة؟! من قال لك...
- ماما! ماما! لقد رأيتُ والدي يكلمّ تلك المرأة مراراً وتكراراً الاّ أنني لم أشأ إزعاجك أو التسبب بمشاكل لكِ...
- متى ذلك؟ (استعلمتُ بدهشة)...
- قبل أن تذهبي لمنزل تلك المرأة لوحدك... لقد سمعته يكلمها لأكثر من مرة... ورأيتها تزوره عدّة مرات لمّا كنتِ تذهبين مع عمو (أمير) لتفقد أعمال شركتكِ...
- رحماك يارب! نعم! أنها تلك الثعبان، هي السبب...
- ماما! لماذا فعل أبي هذا... أوَ ليس يحبّك جداً...
- لا اعلم يا حبيبتي! هذا ما دفعني لتركه... لم يحترمني ولم يقدّر حياتي معه... يقول انه يحبني ثم يتصرف كما يشاء غير مبالٍ بوجودي، وعندما أحتجّ على ذلك يقابلني بالضرب!!
- ماذا! الضرب يا أماه! كلا! ذلك أمرٌ خطير..

قصصتُ على (فرح) ما حدث فعلاً فبكتْ معي ولأجلي وبكيتُ معها..

- أنا أخشى يا (فروحتي) الغالية أن يستمرّ بضربي وتصبح تلك عادةً عنده إن سامحته هذه المّرة...

الفصل التاسع والعشرون

بعد فترة أخبَرتُ (أمير) أنني قد وافقت على الزواج منه...

كان أسعد إنسان بذلك الخبر... عندما أغلقت باب غرفتنا بيده جلس بقربي فوق السرير... نظر إليّ بشغف... أما أنا، فكنتُ أنادي (فؤاد) بقلبي... لقد تمنيتُ في سرّي ان يأتي إليّ ويوقفني ويقول..

- ارجعي إليّ يا فاتن! أنا غير قادرٍ على العيش بدونك! كنتُ لأرتمي تحت قدميه، وأترك كل خلافاتنا جانباً وأنسى كل شيء... لكنّه لم يأتي... كنتُ انظرُ إليه أحياناً وأتمنى أن يشعر بمشاعري فيأتي إليّ... أنظر إليه من بعيد، ولكنّه لم يأتي...

تحدّث (أمير) وهو يقترب مني ويضمّ يديّ بين يديه...

- لا اصدّق انك الآن زوجتي!   (تذكرتُ كلمات فؤاد نفسها)...
- حسنٌ يا فاتن!

أطرق (أمير) برأسه ثم نظر إليّ فجأة..

- اعلم انك تحبيّن (فؤاداً)... اعلم ذلك...

رفعتُ نظراتي إليه بحزن، فنظر إليّ بألم... استمرّ بالكلام...

- لا يزال (فؤاد) يحبك... عليكِ ان تعلمي هذا...

أدمعت عيناي، نظرتُ إلى (أمير) بألم بينما شدّ هو على يديّ...

- فاتن! أنا ضحيتُ بقلبي لأجلك عمراً كاملاً... لستُ مستعداً ان أكمل عمري بدون قلب... حتى وإن عشتُ ظلاً لكِ... حتى وإن بقيتِ تحبين (أخي)... سأظلّ احبك مدى الحياة...

لقد فرّط أخي فيك لمّا ضربك وأنتِ حامل، حاولتُ أن أقول لك ذلك قبل سنوات لكنك سامحتهِ... فرط فيكِ مرةً أخرى، لمّا سمح لصديقاته السابقات أن يَعدْنَ إلى حياته...

فرّط فيكِ مرةً ثالثة لمّا أهملك ولم يحاول أن يستردّك... لكنني لن افرّط فيكِ ابداً يا فاتن! لأنني احبك... وعشتُ عمري على حبك، انتظر نظرةً واحدةً منكِ... أحيا لأرى ابتسامتك...

- أمير! أرجوك! لا أستطيع ان أستمر هكذا! أنا...
- حسنٌ... سأتركك كما تشائين... يكفيني ان تكوني بجواري ولا أريد أكثر من هذا...

ونمنا سويةً كأخوين تلك الليلة... في صباح اليوم التالي، وجدتُ ورقةً على وسادتي كتب (أمير) فيها...

((هل يُعقل ان ترددي في أحلامِكِ كلمة (فؤاد) عشرين مرةً ومنذ الليلة الأولى لزواجنا!؟ لا أستطيع أن أكون فؤادك... رحمةً بي يا فاتن... كفيّ عن تعذيبي))...

استويتُ جالسةً فوق السرير... لم اعدْ اعرف ماذا أفعل ... سمعتُ فجأةً صوت هتاف وصراخ، فتحت (فرح) الباب وصاحت وهي تصرخ بحماس...

- ماما! تعالي إلى الأسفل، أرجوكِ هيا... هيا أسرعي...

شدتني من يدي.. كنتُ ارتدي ثوب نومٍ ابيض شفاف.. ارتديت فوقه بسرعة رداءاً ابيض ونزلتُ بعد (فرح)...

وصعقتُ من ذلك المنظر.. كان (فؤاد) جالساً قبالة (أمير) وما أن رأياني نهضا... بقيتْ نظرات (فؤاد) معلّقةً بي، نفس النظرات السابقة اللاهبة بلهيب ازرق... نظرتُ إلى (أمير) بدهشة...

- كيف! لكن... ماذا حدث...

رفع (أمير) نظراته إليّ بحزن وهو يضع يديه في جيبي بنطاله... أعلن فجأةً...

- كنتُ أريد رضاكِ عني وموافقتك على الزواج مني...

سعيتُ عمري كله لذلك... بالأمس فقط ولما نمتِ... سَمعتك تهذين في الحلم وأنتِ ترددين: ((فؤاد، انقذني!))... صحيح انّ (فؤاد) لا يستحقك! لأنه أهملك وتركك ولم يقدّر حبك، لكنّه شخص محظوظ فعلاً... وأنا لا أستطيع العيش هكذا معك يا (فاتن)!

لا أستطيع... إن كنتِ تحبينّه حتى في أحلامك فأنا خسران، بل أنا أكبر خاسرٍ في الكون... سأخسر أخي إلى الأبد وأخسركِ بعد حين...

قال ذلك ثم ضرب على كتف فؤاد الذي نظر إليه بامتنان شديد

- وإن كان أخي هذا جباناً وغير قادرٍ على اتخاذ خطوة نحوك، لأنه يظنّ بل ويعتقد اعتقاداً راسخاً إنه لا يستحقك، وهو بالفعل كذلك.. (نظرا لبعضهما وابتسما)... فأنا أظنّ بشكل كبير، أنّ عليّ أن أسعى لصلحكما وجمعكما مرةً أخرى لتتزوجا اليوم وهنا بالذات على يد (الشيخ) الذي سيطلقنا أنا وإياك ويزوّجكما!!... (تبادلنا النظرات أنا وأمير)

نزلت السلم واقتربتُ من (أمير) وأمسكتُ بيديه بامتنان وطبعت قبلةً على (خدّه) بينما قفزت (فرح) بسعادة وصفق (فارس) بينما التفتُّ نحو (فؤاد) الذي كان يتأملني بشوق وحب لا متناهيين... أشار لابنته كي تجلب لي حجابي و جلبابي من غرفتي ففعلت، عندما أشرّ (أمير) لفؤاد بيده كي يفتح الباب ويُدخل (الشيخ) الذي جلس بيني وبين (أمير) يطلقنا ثم قام بتزويجي (فؤاد) الذي لم يُنزل نظراته عنيّ ابداً... خفق قلبي بسعادة وأنا اصعد السلم مع (فؤاد) الذي امسك بيدي وكأنه يمسكها للمرّة الأولى عندما طلب يدي للزواج في المطعم...

- اشتقتُ اليك يا فاتنتي!

قال بصوته الحنون بشغف...

- أنا اعتذر لك عن كل ما مرّ وكل ما جرى بيننا وأعدك ان لا افرط فيكِ ثانيةٍ يا حبيبتي...
- سنرى ذلك!!

قلتُ وأنا أنظر إليه بعتاب وتشكك فقابل نظراتي بتلك الأشعة الزرقاء التي تخترق روحي...

- كيف جلبك (أمير) إلى هنا! سألته وأنا بين ذراعيه لما اغلق فؤاد باب الغرفة علينا... ابتسم فؤاد وقال...

- لقد قال لي إنها فرصتي الأخيرة، وأنك لا تحبين سواي، وقصّ عليّ ما جرى بالأمس ثم قال لي انه سيضربني ضرباً مبرحاً إن لم آتي إليكِ وأعيدكِ إليّ... (فاتن)! أنا لم آتي إليكِ لأنني خفتُ عليكِ مني وأردتُ لك السعادة...
- سعادتي هي معك! إلى الأبد يا فؤاد... (نعم إلى الأبد)...

البـــدايـــة ...